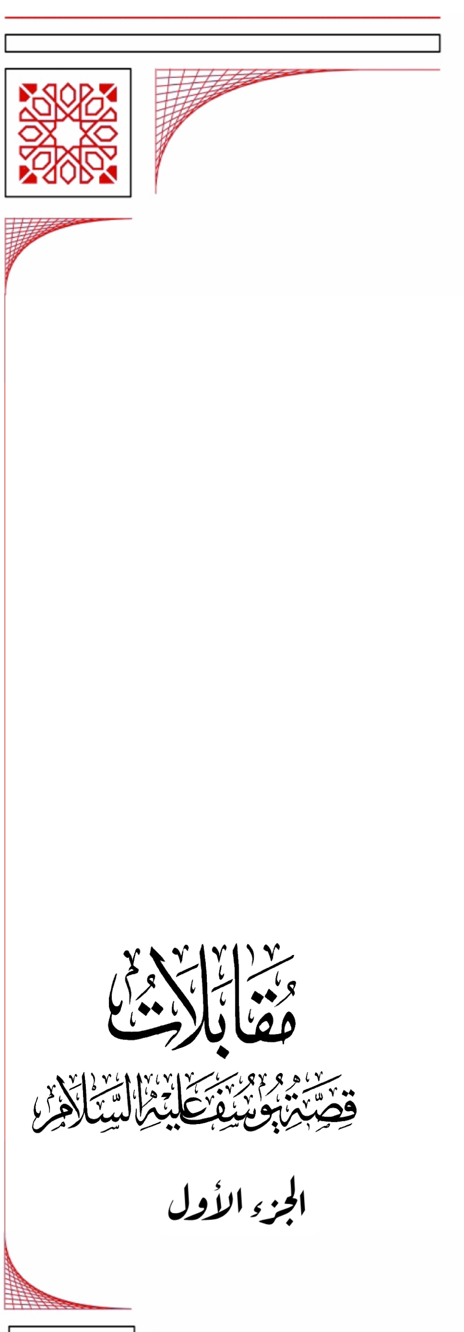
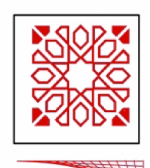

مقابلات
قصة يوسف عليه السلام
الجزء الأول
تأليف الدكتور
عبد الله بن عبده العواضي
غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing



مقابلات

قصة يوسف عليه السلام

الجزء الأول









العنوان: مقابلات قصة يوسف عليه السلام.

تأليف: د.عبد الله عبده العَوَاضي.

الجزء: الأول.

عدد الصفحات: (٤٠٤).

النَّاشر: غافق للدراسات والنشر.

الطّبْعة: الثانية، ١٤٤٤هـ-٢٠٢٢م.

قياس القطع: ١٧× ٢٤.

رقم الإيداع: (١٩٨٢) بدار الكتب بصنعاء لعام ٢٠٢٠م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.



إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل









مقابلات

قصة يوسف عليه السلام

الجزء الأول

تأليف الدكتور

عبد الله بن عبده العواضي







بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنارَ العقول بشروق بيِّناته، وكشفَ حجب الظلمات بأنوار آياته، وأنزل على رسوله القرآنَ الهادي بتنزيله، والداعي إلى رضوانه ومستقيم سبيله.

وأشهد أن لا إله إلا الله الإله الواحد الأحد، الرب الفرد الصمد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بدر الدُّجى، وسراج الهدى، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته الأكرمين، وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين وسلم تسليما.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم "هو أعظم المعجزات، وأكبر الآيات البينات، الجديد على تقادم الأعصار، اللذيذ على توالي التكرار، الباسق في الإعجاز إلى الذروة العليا، الجامع لمصالح الآخرة والدنيا"(١)، الذي حوى أسباب الهداية، والتحذير من الغواية، فكان في آياته البديعة: النواهي والأوامر، والمواعظ والزواجر، والأحكام والآداب، والأخبار الماضية والآتية.

وفي كل ذلك دعوة إلى فعل الخير، وتركِ الشر، وإصلاح النفس وتقويم اعوجاجها.

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ٩).

والناظر المتأمل يرى أن تلك الأمور قد ترد صريحة مباشرة، وقد تأتي في أسلوب آخر غير مباشر، كأسلوب القصة؛ فقد اشتمل القرآن الكريم على قصص كثيرة متنوعة الزمان والمكان، والأحداث والأشخاص والموضوعات، فصارت بذلك منبع هداية في كثير من المجالات التي يحتاجها الإنسان.

إن القصة وسيلة من وسائل إيصال العقائد والأحكام والسلوك، ولها تأثير عظيم على الناس؛ لكون نفوس البشر مجبولة على حب معرفة الأخبار، ومتابعة حركة أحداثها، ولأن القصة تجذب الانتباه بأسلوبها أو لغتها، أو أشخاصها، أو تسلسل أحداثها وانتظار نهاياتها.

ولوجود التشابه الإنساني في الأحداث تغدو القصة منهلَ إفادة يتلقى منها الإنسان أفكاراً وسلوكيات لها أثر في حياته.

وليس في القصة مباشرة الخطاب الذي قد يورث الملل والسآمة أحيانًا؛ فلذلك يظل القارئ أو السامع في الجو القصصي منتبهَ الذهن، غير مستطيل للوقت الذاهب في متابعة أحداث القصة.

وإننا نجد القصة القرآنية تحتل الصدارة في هذا الأسلوب القولي، فتتميز على القصص البشرية بميزات كثيرة، منها:

١ -الصدق والحق؛ إذ ليس فيها شائبة كذب ولا باطل.

٢- الواقعية؛ فقصص القرآن أحداث واقعية جرت، وليست أحداثًا خيالية افتُرِضت.

٣-العناية بجانب العبرة والعظة، وحذف ما لا فائدة من ذكره من القصة؛ ولذلك سيقت على سبيل الإيجاز في الغالب؛ لتكون للتذكير لا للذِّكْر.

" ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها، ويعرض عما عداه؛ ليكون تعرضه للقصص منزهًا عن قصد التفكه بها؛ من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها؛ لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، فهو ذكر وموعظة لأهل الدين، وهو بالخطابة أشبه "(١).

٤-النفع؛ فقد جاءت لأجل تحصيل النفع الدنيوي والأخروي للعباد؛ حثًا لهم على الخير، وزجراً عن الشر. فلا تساق للتسلية أو معرفة الحدث مجرداً عن الفائدة.

٥-السلامة من التحريف؛ فلا يحصل للقصة القرآنية مع مرور الزمان زيادة أو نقصان.

وبعد:

فإني قد ألفيتُ قصة يوسف عليه السلام قصة عظيمة في بابها، عجيبة في لغتها وأسلوبها، وبيانها ونظمها وعبرها وفوائدها؛ فلذلك عُني بدراستها وتدبرها عدد من العلماء والباحثين، وتناولوها من جوانب شتى؛ لكونها كالبحر؛ كلٌّ يفيد منه شيئًا دون أن ينضب.

حتى إني وجدت ابن القيم يقول: "وفي هذه القصة من العبر والفوائد

(١) التحرير والتنوير (١/٦٣).



والحكم ما يزيد على ألف فائدة، لعلنا إن وفقنا الله أن نفردها في مصنف مستقل "[1].

فرأيت أن هناك جانبًا في هذه القصة لم يُتناول بالدراسة والبحث-حسب علمي-، ألا وهو النظر في مقابلات هذه القصة.

فاستعنت بالله فتناولت السورة عمومًا والقصة خصوصًا بدراسة متقابلاتها من الذوات والصفات والمعاني، "وبضدها تتميز الأشياء".كما **قال** الشاعر.

وأود أن أقول في هذه المقدمة: إن من عاش مع هذه القصة المباركة بقلبه ومشاعره، ورأى ما فيها من الهموم والمزعجات، وتبدّلها بعد حين إلى أفراح ومسرات سلا في مصابه، وخف عليه بعض ما نزل به، كما **قال** عطاء : "ما سمع سورة يوسف محزون إلا استروح إليها"[2].

فنسأل الله بعد الشدة فرجا، وعقب الضيق مخرجا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: عبد الله بن عبده العواضي.

٢٠/٨/١٤٤١هـ. الموافق: ١٣/٤/٢٠٢٠م.

(١) الجواب الكافي (ص:١٤٩).

(٢) النكت والعيون (٣/٩).



بين يدي السورة الكريمة

هذا تمهيد نقدمه صورة إجمالية عن سورة يوسف وقصته فيها، ويشتمل على تسعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالسورة الكريمة.

المطلب الثاني: أحسن القَصص وفائدته.

المطلب الثالث: آيات للسائلين.

المطلب الرابع: أسباب عدم تكرار قصة يوسف.

المطلب الخامس: حديث السورة عن يوسف، وقول رسولنا محمد فيه.

المطلب السادس: فصول قصة يوسف ومشاهدها وعناصرها.

المطلب السابع: مرويات باطلة عن قصة يوسف عليه السلام.

المطلب الثامن: وجوه ارتباط قصة يوسف بحياة رسول الله محمد في مكة.

المطلب التاسع: هل إخوة يوسف كانوا أنبياء أو لا؟.

المطلب الأول: التعريف بالسورة الكريمة

سنتحدث في هذا المطلب عن الآتي:

١-اسم السورة:

سورة يوسف، وهذا هو الاسم الوحيد لها[١].

٢-عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

عدد آياتها: مائة وإحدى عشرة آية، باتفاق أصحاب العدد في الأمصار[٢].

وأما عدد كلماتها وحروفها فقد **قال** الثعلبي: "وهي سبعة آلاف وستة وسبعون حرفاً، وألف وسبعمائة وستة وسبعون كلمة، ومائة وإحدى عشرة آية"[٣].

وقال ابن عادل: "وعدد كلماتها: ألف، وتسعمائة، وست وتسعون كلمة، وعدد حروفها سبعة آلاف، ومائة، وست وستون حرفا"[٤].

٣-مكان نزولها وزمانه وسببه:

نزلت في مكة، **قال** ابن عاشور: "وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره.وقد قيل: إن الآيات الثلاث من أولها مدنية.**قال** في "الإتقان":

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٥).

(٢) الكشاف (٢/٤١٥)، بحر العلوم (٢/١٧٨)، التحرير والتنوير (١٢/٥).

(٣) الكشف والبيان (٥/١٩٦).

(٤) اللباب في علوم الكتاب (١١/٣).

وهو واهٍ لا يلتفت إليه"[(١)].

وأما سبب نزولها: فقد جاء عن سعد بن أبي وقاص في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[يوسف:٣]. قال: "نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عز و جل: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[يوسف:١]. تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[يوسف:٣]، فتلا عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾[الزمر:٢٣]. كل ذلك يؤمر بالقرآن"[(٢)].

وقد نزلت سورة يوسف بعد سورة هود، وقبل سورة الحِجْر، وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور، على قول الجمهور[(٣)].

٤-وجه تسميتها بهذا الاسم:

"ووجه تسميتها ظاهر؛ لأنها قصّت قصةَ يوسف- عليه السلام- كلها، ولم تذكر قصته في غيرها. ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر. وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف الر"[(٤)].

٥-فضلها وأثرها:

١ - **عن** علقمة بن وقاص الليثي قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٩٧).

(٢) رواه ابن حبان، والحاكم في مستدركه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في المطالب العالية، **وقال** الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٣) الكشاف (٢/٤١٥)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٦٧) التحرير والتنوير (١٢/٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/١٩٧).

يقرأ في العشاء الآخرة سورة يوسف، قال: وأنا في مؤخر الصف، حتى إذا ذكر يوسف سمعت نَشِيْجه من مؤخر الصفوف[(١)].

٢- **وعن** شماس مولى العباس بن عبد المطلب بن هاشم أنه حفظ سورة يوسف من في عمر بن الخطاب وهو يتلوها في الصلاة[(٢)].

٣- **وعن** الفرافصة بن عمير الحنفي قال: ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان إياها في الصبح، ومن كثرة ما كان يرددها[(٣)].

٤- **قال** الزركشي: "أول سورة حُملت من مكة إلى المدينة سورة يوسف، انطلق بها عوف بن عفراء في الثمانية الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وهم أول من أسلم من الأنصار، قرأها على أهل المدينة في بني زريق، فأسلم يومئذ بيوت من الأنصار، روى ذلك يزيد بن رومان عن عطاء بن يسار عن ابن عباس[(٤)].

وقال ابن حجر: "وحكى ابن إسحاق أن رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف"[(٥)].

٥- **عن** عكرمة أن مصعب بن عمير لما قدم المدينة يعلم الناس القرآن بعث إليهم عمرو بن الجموح: "ما هذا الذي جئتمونا به؟ فقالوا: إن شئت جئناك

---

(١) رواه البيهقي، وإسناده صحيح.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٨٧).
(٣) رواه مالك في الموطأ.
(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٠٣).
(٥) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٤٤٤).

فأسمعناك القرآن، قال: نعم. فواعدهم يومًا فجاء فقرأ عليه القرآن:﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:١، ٢]"[١].

٦- **قال** عطاء: ما سمع سورة يوسف محزون إلا استروح إليها[٢].

٦-مما انفردت به هذه السورة:

أ-أنها السورة التي أخلصت لذكر قصة نبي دون أن تتعرض لقصة أخرى سواها، وقد سردتها بتفاصيلها التي فيها وجوه من العظة والعبرة.

قال ابن عاشور: "ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف عليه السلام هذه السورة من الإطناب"[٣].

ب- أنها سورة تزيد على مائة آية ليس فيها ذكر جنة ولا نار[٤].

٧-أصل كلمة يوسف ولغاتها:

قال الماوردي: **وفي تسميته بيوسف قولان:**

أحدهما: أنه اسم أعجمي.

الثاني: أنه عربي مشتق من الأسف، والأسف في اللغة: الحزن[٥].

وقال الزمخشري: "ويوسف اسم عبراني، وقيل: عربي، وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوِّه عن سبب آخر سوى التعريف"[٦].

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤/٤٩٥).
(٢) النكت والعيون (٣/٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/٥).
(٤) البرهان في علوم القرآن (١/٢٥٥).
(٥) النكت والعيون (٣/٨).
(٦) الكشاف (٢/٤١٦).

وقال أبو حيان: "ويوسف اسم عبراني، وتقدمت ست لغات فيه. ومنْعه الصرفَ دليلٌ على بطلان قول من ذهب إلى أنه عربي مشتق من الأسف، وإن كان في بعض لغاته يكون فيه الوزن الغالب؛ لامتناع أن يكون أعجمياً غير أعجمي "[1].

وقال النيسابوري: "ويُوسُفُ ليس عربيًا على الأصح؛ إذ لا سبب فيه بعد التعريف إلا العجمة فهو اسم عبراني، ومن ظن أنه من آسف يؤسف- بناء على أنه قرئ بكسر السين وبفتحها فيوجد فيه وزن الفعل أيضًا- فقد أخطأ؛ لأن القراءة المشهورة تأباه، ولن يكون الاسم عربيًا تارة، وأعجميًا أخرى "[2].

واسم يوسف فيه ثلاث لغات: ضم السين وفتحها وكسرها(يُوسُفُ ويُوسَفُ ويُوسِفُ) وحكي فيه الهمز أيضًا، وتثلث سينهما أي: مع الهمز وغيره[3].

٨-أهم أغراضها[4]:

١- بيان قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواحٍ مختلفة.

٢-وفيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات.

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٨٠).

(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٦٥).

(٣) لسان العرب (٩/ ٥)، تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣/ ١٨)، مختار الصحاح (ص:١٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٦) بتصرف.

٣-وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.

٤-وفيها بيان تحاسد القرابة بينهم.

٥-ولطف الله بمن يصطفيه من عباده.

٦-والعبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.

٧-وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلِهم من الأذى. وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه؛ مثل عمه أبي لهب، والنضر بن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعدُ وحسن إسلامه؛ فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء، كما **قال** طرفة:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً   على المَرْءِ مِن وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

٨-وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهما السلام على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

٩-وفيها العبرة بهجرة قوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب عليه السلام وآله، وذلك إيماء إلى أن قريشًا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين؛ تبعًا لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

١٠-وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها، واسترقاق الصبي اللقيط، واسترقاق السارق، وأحوال المساجين، ومراقبة المكاييل.

المطلب الثاني: أحسن القَصص وفائدته

لما كانت هذه السورة مخلَصة في ذكر قصة واحدة، وكون هذه القصة قصة مليئة بالعظات والعبر؛ فإن الله تعالى قد افتتح مقدمتها بآية تعلي من شأن القَصص القرآني، وتفضله على غيره.

كما ختمها بآية تذكر الفائدة العامة من قَصص القرآن الكريم، وتحدد أهلها الذين ينتفعون بها.

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:٣].

ومعنى ﴿نَقُصُّ﴾: نخبر الأخبار السالفة.وهو منقول من قص الأثر إذا تتبع مواقع الأقدام؛ ليتعرف منتهى سير صاحبها.ومصدره: القص بالإدغام، والقصص بالفك، **قال** تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[الكهف:٦٤].وذلك أن حكاية أخبار الماضين تشبه اتباع خطاهم، ألا ترى أنهم سموا الأعمال سيرة وهي في الأصل هيئة السير، وقالوا: سار فلان سيرة فلان، أي: فعل مثل فعله، وقد فرقوا بين هذا الإطلاق المجازي وبين قص الأثر، فخصوا المجازي بالصدر المفكك، وغلبوا المصدر المدغم على المعنى الحقيقي مع بقاء المصدر المفكك أيضًا كما في قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾.**وقيل**: سميت الحكاية قصصًا؛ لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئًا فشيئًا كما **يقال**: تلا القرآن إذا قرأه؛ لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية.

والقصص: إتباع الخبر بعضه بعضًا، وأصله في اللغة: المتابعة قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[القصص:١١]، أي: اتبعي أثره.

والقَصص هنا يحتمل أن يكون:

١ -اسمَ مفعول، وهذا من إطلاق المصدر وإرادة المفعول؛ كالخلق بمعنى المخلوق، وكقولك: هذا قدرة الله تعالى أي: مقدوره، وهذا الكتاب علم فلان أي: معلومه، وهذا رجاؤنا أي: مرجونا.

والمعنى في كون هذا القصص هو أحسن القصص: لما فيه من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها.والظاهر أنه أحسن ما يقص في بابه كما **يقال** للرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، **يراد**: في فنه.

فإن إحدى الفوائد التي في هذه القصة: أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قدر الله تعالى، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه.

والفائدة الثانية: دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان.

والفائدة الثالثة: أن الصبر مفتاح الفرج؛ كما في حق يعقوب عليه السلام؛ فإنه لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك في حق يوسف عليه السلام.

٢ -أن يكون مصدراً للفعل قص.بمعنى الاقتصاص، يقال: قص الحديث يقصه قصًا وقصصًا إذا طرده وساقه، كما يقال: أرسله يرسله إرسالاً.

والمعنى على هذا الاحتمال: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، وعلى هذا

التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة، والمراد على هذا الاحتمال بكونه أحسن: أنه اقتص على أبدع طريقة، وأحسن أسلوب.

والمقصود من هذا الحسن: كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، **ألا ترى** أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة.

وجعل هذا القصص أحسن القصص؛ لأن بعض القصص لا يخلو عن حسن ترتاح له النفوس.

وقَصص القرآن أحسن من قَصص غيره من جهة: حسن نظمه، وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العبر والحكم، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن.وليس المراد أحسن قصص القرآن حتى تكون قصة يوسف عليه السلام أحسن من بقية قصص القرآن كما دل عليه قوله:﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[يوسف:٣].

قال القرطبي: "واختلف العلماء: لِمَ سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟

١-فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١].

٢- **وقيل**: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم- بعد الالتقاء بهم- عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو

عنهم، حتى قال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[يوسف: ٩٢].

٣- **وقيل**: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

٤- **وقيل**: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما.

وقيل: "أَحْسَنَ" هنا بمعنى أعجب. **وقال** بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص؛ لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز، قيل: والملك أيضًا أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال: فما كان أمر الجميع إلا إلى خير".

وقال أبو حيان: "وقيل: كانت هذه السورة أحسن القصص: لانفرادها عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، والأنعام، والطير، وسير الملوك، والممالك، والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء وكيدهن ومكرهن، مع ما فيها من ذكر التوحيد، والفقه، والسير، والسياسة، وحسن الملكة، والعفو عند المقدرة، وحسن المعاشرة، والحيل، وتدبير المعاش، والمعاد، وحسن العاقبة في العفة، والجهاد، والخلاص من المرهوب إلى المرغوب، وذكر الحبيب والمحبوب، ومرأى السنين وتعبير الرؤيا، والعجائب التي تصلح للدين والدنيا "[(١)].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٩-١٠)، تفسير الرازي (١٨/٤١٧)، الكشاف(٢/٤١٥)، تفسير القرطبي (٩/١٢٠)، البحر المحيط (٥/٢٧٩).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى:﴿قَصَصِهِمْ﴾إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه يعود على يوسف وإخوته.

وقد قيل: إن الله تعالى قال في أول هذه السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[يوسف:٣]، **وقال** في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فدل على أن هذه القصة من أحسن القصص، وأن فيها عبرة لمن اعتبرها.وهذا قول جمهور المفسرين(١).وهو الراجح.

القول الثاني: أنه يعود على الأنبياء والرسل الذين ذكر الله قصصهم في هذه السورة أو غيرها من سور القرآن، **وقال** بهذا القول: الزمخشري وابن كثير.واستدل الزمخشري على ذلك بقراءة كسر القاف؛ إذ إنها تكون قِصصًا، وليست قصة واحدة، وقصة يوسف واحدة، وليست قصصًا متعددة(٢).

القول الثالث: أن الضمير في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ عام ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة، قاله ابن عطية(٣).

(١) تفسير الطبري (١٦/٣١٢)، البرهان في علوم القرآن للإمام الحوفي – سورة يوسف (ص:٣٤٥)، الهداية الى بلوغ النهاية (٥/٣٦٥٦)، تفسير البغوي (٤/٢٨٧)، تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/٥٦١)، تفسير الرازي (١٨/٥٢٢)، بحر العلوم (٢/٢١٤)، النكت والعيون (٣/٩٠)، زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٧٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٦٦)، الكشاف (٢/٥١١).

(٣) تفسير ابن عطية (٣/٢٨٩).

وأما العبرة المجملة في قوله تعالى: ﴿عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ فقد ذكر بعض المفسرين جانبًا **منها:**

قال ابن عطية: " فإذا تأملت قصة يوسف ظهر أن في غرائبها، وامتحان الله فيها لقوم في مواضع، ولطفه لقوم في مواضع، وإحسانه لقوم في مواضع، معتبراً لمن له لب، وأجاد النظر، حتى يعلم أن كل أمر من عند الله وإليه "[(١)].

وقال الطبري: "وذلك أن الله جل ثناؤه بعد أن ألقي يوسف في الجبّ ليهلك، ثم بِيع بَيْع العبيد بالخسيس من الثمن، وبعد الإسار والحبس الطويل؛ ملّكه مصر، ومكّن له في الأرض، وأعلاه على من بغاه، سواء من إخوته، وجمع بينه وبين والديه وإخوته بقدرته، بعد المدة الطويلة، وجاء بهم إليه من الشُّقّة النائية البعيدة، **فقال** جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: لقد كان لكم، أيها القوم، في قصصهم عبرةٌ لو اعتبرتم به، أن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا يتعذَّر عليه فعلُ مثله بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيخرجه من بين أظهُرِكم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرَّت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والدهور والأزمان"[(٢)].

وقال الرازي: " **ووجه الاعتبار بقصصهم أمور:**

الأول: أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في

---

(١) تفسير ابن عطية (٣/٢٨٩).

(٢) تفسير الطبري (١٦/٣١٢).

السجن وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة؛ لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته.

الثاني: أن الإخبار عنه جارٍ مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم.

الثالث: أنه ذكر في أول السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، ثم ذكر في آخرها: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب؛ تنبيهًا على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة"(١).

وقال أبو زهرة: " ومهما يكن فإن قصة يوسف قصة واحدة، اختص بها يوسف عليه السلام، وهي أخبار متنوعة قُطبها يوسف عليه السلام، وفيها عبر مختلفة، فيها بيان لحال النفوس، وما يعروها من منازع، وما تعترك به من أهواء، وما في النفس من قوة إرادة وصبر للمهتدين، ونزوغ فاسد للضعفاء الذين ينساقون، وما فيها ما يحمي البيوت من آفات، وما يعروها من انحرافات، وفيها بيان لتدبير الجماعة، وتنظيم لاقتصادها، وإحكام، وإخلاص، وعدل، وبيان لما يجب من الادخار من سني الرخاء لسني الشدة، وفي سورة يوسف صورة للحاكم العادل، تراها في أوصاف يوسف عليه السلام.وأولى هذه الصفات البارزة قوة الإرادة، ومظهرها الصبر عندما تعتلج النفس بأسباب الشهوات.

وثانيها: الأناة، وأن يضبط نفسه عند الغضب، ولا ينساق وراءه، فالحاكم الذي يسير وراء الغضب يشط، ويظلم، وقد رماه إخوته بالسرقة كاذبين عليه،

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٥٢٢).

مغرضين عليه.

وثالثها: العناية بذوي الحاجات، ولو كانوا مؤذين له، أو سبق لهم منه الأذى كما عامل إخوته.

ورابعها: الثقة بالنفس، وطلب الأمر إن كان يصلحه، كما **قال** يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾[يوسف:٥٥].

فلم يفرّ من تحمل التبعة عن بينة وجدارة واستحقاق، مع ذاكرة قوية مدركة، يعلم ما مضى وما حضر.

وخامسها: الإخلاص لِلَّهِ تعالى، وعبادته وحده، فلا يشرك، فتديّن الحاكم يجعله خاضعًا لله.

وسادسها: أن يكون رفيقًا في معاملة الناس، شفيقًا بهم، فهو كالوالي على اليتيم، يعطيهم من رفقه ورفده ما يدنيهم إليه، وهكذا كان يوسف حتى وهو في سجنه، فقد كان يناديهم، وهو في سجنه مع المسجونين بأنهم أحبابه وأصحابه، وإن من الشفقة والرفق العفو عندما توجد أسباب يداوى به الحسد والعداوة، فلا يجتث شيء الحسدَ والأحقاد كالعفو والمحبة وإدناء البعيد، وتقريب العشير، وكل ذلك كان في يوسف.

وسابعها: التأني للأمور، وقد رأينا كيف أخذ الثقة في لين، ومن غير إعنات من العزيز، ظهر ذلك فيمن هو أعلى منصبًا منه، وظهر في صغائر الأمور، كما رأيت في استبقائه أخاه من غير اقتتال، بل بوضعه السقاية في رحل أخيه من غير اتهام لشخصه، ثم أخذ الحكم من ألسنتهم، ونفذه بقولهم.

ثم من بعد ذلك أخذ الأمور بالتأني، حتى التقى بأبيه على مائدة الرحمة والمودة والإيثار، وقد قتل الحقدَ بالعفو، والغيرة بالمحبة، والضلال بالهداية"(١).

وقال الرازي: "**واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات:**

الصفة الأولى: كونها عبرة لأولي الألباب وقد سبق تقريره.

الصفة الثانية: قوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾[يوسف:١١١].وفيه قولان:

الأول: أن المراد الذي جاء به -وهو محمد صلى الله عليه وسلم- لا يصح منه أن يفترى؛ لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتتلمذ لأحد، ولم يخالط العلماء، فمن المحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت.

والثاني: أن المراد أنه ليس يكذب في نفسه؛ لأنه لا يصح الكذب منه، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية،...

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفيه قولان: الأول: المراد: وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته، والثاني: أنه عائد إلى القرآن، كقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]، فإنَّ جعل هذا الوصف وصفًا لكل القرآن أليق من جعله وصفًا لقصة يوسف وحدها، ويكون المراد: ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين. **قال** الواحدي على التفسيرين جميعًا: فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله:

(١) زهرة التفاسير (٣٨٧٩/٧).

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]، يريد: كل شيء يجوز أن يدخل فيها، وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٢٣].

الصفة الرابعة والخامسة: كونها هدى في الدنيا، وسببًا لحصول الرحمة في القيامة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، خصهم بالذكر؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به"[1].

(١) تفسير الرازي (١٨/٥٢٢-٥٢٣).

المطلب الثالث: آيات للسائلين

افتتح الله تعالى قصة يوسف بآية عظيمة وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[يوسف:٧].

وهذا الاستهلال استهلال فخم، وافتتاح مشوِّق، يدعونا للوقوف عند قوله: ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾، فما معنى كون قصة يوسف وإخوته فيها آيات للسائلين؟

أولاً: المراد بقوله: (آيَاتٌ):

الآيات معناها: الدلائل على ما تُتطلب معرفته من الأمور الخفية، والآيات حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال؛ لتكون مرشدة للسائرين، ثم أطلقت على حجج الصدق، وأدلة المعلومات الدقيقة.

ومعناها هنا: العبر والمواعظ من هذه القصة.وقيل: الدلالات على قدرة الله وحكمته.وقيل: الدلالات على صدق رسول الله ونبوته.وقيل: البصائر والعَجب.وقيل: الزواجر للمتقين.

ثانيًا: المراد بالسائلين:

يحتمل لفظ السائلين أن يكونوا هم الذين قد سألوا، أو الذين سيسألون:

فأما على الأول: فقد ساق البيهقي بسنده في " دلائل النبوة" عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد، من علمكها؟ قال: (الله علمنيها)، فعجب الحبر لما سمع منه! فرجع إلى اليهود **فقال** لهم: والله إن محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة.فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فجعلوا يستمعون إلى قراءته بسورة يوسف فتعجبوا منه، وأسلموا عند ذلك.

لكن في سند البيهقي هذا: محمد بن السائب الكلبي، وهو كذاب، **قال** الحاكم: أحاديثه عن أبي صالح موضوعة.

وأما على الثاني: فالمراد: السائلون الذين يسألون من بعد إلى آخر الدهر عن نبأ يوسف، كل من سأل عن خبره ونبيه فهو آية لهم.

والمعنى: للسائلين عن خبرهم وقصتهم، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه.أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبينات.

وقيل: المعنى لمن سأل ولمن لم يسأل لقوله: ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[فصلت:١٠]، أي: سواء لمن سأل ولمن لم يسأل.وحسن الحذف لدلالة قوة الكلام عليه لقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[النحل:٨١].أي: والبرد.

ثالثًا: المعنى المقصود من جملة: (آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ):

هذه الآيات إما أن تكون راجعة إلى خبر يوسف وإخوته، وإما راجعة إلى حال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في مكة حال نزول هذه السورة عليه.

فأما على الأول: ففي قصة يوسف عليه السلام دلائل على ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد والإضرار بالناس من الخيبة والاندحار والهبوط.

وفيها آيات معظمات لمن يسأل عن قصة يوسف وإخوته ويعرفها؛ فإنها تدلهم على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى، لا يتعلق بسعي ساع ولا إرادة مريد، فيعلمون مراتب الاستعدادات في الأزل.

وأن من أراد الله به خيراً لم يمكن لأحد دفعه، ومن عصمه الله لم يمكن لأحد رميه بسوء، ولا قصده بشر، فيقوى يقينهم وتوكلهم.

وأن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد، حتى الأنبياء، فيكونون منه على حذر، وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم الذي هو الانتقال الذهني على أحوالهم في البداية والنهاية وما بينهما، وكيفية سلوكهم إلى الله، فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم، وتقوّي عزيمتهم.

وقصتهم أيضًا تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد، وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق، وعلى اللبث في السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف، وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد، وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ.

وفيها دلائل تبين حكمة الله تعالى في الخلق والتكوين، وطبائع النفوس، وطغيان الحسد على المحبة الأخوية والمودة الواصلة، وأن تسعة أعشار الجرائم أو

كلها سببها الحسد، فإذا اقتلع من النفوس اقتلع أكثر الأخبات النفسية.

وفيها شيء كثير من أنواع الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفي من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها؛ لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه؛ فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله، وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة، ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾[يوسف:٦]. فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقا، وباطنها مشرقا، وبدايتها شراً وخسرا، وعاقبتها خيراً وفوزا، وصدق قول الله - عز وجل -: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨].

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة؛ كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف،

وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له، ومن شهادة الله بالعلم بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[يوسف:٦٨]، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان.ومن علم يوسف بتأويل الأحاديث، ومن رؤيته لبرهان ربه، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة، ففي القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني، وهي أخفى مما قبلها، وأحق بالسؤال عنها.

وأما ما يتعلق بحال رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أثناء نزول هذه السورة عليه:

ففيها من الدلائل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن وحي من الله؛ إذ جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلا أحبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات.

وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أن هذا الكلام من عند الله ألقاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.

وفيها حجة لنبوة رسوله ورسالته؛ لأن قصته ونبأه كان في كتبهم بغير لسانه من غير ترجمة أحد منهم ولا تعليم، ثم أخبرهم على ما كان في كتبهم من غير زيادة ولا نقصان دل أنه إنما علمه بالله تعالى لا أنه أخذه من كتبهم، والله أعلم[١].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٧٢)، البحر المحيط (٦/٢٤٠-٢٤١)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/٥٧٥)، التحرير والتنوير (١٢/٢١٨-٢١٩)، الهداية الى بلوغ النهاية (٥/٣٥٠٥)، تفسير الخازن =

قال ابن عطية: "وقوله: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ يقتضي حضًا ما على تعلم هذه الأنباء؛ لأنه إنما المراد آية للناس، فوصفهم بالسؤال؛ إذ كل واحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص؛ إذ هي مقر العبر والاتعاظ"[1].

= لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/٥١٣)، تفسير الرازي (١٨/٤٢٣)، الكشاف (٢/٤٤٥)، تفسير السعدي (ص:٣٩٤)، تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/١٥٣)، تفسير الماتريدي(٦/٢١٠)، تفسير المنار (١٢/٢١٤-٢١٥)، زهرة التفاسير (٧/٣٧٨٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/٢٩٢)، تفسير البغوي (٤/٢١٧)، المدخل إلى الصحيح، للحاكم (ص:١٩٥).

(١) تفسير ابن عطية (٣/٢٢١).

المطلب الرابع: أسباب عدم تكرر قصة يوسف

ذكر بعض أهل العلم أسبابًا لعدم تكرر قصة يوسف عليه السلام، ولسوقها مساقًا واحداً في موضع واحد دون غيرها من القصص، فمن ذلك:

أولاً: فيها من تشبيب النسوة به، وتضمن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً، وأرفعهم مثالاً، فناسب عدم تكرارها؛ لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك.

ثانيًا: أنها اختصت بحصول الفرَج بعد الشدة، بخلاف غيرها من القصص؛ فإن مآلها إلى الوبال؛ كقصة إبليس وقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، فلما اختصت هذه القصة في سائر القصص بذلك اتفقت الدواعي على نقلها؛ لخروجها عن سمت القصص.

ثالثًا: **قال** الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني: "إنما كرر الله قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقًا واحداً؛ إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم **قال** لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء،

قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة، على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل".

رابعًا: أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه، فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها.

خامسًا: وهو أقوى ما يجاب به-كما **قال** السيوطي-: أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله، فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب كما حل على المكذبين؛ ولهذا قال تعالى في آيات: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾[الأنفال:٣٨]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾[الأنعام:٦]، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك

وبهذا أيضًا يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح.

سادسًا: سورة يوسف قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن، وبلغ أشده واكتهل، فنبئ وأرسل ودعا إلى دينه، وكان مملوكًا ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسن الإدارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة(١).

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٢٩)، الإتقان في علوم القرآن (٣/٢٣١-٢٣٢)، تفسير المنار (١٢/٢٠٧)، تفسير القرطبي (٩/١١٨).

المطلب الخامس: حديث السورة عن يوسف، وقول رسولنا محمد فيه

في هذه السورة الكريمة- التي أفردت لشرح قصة يوسف الكاملة في أطوار عمره، وتقلبات حياته، والتي زاد ذكره فيها على (٢٥) مرة-؛ نجد الحديث عنه يأخذ طابع الثناء تصريحًا وتلميحًا على حسن مواقفه، وجميل صفاته، وكرم نفسه، وصفاء قلبه ونيته، وصلابة إيمانه الذي واجه به عواصف المحن التي هبت عليه من صغره إلى كبره.

فقد تحدثت السورة الكريمة عن هذا النبي الكريم أنه عاش مع أبيه حياة البُنُّوة المحبوبة المكرمة، وعاش حياة الأخوّة مع إخوة حاسدين حاقدين انتهت بإلقائه في الجب، ومر بالرق على أيدي النخاسين الذين باعوه لعزيز مصر، فعاش رقيقًا مكرمًا في ترف ونعمة في قصر العزيز، وعاش حياة الامتحان مع امرأة العزيز وصواحبها، وعاش حياة السجن وضيقه، وعاش حياة الدعوة في سجنه، وعاش حياة الانتظار للفرج بعد خروج صاحبيه من السجن، وعاش حياة العز والتمكين مع الملك، وعاش حياة اللقاء بأسرته.

إنها حياة مفعمة بدروس بليغة في مدرسة الحياة فحواها: أن الأمور لا تدوم على حال، بل تعيش متقلبة من طور إلى طور.

قال الشاعر:

"فَيَومٌ عَلَينا وَيَومٌ لَنا	وَيَومٌ نُساءُ وَيَومٌ نُسَر "[1].

" إن قصة يوسف- كما جاءت في هذه السورة- تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في

(١) روضة العقلاء (ص:٢٨١).

الأداء النفسي والعقيدي والتربوي، ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء! إن القصة تعرض شخصية يوسف- عليه السلام- وهي الشخصية الرئيسية في القصة- عرضًا كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات.وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها..ابتلاءات الشدة، وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات..ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيًا خالصًا متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهًا إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

...فإذا تابعنا شخصية يوسف- عليه السلام- فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية، المتمثلة في كونه «العبد الصالح- الإنسان- بكل بشريته، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه"[(١)].

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد مدح يوسفَ عليه السلام بالكرم والتقوى، **فقال** عليه الصلاة والسلام: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن (٤/١٩٥١-١٩٥٥،١٩٥٢).

(٢) رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم). فقالوا: ليس عن هذا نسألك قال: (فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله)...[1].

(١) متفق عليه.



المطلب السادس: فصول قصة يوسف ومشاهدها وعناصرها

أولاً: الفصول والمشاهد:

يمكننا أن نرسم الخطة العامة لهذه القصة النافعة ونلخصها في خمسة فصول، كل فصل يشتمل على عدة مشاهد تتباين فيما بينها في الطول والقصر.

وكل هذه الفصول تحكي الأطوار التي مر بها يوسف الصديق عليه السلام.

الفصل الأول: في بيت يعقوب.

ويحتوي هذا الفصل على المشاهد **الآتية:**

١- قص يوسف رؤياه على أبيه.

٢- اجتماع إخوة يوسف على المؤامرة.

٣- طلب إخوة يوسف من أبيهم الخروج بيوسف.

٤- من البيت إلى الجب.

٥- عودة أبناء يعقوب بخبر يوسف.

٦- يوسف بيد السيارة.

الفصل الثاني: في بيت العزيز:

ويحتوي هذا الفصل على المشاهد الآتية:

١- التمكين الأول ليوسف.

٢- مراودة امرأة العزيز يوسفَ عن نفسه.

٣- امرأة العزيز وصواحبها.

٤- الاتفاق على سجن البريء.

الفصل الثالث: في السجن:

ويحتوي هذا الفصل على المشاهد الآتية:

١- يوسف مع الفتيين.

٢- رؤيا الملك والبحث عن معبِّر.

٣- مجيء رسول الملك إلى يوسف وتعبير الرؤيا.

٤- إعجاب الملك بيوسف.

٥- محاكمة النسوة.

٦- خروج يوسف من السجن وتقليده الوزارة.

٧- التمكين الثاني ليوسف.

الفصل الرابع: يوسف على خزائن مصر:

ويحتوي هذا الفصل على المشاهد الآتية:

١- مجيء إخوة يوسف إليه للميرة.

٢- عودة أبناء يعقوب إلى أبيهم وطلب الذهاب ببنيامين إلى مصر.

٣- حيلة يوسف في إبقاء بنيامين لديه.

٤- عودة أبناء يعقوب بالنبأ الصادم إلى أبيهم.

٥- موقف يعقوب من الحدث.

الفصل الخامس: خاتمة القصة:

ويحتوي هذا الفصل على المشاهد الآتية:

١ - إخوة يوسف بين يدي يوسف في ثوب المسكنة والاعتذار.

٢ - حصول التعارف وعفو يوسف.

٣- قميص يوسف على وجه يعقوب.

٤ - دخول آل يعقوب مصر.

٥ - سجود الكواكب والشمس والقمر.

٦ - التعليق العام على القصة.

ثانيًا: عناصر قصة يوسف:

إن المتأمل في هذه القصة المباركة يرى عجبًا من احتوائها على عناصر كثيرة من الحياة والأحياء، قلّ أن يجتمع مثلها في سورة من سور القرآن الكريم.

فهذه القصة قد ذكرت أصنافًا من المخلوقات، وما يعين على صلاح حياة الخلق:

فذكرت من العوالم: الإنس والجن والملائكة والحيوان والطير والنبات.

فأصناف الناس التي ذكرتهم: (الآباء والأبناء والإخوة، والأزواج والزوجات، والباعة والمشترون، والسادة والأرقاء، والملوك والوزراء والمستشارون والرعية، والمستفتون والمفتون، والراؤون والمعبرون، والمتهمون والأبرياء، والعاشقون والمعشوقون، والمحبون والمبغضون، والرجال والنساء، والمسافرون والمقيمون، وغير ذلك.

ومن المخلوقات الأخرى: الملائكة، والشياطين، والكواكب، والحيوانات، والطيور، والزروع، والأطعمة والأشربة.

كما ذكر فيها: أماكن وبلدان، وأعضاء معينة من بدن الإنسان، وأماكن متباينة: البيت، الجب، السجن، القصر، العرش.

ولم يفقد منها أيضًا ذكر الثياب والأوعية والمجالس والخزائن، وغير ذلك.

المطلب السابع: مرويات باطلة عن قصة يوسف عليه السلام

سورة يوسف كغيرها من سور القرآن التي أورد بعض المفسرين والقُصاص في تفسيرها مرويات وإسرائيليات مختلقة مكذوبة، ومعها مرويات أخرى ضعيفة لا تقوم بها حجة؛ نظراً لضعف سندها، أو نكارة في متنها.

وقصة يوسف عليه السلام لما كانت أطول قصص القرآن، وغدت أحسن القصص التي تميل إليها نفوس المسلمين؛ تواردت على بعض أحداثها الحكايات الباطلة، والروايات المفتراة.

ولكن -بحمد الله تعالى- قد تكفل بعض العلماء والباحثين ببيان حال تلك الروايات والحكايات.

ونحن -بعون الله تعالى- في هذا الكتاب سنعرض عن تلك المرويات صفحًا؛ تنزيهًا للكتاب عن تلك الشوائب التي علقت في بعض أذهان الناس تصديقًا لها، ولن نذكرها كذلك رداً لها، وتنقية لهذه القصة العظيمة من تلك النُّدوب التي قد توجد في بعض كتب التفسير حيث ساقها بعض المفسرين دون تنبيه منه على بطلانها.

لكننا بالمقابل وجدنا بعض محققي المفسرين يسوق بعضها مبينًا بطلانها، وإخلالها بعصمة يوسف، أو مخالفاتها للآيات الواردة في مدحه عليه السلام، أو يذكر ما في أسانيد بعضها من الرواة الكذابين أو الضعفاء.

وقد جمع السيوطي في كتابه الجامع " الدر المنثور" جمًا غفيراً من تلك المرويات، من غير أن يبين ما فيها من وجوه البطلان.

ولكن قيض الله بعض العلماء والباحثين لنخل تلك الروايات وبيان عوارها؛ حتى يكون المسلم على معرفة بأسباب ردها عندما يقرأ قصة يوسف عليه السلام.

ومن تلك الكتب المفيدة في هذا الباب كتاب: "الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير"

للدكتور: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ) رحمه الله.الذي انتدب -مشكوراً-لبيان الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير والرد عليها بالنقل والعقل.

ولكون تلك المرويات لا فائدة من ذكرها هنا؛ لطولها، وحتى لا تعلق ببعض الأذهان فيذكرها امرؤ وينسى وجوه ردها؛ فإننا سنكتفي بالإشارة إلى الآيات التي ذكرت في تفسيرها تلك المرويات المردودة، وأحيل على كتاب أبي شهبة للرجوع إليه لمعرفة ما ورد تحتها من وجوه رده عليها.

مع عدم استغناء القارئ النهم عن الرجوع إلى كتب أخرى بينت حال تلك الحكايات؛ كتفسير ابن كثير، وأضواء البيان، وكتب تخريج الأحاديث وغيرها.

وهذا سرد للآيات في قصة يوسف التي أورد بعض المفسرين والقُصاص روايات موضوعة أو ضعيفة تحتها:

١- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[يوسف:٤].

٢- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤].

٣- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢].

٤- ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

٥- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣][١].

---

(١) ينظر في هذه الآيات كتاب: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٢١٩-٢٣١).

المطلب الثامن: وجوه ارتباط قصة يوسف بحياة رسول الله محمد في مكة

أنزل الله تعالى سورة يوسف على نبينا صلى الله عليه وسلم في مكة في زمن صد المشركين عن دعوته الهادية إلى الحق، وفي وقت رماه بالعداوة القريب قبل البعيد، وفي زمان كانت راية الباطل هي العالية في مكة، وأهلها هم سادتها ووجوهها.

فكان في هذه السورة الكريمة ما يشير إلى أن الأمور لا تبقى على حال، بل تنقلب لصالح المؤمن الصابر، وأن القريب الصالح قد يؤذيه قريبه، وأن الابتلاء هو سنة الله تعالى في أنبيائه السالفين، ولكن العاقبة الحسنة لهم، فكان في هذا تسلية لرسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ولأتباعه المؤمنين.

وبهذا وغيره تحدث بعض المفسرين في أوائل هذه السورة، وفي أثنائها:

فهذا الإمام الطبري يقول عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[يوسف:٧]: "يقول تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ الأحد عشر ﴿آيَاتٌ﴾ يعني: عبر، وذكر ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ يعني: السائلين عن أخبارهم وقصصهم، وإنما أراد جل ثناؤه بذلك نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وذلك أنه يقال: إن الله تبارك وتعالى إنما أنزل هذه السورة على نبيه، يعلمه فيها ما لقي يوسف من أَدانيه وإخوته من الحسد، مع تكرمة الله إيَّاه؛ تسليةً له

بذلك مما يلقى من أدانيه وأقاربه من مشركي قريش....**عن** ابن إسحاق قال: إنما قصّ الله تبارك وتعالى على محمد خبر يوسف، وبَغْي إخوته عليه وحسدهم إياه، حين ذكر رؤياه، لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي قومه وحسده حين أكرمه الله عز وجل بنبوته؛ ليأتسي به"(١).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:١٩]: "وهذا، وإن كان خبرًا من الله تعالى ذكره عن يوسف نبيّه صلى الله عليه وسلم، فإنه تذكير من الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وتسلية منه له عما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه، يقول : فاصبر، يا محمد، على ما نالك في الله؛ فإنّي قادرٌ على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كما كنت قادرًا على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن تركي ذلك لهوان يوسف عليّ، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته، فكذلك تركي تغييرَ ما ينالك به هؤلاء المشركون لغير هوان بك عليّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثم يصير أمرُك وأمرهم إلى عُلوّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسؤدد عليهم، وعلوِّ يوسف عليهم"(٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢]: "وهذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن فإن المرادَ به محمدٌ نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم.يقول له عز وجل: كما فعلت هذا بيوسف من

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٥٦١).

(٢) تفسير الطبري (١٥/٧).

بعد ما لقي من إخوته ما لقي، وقاسى من البلاء ما قاسى، فمكنته في الأرض، ووطَّأتُ له في البلاد، فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض، وأوتيك الحكم والعلم؛ لأنّ ذلك جزائي أهلَ الإحسان في أمري ونهيي "[(١)].

وقال عند قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف:١٠٢]: " يقول تعالى ذكره: هذا الخبر الذي أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب وإخوته وسائر ما في هذه السورة ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾، يقول: من أخبار الغيب الذي لم تشاهده، ولم تعاينه، ولكنا نوحيه إليك ونعرّفكه؛ لنثبِّت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله، وتعلم أن من قبلك من رسل الله؛ إذ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين؛ فازوا بالظفر، وأيِّدوا بالنصر، ومُكِّنوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم وأعداء دين الله. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فبهم، يا محمد، فتأسَّ، وآثارهم فقُصَّ "[(٢)].

وعند آخر آية في السورة وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١] يقول: "... **فقال** جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: لقد كان لكم، أيها القوم، في

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٤).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٣).

قصصهم عبرةٌ لو اعتبرتم به، أن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا يتعذَّر عليه فعلُ مثله بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيخرجه من بين أظهُرِكم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرَّت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والدهور والأزمان"(١).

وهذا الماوردي يقول عند الآية الأخيرة من سورة يوسف: "(يعني: في قصص يوسف وإخوته اعتبار لذوي العقول بأن من نقل يوسف من الجب والسجن وعن الذل والرق إلى أن جعله ملكاً مطاعاً ونبياً مبعوثاً؛ فهو على نصر رسوله وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه قادر، وإنما الإمهال إنذار وإعذار"(٢).

ويقول الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف:١٠٢]: " وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أنزل عليه هذا القرآن، وفصل له هذه القصة، مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضراً لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا أمرهم على المكر به، وجعله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه. والآيات المشيرة لإثبات رسالته- بدليل إخباره بالقصص الماضية التي لا يمكنه علم حقائقها إلا عن طريق الوحي- كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[آل عمران:٤٤]"(٣).

(١) تفسير الطبري (١٦/٣١٢-٣١٣).

(٢) النكت والعيون (٣/٨٩).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٢١٨).

المطلب التاسع: هل إخوة يوسف أنبياء أو لا؟

هذه مسألة مهمة لابد من بيانها في هذا التمهيد قبل أن نشرع في بيان المتقابلات في هذه القصة.

فنقول: اختلف العلماء في هذه المسألة إلى قولين:

القول الأول: أنهم ليسوا أنبياء من قبل ولا من بعد.

وقال بهذا القول: ابن حزم، والقاضي عياض، وابن كثير، والسيوطي، والآلوسي، ورشيد رضا، وغيرهم.

قال ابن حزم: "إخوة يوسف، عليه السلام، لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط- في أنهم أنبياء- نصّ لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن، **قال** عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ﴾..إلى قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾[غافر: ٣٤].وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم، فكيف أن يكونوا أنبياء! ولكن الرسولين- أباهم وأخاهم- قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم! وبرهان ما ذكرنا- من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء: قول الله تعالى -حاكيًا عن الرسول أخيهم أنه **قال** لهم-:﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾[يوسف: ٧٧]، ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، ولا لقوم صالحين!؛ إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس؛ لأن الصالحين ليسوا شرّاً مكاناً! وقد عقّ ابن نوح أباه بأكثر مما عقّ به

إخوة يوسف أباهم، إلّا إن إخوة يوسف لم يكفروا، ولا يحلّ لمسلم أن يدخل في الأنبياء من لم يأت نصّ ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوّته! ولا فرق بين التصديق بنبوّة من ليس نبيًّا، وبين التكذيب بنبوّة من صحّت نبوّته منهم!"(١).

وقال القاضي عياض: "وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم"(٢).

وقال ابن كثير: "واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوَى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾[البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم"(٣).

وقال السيوطي: "والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم حصل من ظن أنهم هم الأسباط وليس كذلك، إنما الأسباط ذريتهم الذين قُطِّعوا أسباطًا من عهد موسى كل سبط أمة عظيمة، ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال:

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٧/٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١٦٤/٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٧٢/٤).

ويعقوب وبنيه؛ فإنه أوجز وأبين، واختير لفظ الأسباط على لفظ بني إسرائيل للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطًا من عهد موسى "[1].

وقال الآلوسي: "واختلف الناس في الأسباط أولاد يعقوب هل كانوا كلهم أنبياء أم لا؟ والذي صح عندي الثاني، وهو المروى عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه، وإليه ذهب الإمام السيوطي، وألف فيه؛ لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه الصلاة والسلام ينافي النبوة قطعًا، وكونه قبل البلوغ غير مسلم؛ لأن فيه أفعالاً لا يقدر عليها إلا البالغون، وعلى تقدير التسليم لا يجدي نفعًا على ما هو القول الصحيح في شان الأنبياء، وكم كبيرة تضمن ذلك الفعل، وليس في القرآن ما يدل على نبوتهم "[2].

القول الثاني: أنهم أنبياء، ولكن بعد أمد من فعلهم بيوسف وليس قبله.

قاله بعض المفسرين؛ كالبغوي، والسعدي، وغيرهما.

قال البغوي -في حديثه عن يعقوب-: "أولاده كلهم كانوا أنبياء"[3].

وقال السعدي: "...ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم

---

(١) دفع التعسف عن إخوة يوسف (ص:٣).

(٢) روح المعاني (١/٣٩٥). وينظر أيضًا: تفسير المنار (١٢/٢١٨).

(٣) تفسير البغوي (٢/٤٧٦).

كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة"[١].

الترجيح:

والقول الراجح هو الأول؛ نظراً لما ذكر فيه من الحجج، والله أعلم.

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٧).

مُقَابَلَات
قِصَّةِ يُوسُفَ
عَلِيهِ السَّلام

الأُبُّوة والبُنُّوة

المطلب الأول: التعريف:

الأُبُـوَّةِ-بالـضم-: مـصدر الأب، وقيـل: جمـع لـلأب؛ كالعُمُومَـةِ والخُؤُولَـةِ، يقال: فلانٌ بيّن الأُبُوَّةِ(١).

والبُنُـوَّةُ: مَـصْدَرُ الابـنِ.يقـالُ: ابـنٌ بَـيِّنُ البُنُـوَّةِ، وَيُقَـالُ: تَبَنَّيْتُـه أَي ادَّعيـت بُنُوَّته(٢).

نافذة:

الأبوة منبع العطف والحنان، والرحمة والحب، وهي المنهل الذي يستقي منه الأبناء أنوار الحياة التي يرون بها دروبها، ليصلوا بتلك الأضواء المنيرة إلى غاياتهم المحمودة، وأهدافهم المنشودة.

فالأب هو ذلك الإنسان الحريص على حاضر أبنائه ومستقبلهم، والراغب في سلامة حالهم ومآلهم، لا يسعد إلا إذا سعد أبناؤه، فإن مسهم أذى آذاه، أو أشجاهم أمر أشجاه.

ينفسح صدره حينما يراهم متحابين متفقين متعاونين متآلفين، وكم يحزن قلبه ويضيق عليه فسيح حياته يوم يجد منهم رائحة قطيعة، أو ملامح كراهية، أو آثار أعمال عدوانية، وحينها تحمله أبوته لرأب الصدع، ومداواة الجرح، وإبعاد أسباب الشقاق والعداء.

---

(١) تاج العروس (٣٧/٢١)، مختار الصحاح (ص:١٢).

(٢) تاج العروس (٣٧/٢٢٤)، لسان العرب (١٤/٩١).

وأما البنوة فهي تلك المنحة التي يرجوها كل أب وأم، ويبذلان كل سبب مقدور عليه للحصول عليها إن تأخر موعد الظفر بها.

فالأبناء للآباء زينة الحياة وبهجتها، ومتنزه الأيام وروضتها، ومسلاة الكمد وراحة الفؤاد، وبسمة العمر وعماد الأجساد.

يرعاهم الآباء بعنايتهم العظيمة صغارا، ويتابعون رعايتهم بنصحهم وتوجيههم كبارا.

غير أن التفاوت في ميزاتهم وخِلالهم والاختلاف بينهم في نعم الله عليهم قد يحمل بعضهم على حسد بعض وعداوته، وتبييت الشر له، وإرادة شفاء الغيظ بالإيقاع به، وهنا ينزل بساحة الآباء البثُّ العظيم، والحزن الكبير.

وهذه قضية أسرية قد تعرض لها القرآن الكريم فذكر قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه في سورة يوسف، وأخبرنا عن أحوال الآباء والأبناء ومواقفهم إزاء هذه القضية.

المطلب الثاني: مشاهد الأبوة والبنوة في قصة يوسف عليه السلام:

سندلف الآن إلى سورة يوسف وننظر في الآيات الكريمة التي تحدثت عن هذين المتقابلين: الأبوة والبنوة، في المشاهد الستة الآتية:

المشهد الأول:

في هذا المشهد من القصة نرى يوسف عليه السلام يرى رؤيا حسنة أخذت بمجامع قلبه، وهي أنه رأى فيما يرى النائم أن الشمس والقمر مع أحد عشر

كوكبًا خرت ساجدة له، فيهرع يوسف إلى أبيه يعقوب عليه السلام فيقصها عليه، فيعبرها أبوه له، وينهاه عن قصها على إخوته خشية عليه من كيدهم، ويبشره بثلاث بشارات مستقبلية ينالها، **قال** تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۞ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٤-٦].

معنى الآيات:

أمر الله تعالى نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام أن يذكر قول يوسف لأبيه يعقوب عليهما السلام يوم قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، "وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً [سواه]، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه.رُوي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادة وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم"[1].

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.**قال** أهل التفسير: إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام، فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك ليعقوب.فلما رأى يوسف هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكرامًا واحترامًا،

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٦٩-٣٧٠).

فلما فهم يعقوب هذا أشفق على يوسف من اشتداد حسد إخوته له بسببها، وخشي، عليه السلام، أن يحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، ويحتالوا في إهلاكه؛ حسداً منهم له، فأمره بكتمان رؤياه عن إخوته؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي. والشيطان ظاهر العداوة للإنسان ؛ لأجل ما فعل بآدم وحواء، فلا يألو جهداً في تسويلهم، وإثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد. يقول: فاحذر الشيطان أن يغريَ إخوتك بك بالحسد منهم لك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك.

وقول يعقوب عليه السلام هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته؛ لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحًا، عاذراً، معرضًا عن الزلات، عالمًا بأثر الصبر في رفعة الشأن[1].

فلما نهاه عن قص رؤياه على إخوته، وذكر العلة من ذلك بشره بالمستقبل الذي يحمل في طياته بشارات عظيمة له فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الاجتباء: الاختيار والاصطفاء، أي: اختياره من بين إخوته، أو من بين كثير من خلقه. وقد علم يعقوب عليه السلام ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على رفعة شأن في المستقبل، فتلك إذا ضمت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه. وقد اختلف في المراد بهذا الاجتباء، فقيل: المراد: اجتباؤه للنبوة، أو لأمور

---

(١) ينظر: تفسير الخازن (٣/ ٢٦٢)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧١)، الوجيز للواحدي (ص:٥٣٨)، البحر المديد (٣/ ٣٥٢-٣٥٣)، التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٤)، تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٨).

عظام، أو اجتباؤه بحسن الخَلق والخُلق، أو بالأوصاف الجليلة، والمناقب الجميلة.

والمعنى: وكما اجتَباك لهذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس ﴿يجتبيك ربُّك﴾ في المستقبل.

وأما قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فقد تباينت أقوال المفسرين فيه، والراجح -فيما يبدو لي- أن المراد: ويعلمك من تعبير الرؤيا، وسمى ذلك تأويلاً؛ لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، يعني: يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم.

وأما قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ فإتمام النعمة عليه مختلف فيه أيضًا: فقيل: هو إعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوة، أو هو الملك مع النبوة والرسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي، وقيل: يتم نعمته بإعلاء كلمتك وتحقيق رؤياك، وقيل: في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة. ورجح الرازي أن المراد بإتمام النعمة هو النبوة، **وقوّى ذلك بأمور**: "**الأول**: أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان، وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة؛ فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة. **والثاني**: قوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة".

وإن كان المراد بإتمام النعمة ليوسف عليه السلام إعطاء الملك فإتمامها على آل يعقوب هو أن زادهم على ما أعطاهم من الفضل نعمة قرابة الملك، فيصح حينئذ أن يكون المراد من آله جميع قرابته.

وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل؛ لأنه خلقها لقبول ذلك، فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة[1].

تأملات في المشهد:

من خلال تدبر الآيات السابقة نجد الآتي:

١-عودة يوسف إلى أبيه واستعلامه عما لا يعلم، وحسن خطابه بقوله: (يا أبت)، وهذا يرشد الأبناء إلى الرجوع إلى الآباء في حل مشكلاتهم، وتوضيح بعض القضايا لهم، ويعلمهم أيضًا استعمال الخطاب الحسن معهم.

٢-حسن إقبال الأب على ابنه والإنصات لحديثه، والتحبب إليه بحسن خطابه: (يا بني)، وفي هذا أدب ينبغي للآباء الأخذ به في التعامل مع أبنائهم.

٣-فهم يعقوب من الرؤيا أن هناك مستقبلاً مشرقًا ينتظر يوسف، ولما كان أحب أبنائه إليه وكان إخوته يغارون منه؛ حذره من قص رؤياه عليهم؛ لأن ذلك سيزيدهم حقداً عليه، وانتقامًا منه، ويستفاد من هذا أن على الأب أن يحرص على

(١) ينظر: النكت والعيون (٣/٨)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧١)، تفسير البيضاوي(٣/٢٧٤)، تفسير الرازي (١٨/٧٢)، تفسير الخازن (٣/٢٦٢-٢٦٤)، تفسير السعدي (ص:٣٩٣)، التحرير والتنوير (١٢/١٩-٢١).

إبعاد أسباب العداوة عن بنيه.

كما أن في هذه النصيحة من نبي الله يعقوب ما يرشد الرائي إذا رأى رؤيا مبشرة له أن لا يحدث بها أهل عداوته وبغضه، وإنما يقصها على من يحب، وقد ورد مثل هذا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: (فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً فَلْيُبْشِرْ وَلاَ يُخْبِرْ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ)[١].

وقال أيضًا: (ولا تحدث بها إلا لبيبًا أو حبيبًا)[٢].

وعند أبي داود وابن ماجه بسند صحيح **قال** عليه الصلاة والسلام: (وَلاَ يَقُصُّهَا إِلاَّ عَلَى وَادٍّ، أَوْ ذِي رَأْيٍ).

٤ -ما احتوته هذه الرؤيا الصادقة هو نعمة عظيمة على يوسف عليه السلام، والنعمة التي يخشى على صاحبها بسببها ينبغي كتمانها لهذه المصلحة، وخاصة على الأقربين الذين يخاف منهم؛ فلذا أمر يعقوب يوسف بالكتمان، **قال** ابن كثير: "ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: "استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها؛ فإن كل ذي نعمة محسود)[٣]"[٤].

٤ -تبشير يعقوب ليوسف-عليهما السلام- بما يسعده في المستقبل.ويستفاد من هذا: استحباب تبشير الأب ابنه بالخير في مستقبله؛ ليعينه ذلك على الاستقامة على طريق الخير، والجد في بلوغ معالي الأمور.**قال** ابن عاشور عن هذه الآية:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، هو صحيح.

(٣) رواه الطبراني والبيهقي، وهو صحيح.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧١).

"عطف هذا الكلام على تحذيره من قص الرؤيا على إخوته؛ إعلامًا له بعلو قدره ومستقبل كماله؛ كي يزيد تمليًا من سمو الأخلاق، فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته، وصفحًا عن غيرتهم منه وحسدهم إياه، ليتمحض تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها، حكمة نبوية عظيمة وطبًا روحانيًا ناجعًا"[(١)].

٥-كانت رؤيا يوسف في صباه، وهذا يبين أن الأطفال قد يرون رؤى صحيحة، فينبغي للآباء العناية برؤى أولادهم، والحذر من الإعراض عن سماعها والاستهزاء والتصغير من شأنها.

٦- **نلاحظ** أن يعقوب ربط ذهن يوسف بآبائه الصالحين-والجد أب-: إبراهيم وإسحاق، وهذا يعلمنا وسيلة من وسائل تربية أطفالنا على الصلاح ألا وهي شد انتباهم إلى أجدادهم الصالحين، وأسلافهم المتقين؛ حتى يسيروا على منوالهم.

٧- ابتداء قصة يوسف - عليه السلام - بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيأ نفسه للنبوة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة: (أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) [(٢)].وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف - عليه السلام - من طهارة وزكاء نفس وصبر.فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٩).

(٢) متفق عليه.

وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف - عليه السلام - بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة، فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة(١).

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة؛ توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق؛ لطفًا بعبده، وإحسانًا إليه(٢).

٨- ظاهر الآية أن يوسف - عليه السلام -لم يقص رؤياه على إخوته، وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه(٣).

المشهد الثاني:

في هذا المشهد يخبر الله تعالى أن في قصة يوسف مع إخوته عبراً لمن سأل عن خبرهم، وحرص على معرفته.

ففي يوم من الأيام بعدما برم إخوة يوسف من حب أبيهم يوسفَ عقدوا مؤتمراً بينهم، فمما قالوا فيه: كيف يكون يوسف وأخوه الشقيق بنيامين أحب إلى أبينا منا ونحن جماعة؟! إن أبانا في ذلك التفضيل لفي خطأ واضح.ثم لما غلت مراجل قلوبهم بالحسد والحقد اتفقوا على التخلص منه؛ إما بقتله، وإما بإلقائه في أرض مهلكة؛ لكي يخلص لهم حب أبيهم، وعزموا على التوبة بعد هذا العمل المشين، فتدخل أخ منهم فنهاهم عن قتله، وطرح خطة للتخلص منه وهي إلقاؤه في الجب يلتقطه بعض المسافرين فيرتاحون بذلك من وجوده معهم، فوجدت

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٤).

(٢) تفسير السعدي (ص:٣٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩).

هذه الخطة منهم قبولاً. فذهبوا إلى أبيهم متلطفين لأخذ يوسف معهم، ووعدوا أباهم بحفظه، لكن أباهم أخبرهم بحزنه على فراقه وخشية الذئب عليه، فاستبعدوا -أمام أبيهم متباهين- أكل الذئب له وهم جماعة قوية.

وبعد إلحاح سمح لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ليلعب ويرتاح كما زعموا. **قال** تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[يوسف:٧-١٤].

معنى الآيات:

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه؛ فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، حين **قال** إخوة يوسف: ليوسفُ وأخوه من أمه أحب إلى أبينا منا ونحن جماعة ذوُو عدد، عشرة رجال.

ثم قالوا: إن أبانا بهذا التفضيل علينا لفي خطأ بين في إيثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه،

وإصلاح أمر مواشيه، وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين؛ إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به، ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا وما يصلحها، يقولون: نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ في صرف محبته إليه؛ لأنا أكبر منه سناً وأشد قوة وأكثر منفعة. وغاب عنهم المقصود الأعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الإخوة إلا في المحبة المحضة، ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها، ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير، ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر إخوته.

والمقصود من الحال: التعجب من تفضيلها في الحب في حال أن رجاء انتفاعه من إخوتها أشد من رجائه منها، بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنوا مدارك يعقوب - عليه السلام - مساوية لمدارك الدهماء، والعقول قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره من دونهم.

قال ابن عاشور: "ودعواهم أن يوسف- عليه السلام- وأخاه أحب إلى يعقوب- عليه السلام- منهم يجوز أن تكون دعوى باطلة، أثار اعتقادها في نفوسهم شدة الغيرة من أفضلية يوسف- عليه السلام- وأخيه عليهم في الكمالات، وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف- عليه السلام- وأخيه في أعمال تصدر منهما، أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمهما، فتوهموا من ذلك أنه أشد حبًا إياهما منهم؛ توهماً باطلاً. ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع، وتكون زيادة محبته إياهما أمراً لا يملك صرفه عن نفسه؛

لأنه وجدان ولكنه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهرية، ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبة أبيهم إياهما من التوسم والقرائن، لا من تفضيلهما في المعاملة، فلا يكون يعقوب - عليه السلام - مؤاخذاً بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة"(١).

وهذا القول منهم هو مقدمة تحريضية القصد منها التبرير لما سيقدمون عليه من السوء؛ لأن الكلام المتقدم يثير سؤالاً في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه، فهذا المقصود للقائلين، وإنما جعلوا له الكلام السابق كالمقدمة لتتأثر نفوس السامعين، فإذا ألقي إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه.

وهذا فن من صناعة الخطابة أن يفتتح الخطيب كلامه بتهيئة نفوس السامعين لتتأثر بالغرض المطلوب، فإن حالة تأثر النفوس تغني عن الخطيب غَناءَ جملٍ كثيرة من بيان العلل والفوائد. فبعد هذا ذكروا ما يريدون فعله وهو التخلص من يوسف بأحد طريقين: إما القتل مرة واحدة، وإما التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الأُسد والسباع، أو يموت في تلك الأرض البعيدة، ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ والمعنى: أنه قد شغله حب يوسف عنكم، فإذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم، وصرف محبته إليكم.

وقوله: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يعني: من بعد قتل يوسف، أو إبعاده عن أبيه، تكونوا تائبين؛ وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر؛ قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل، ونكون من الصالحين في

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٢١).

المستقبل، وقيل: إنهم أرادوا صلاح الدنيا لا صلاح الدين، وقيل: أرادوا صلاح الأحوال بتسوية أبيهم بينهم من غير أثرة ولا تفضيل.

وهنا انبرى أحسنهم رأياً فأشار بإلقاء يوسف عليه السلام في غيابة جب، فكان هذا الرأي أمثل مما أشار به الآخرون من قتله، أو تركه بفيفاء مهلكة؛ لأنه يحصل به إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه إبعاداً لا يرجى بعده تلاقيهما، دون إلحاق ضر الإعدام بيوسف عليه السلام ؛ فإن التقاط السيارة إياه أبقى له، وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده؛ لأنه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم، أو باعوه فزاد بعداً على بعد.

والحقيقة أنه لم يكن لهم سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لا بدّ من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة هذا القائل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب. **وغيابة الجب**: قعر البئر حيث يَغيبُ خبره، **والغيابة**: كل ما غيب شيئاً وستره، **فغيابة الجب**: غوره وما غاب منه عن عين الناظر، وأظلم من أسفله، **والجب**: البئر التي ليست بمطوية؛ سميت جباً لأنها قطعت قطعاً، ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبه ذلك، وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين، فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى؛ إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين. والسيارة: الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته[1].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٢٣-٢٧)، النكت والعيون (٣/١١) تفسير ابن كثير (٤/٣٧٢)، تفسير الطبري (١٥/٥٦٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/٧٧)، تفسير الخازن (٣/٢٦٥).

ثم اتجهوا بعد هذا التدبير السيء إلى أبيهم عبر حيلة يتمكنون بها من الانفراد بيوسف عن أبيه؛ لتنفيذ مهمة التخلص، فجاءوا فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾، ولعل يعقوب عليه السلام كان لا يأذن ليوسف عليه السلام بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق؛ خوفًا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه، ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.ثم ذكروا أنهم ثابتو الحال في نصحه أي: القيام بمصلحته وبره والعطف عليه.

ثم بعد التصريح بالوعد برعايته طلبوا خروجه، وأبانوا عن غايتهم من إرساله معهم وهي: أن يلهو معهم وينعم ويأكل ويشرب وينشط، وكرروا الوعد له برعايته بالتصريح بحفظه.

فاعتذر لهم أبوهم عليه السلام بأنه يشق عليه مفارقتُهُ مدة ذهابهم به إلى أن يرجع؛ وذلك لفَرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُق والخلق.

وقد اعتذر يعقوب إليهم بشيئين: أحدهما: أنّ ذهابهم به، ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم.وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه؛ لأنه مظنة هلاكه.وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالمًا إليه عما قليل، فأمر سهل، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه، وهو أكل الذئب له؛ فلهذا قالوا مظهرين

قدرتهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذًا لهالكون عاجزون، والمراد: إنا إذن لمسلوبون من صفات الفتوة من قوة ومقدرة ويقظة. فكونهم عصبة يحول دون تواطيهم على ما يوجب الخسران لجميعهم. وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب؛ لأنه السبب القوي في المنع دون الحزن لقصر مدته، بناء على أنهم يأتون به عن قريب [(١)].

تأملات في المشهد:

١-ضجر إخوة يوسف من ميل أبيهم الشديد إلى يوسف وأخيه، حيث لم يستطيعوا أن يكتموا ما يعتلج في صدورهم من الحنق، حتى أعلنوه بهذا المنطق المتبرم الذي كان شعوراً مشتركًا، وسبحان الله كيف اتفق عَشرتهم على حسد يوسف وأخيه وبغضهما؟!

ومن هنا نفيد أن على الأب الذي يجد في قلبه ميلاً لأحد أبنائه لفضائل اختص بها أن لا يري إخوته ذلك، خصوصًا إذا كان ذلك المفضَّل من أم أخرى غير أم الباقين؛ فإن الكراهية بين بني العلات شديدة متأصلة غالبًا؛ تعصبًا لأمهاتهم.

٢-على الأبناء إن رأوا تفضيلاً بالحُب من أبيهم لأحد إخوتهم لميزات انفرد بها؛ أن يعذروا أباهم، وأن يسعوا إلى تكميل أنفسهم بالفضائل حتى يزداد حبه

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٢٨-٣٢)، تفسير الخازن (٣/٢٦٦)، التبيان تفسير غريب القرآن (ص:٢٤٠)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧٣) تفسير الطبري (١٥/٥٦٨)، الكشاف (٢/٤٤٨)، تفسير أبي السعود (٤/٢٥٨).

لهم كذلك.

٣-على الأب أن لا يكون تعامله في الأمور الظاهرة مع أبنائه مبنيًا على الحب، بل على العدل، فالحب قد يعذر فيه؛ لأنه لا سلطان على قلبه فيه، وليس بيده أمره، لكن الأشياء الظاهرة يمكن لعدله ضبطها.

٤-للحسد خطر كبير على الأسرة إذا حل بين أفرادها، فكم من أسرة سعيدة أشقاها الحسد، وأسرة مجتمعة بدد شملها ذاك الداء العضال.

٥- الظلم والعداوة بين الأقربين أشد وأنكى من غيرهم؛ لسهولة وقوعهما فيهم، ولبقاء آثارها بينهم بسبب القرب، **قال** طرفة بن العبد:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً   على المَرْءِ مِن وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[1].

٧-يَسرُّ الوالدَ أن يجد ابنه فرحًا مستريحًا؛ فلهذا سمح يعقوب لأبنائه بأخذ يوسف مع وجود ألم لفراقه، فانظر أيها الابن، كيف يضحي الآباء بسرورهم من أجل أن يرتاح الأبناء!.

٨-لم يَرِق أبناءُ يعقوب لأبيهم يوم قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فينكفوا عن إحزانه، بل لعلهم ازدادوا حقداً للإعلان بهذا التعلق، وهذا حزنه على فراقه ساعات، فكيف لو كان يدري بأمر تدبيرهم؟!

أما الابن البار فإنه لا يحب إحزان أبيه بأي خبر يسمعه، بل إن بعض الأبناء البررة قد يصاب بمصيبة فلا يخبر أباه أو أمه بذلك من أجل أن لا يحزنهما.

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص:٨).



٨- اللعب واللهو المباح للأبناء شيء مطلوب ينبغي حرص الآباء عليه، ولكن بآدابه وشروطه.

قال الماوردي: "ولم ينكر عليهم يعقوب عليه السلام اللعب؛ لأنهم عنوا به ما كان مباحاً"[(١)].

٩-الكذب والخداع أمران مذمومان، فكيف تكون الحال إذا كان من ابن لأبيه؟!.

١٠-أي اتفاق اتفقوا عليه، وأي إساءة تمالأوا عليها، فأسأوا بها إلى أخيهم، وأحزنوا بها أباهم!

"**قال** محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كبر سنه، ورِقَّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين؛ فقد احتملوا أمراً عظيما"[(٢)].

١١-إن المؤامرة التي قام بها إخوة يوسف-كما ذكرتها الآيات- قد تضمنت أموراً:

---

(١) النكت والعيون.(٣/١٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٧٢-٣٧٣).

أ–ذكر حال نفوسهم المشحونة بالبغض ليوسف وأخيه.

ب–الاعتراض على أبيهم في تفضيله عليهم بالحب، ورميه بالخطأ الواضح على ذلك.

ج–ذكر مقترح التخلص من يوسف في أحد خيارين: القتل، أو إلقائه في أرض مهلكة.

د–الغاية من هذا التخلص وهي انصراف حب أبيهم لهم، وانشغاله بعد ذهاب يوسف بهم.

هـ–رجاء صلاح حالهم بعد الانتهاء من هذه المهمة السيئة.

ز–اقترح ألينهم وأعقلهم مقترحًا آخر هو أخف مما قبله وهو إلقاؤه في بئر؛ ليأتي المسافرون فيأخذوه فيخلصوهم منه، فاتفقوا على هذا الخيار، وذهبوا إلى أبيهم للبدء بتنفيذ ما دبروه.

ح–كان حسدهم وحنقهم على يوسف أكبر من بنيامين؛ لما يرون من شدة حب أبيهم له أكثر من أخيه، ولكونه أكبر الأخوين؛ ولذلك عزموا على التخلص من يوسف دون بنيامين.

١٢–وفي قضية طلبهم أباهم إرسال يوسف معهم استعملوا في ذلك: التلطف في الطلب، والحيلة والكذب والإغراء والوعد، وتكرار الطلب، وإظهار القوة والقدرة على الحفظ، وسد جميع منافذ الرفض؛ حتى ظفروا بغايتهم المنشودة.

١٣–لقد أراد إخوة يوسف" ارتكاب شيء يفرق بين يوسف وأبيه– عليهما

السلام- تفرقة لا يحاول من جرائها اقترابًا بأن يعدموه، أو ينقلوه إلى أرض أخرى فيهلك أو يُفترس.

وهذه آية من عبر الأخلاق السيئة، وهي التخلص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه، أو مساويه بإعدام صاحب الفضل، وهي أكبر جريمة؛ لاشتمالها على الحسد، والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه"[1].

وفي قول إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ "عبرة من عبر الأخلاق التي تنشأ من حسد الإخوة والأقرباء، وعبرة من المجازفة في تغليطهم أباهم، واستخفافهم برأيه غروراً منهم، وغفلة عن مراتب موجبات ميل الأب إلى بعض أبنائه"[2].

١٤-استفاد إخوة يوسف من قول أبيهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾، حجة يعتذرون بها إذا رجعوا إليه بعد إلقاء يوسف في الجب، وقد يأتي الضر بنطق اللسان به، كما **قال** العرب: "البلاء موكل بالمنطق"[3].

وروي عن أبى عمرو الشيباني أنه قال يومًا لأصحابه: لا يتمنينّ أحد أمنية سوء؛ فإن البلاء موكل بالمنطق.**قال** المؤمّل:

شَفَّ المُؤَمِّلَ يومَ الحيرة النظرُ ... ليت المؤملَ لم يُخْلَقْ لَهُ بَصَرُ

فذهب بصره.وهذا مجنون بنى عامر **قال**:

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٢٢).

(٣) المستطرف في كل فن مستطرف (ص:٩٣).

فلـو كنـتُ أعمـى أَخـبطُ الأرضَ أصــمَّ فنــادتني أجبــتُ المناديــا

فعمي وصمّ.

واجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد فحضرت صلاة المغرب، فتقدم الكسائي فصلى فأُرتِج عليه في سورة: (قل يا أيها الكافرون)، فلما سلم قال اليزيدي: قارئ الكوفة يُرتَج عليه في سورة:(قل يا أيها الكافرون)؟! فحضرت صلاة العشاء فتقدم اليزيدي فأرتج عليه في سورة الفاتحة، فلما سلم قال له الكسائي:

احْفَـظْ لِـسَانَكَ لَا تَقُـوْلُ فتبْـتَلَى إِنَّ الــبَلَاءَ مُوَكَّــلٌ بِــالمَنْطِقِ[1].

المشهد الثالث:

في هذا المشهد ينطلق إخوة يوسف بيوسف إلى حيث يتخلصون منه، فيعزمون على إلقائه في البئر، فيفعلون ذلك من غير خوف من الله، ولا رعاية لمشاعر والدهم، ثم يرجعون بعد ذلك إلى أبيهم باكين، مدعين أن الذئب قد أكله، فيكذبهم يعقوب، ويظهر من نفسه الصبر والجلد على هذا الحدث الجلل الذي هز كيانه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٥-١٨].

---

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (ص:٢٦٦)، غرر الخصائص الواضحة (ص:٢٢٧).

معنى الآيات:

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك؛ اتفقوا أجمعون على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكرامًا له، وبسطًا وشرحًا لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، وبينا هو في تلك الحال في أسفل الجب أوحى الله إليه- بمعنى: ألهمه أو بواسطة ملك فأخبر بما يدل على نجاته مما هو فيه- بأنه سيخبرهم مذكراً لهم فعلهم هذا به، وهم لا يشعرون بأن محدثهم أخوهم يوسف؛ لاستبعادهم أن يكون ذلك العزيز أخاهم الذي ألقوه في الجب.

ثم عادوا إلى أبيهم ليلاً وهم يبكون، وإنما اصطنعوا البكاء؛ تمويهًا على أبيهم؛ لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه.

قال الشعبي: حضرتُ مجلس شريح فجاءته امرأة تخاصم زوجها باكية فقلت: ما أظنها إلا مظلومة؟ فقال: إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون!.

ثم قالوا له: إنا ذهبنا يسابق بعضنا بعضًا- إما على الأقدام، وإما بالرمي والنضال- وتركنا يوسف عند ثيابنا وما معنا من المتاع؛ من أجل أن يرتاح هناك، فجاء ذئب فأكله، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه -لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا

هذا؛ و لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه.

ثم إنهم أتوا بقميص يوسف وانتزعوه منه ظلمًا؛ ليغطوا على جريمتهم، ويروجوا كذبتهم، فجاءوا به وقد لطخوه بالدم المدعى زوراً أنه دم يوسف.

لكن هذه الكذبة التي يكذب بعضها بعضًا لم ترج عند نبي الله يعقوب بقوة حدسه، وقرائن حال أولاده، فعرف أنهم قد أصابوه بشر، لكن لم يدر تحديده؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وهذا يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف - عليه السلام -: من قتل، أو بيع، أو تغريب؛ لأنه لم يعلم تعيين ما فعلوه.

ثم أعلن عن موقفه إزاء هذا البلاء وهو أنه سيصبر صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى، وسيستعين بالله تعالى على احتمال ما يقولون من الكذب، وعلى الصبر على فراق يوسف عليه السلام[(١)].

تأملات في المشهد:

١-لقد غمر السرور إخوة يوسف حين موافقة أبيهم على طلبهم، فذهبوا بمحسودهم وهم يتوقدون عليه كرهًا، ويتسعون فرحًا بالظفر بفرصة يتخلصون بها منه، ولما لم يكونوا أهل بر بأبيهم في ذلك الوقت فإنهم لم يفكروا بما سينال أباهم من الكمد والألم على فراق حبيبه الصغير، فأوصلهم حقدهم الكبير على حافة البئر فتجردوا من الرحمة بالطفل الصغير، والإحسان إلى الأب الكبير،

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٧٤-٣٧٥)، التحرير والتنوير (١٢/٣٤، ٣٧)، النكت والعيون .(٣/١٣-١٥)، تفسير السعدي (ص:٣٩٤)، محاضرات الأدباء (١/١٠٢)، تفسير الكشاف (٢/٤٢٥).

فألقت أيدي الحسد ذلك الجسد الغض في عمق جب مظلم الجنبات، وراحوا مغلقين أسماعهم من استغاثات أخيهم المترددة على جوانب ذلك البئر النائي عن دارهم، حتى غاب صوته في أعماق منزله الجديد، وتناهى عن أسماع أقارب ذوي قلوب من حديد.

٢-ثم آبوا إلى الأب الكريم الذي طال عليه الانتظار، ومرت به الساعات كأيام؛ شوقًا ليوسفه الحبيب، ولكن ألم انتظاره تلاشى بألم أفظع منه؛ ففي لحظة كان ينتظر يعقوبُ فيها قدوم يوسف مسروراً والابتسامة تملأ وجهه الصغير برحلته السعيدة مع إخوته الذين وعدوا بإسعاده فيها؛ إذ بأبيهم يراهم مقبلين ودموع التماسيح تتصبب على وجوههم، فتأمل يعقوبُ في جمع أولاده فلم ير بينهم يوسف، فما الخطب الذي جرى؟!

٣-نطقت ألسنة الكذب- بما يشجي الأب الكريم، ويلهب قلبه على يوسف الفقيد- بأن الذئب قد تناوله بالأكل، وجاءوا ببرهان على تلك الفعلة المدعاة- التي لا وجود لها إلا في الذهن- وهو إحضار قميصه مخضبًا بدمه.

٤-وللمرء أن يتصور ذلك الخبر الأليم حينما يطرق سمع يعقوب كيف وقعه عليه؟ ويتصور كيف ذهبت الرحمة من قلوب أبنائه حينما فعلوا بأخيهم ما فعلوا؟ وأين برهم بأبيهم حينما أدخلوا عليه هذا الحزن الكبير؟ وإلى أين غادرهم الحياء من أبيهم وهم يحملون إليه هذا النبأ الحزين، مع أنهم قد وعدوه بحفظه، وتباهوا أمامه بقوتهم العددية لدفع صولة الذئاب على يوسف؟!.

وهنا يسدل الستار في هذا المشهد على دموع يعقوب المنهمرة، ولواعج فؤاده

المستعرة!.

المشهد الرابع:

في هذا المشهد و المشهد الذي يليه يبتدئ الكلام عن حلقة جديدة بين يعقوب وبنيه، وهي حلقة الحديث عن بنيامين المحسود الثاني بعد أخيه يوسف الذي استوفينا الحديث عنه مع أبيه وإخوته في المشاهد الثلاثة السالفة.

في هذا المشهد الرابع تنقلنا الآيات من سورة يوسف إلى رحلة إخوته التجارية من الشام إلى مصر، في أيام حلول الجدب، وانتظام أمر الاقتصاد على يد يوسف عليه السلام في أرض الكنانة، فبعد مرور عدد من السنين عاش فيها يوسف عليه السلام في بيت العزيز وفي السجن، ثم المدة التي عاشها عقب خروجه منه، وتوليه أمر خزائن مصر في أيام السنين الخصبة، ثم مجيء السبع السنين الشداد التي ظهر فيها التدبير الاقتصادي العظيم الذي تولاه يوسف عليه السلام لإنقاذ حياة الناس وقت قلة المؤنة؛ في تلك المدة وفد على مصر إخوته للميرة، فلما دخلوا عليه عرفهم؛ " لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيهم قريبًا من زيهم إذ ذاك، ولأن همته كانت معمورة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن. وروي أنهم انتسبوا في الاستئذان عليه فعرفهم، وأمر بإنزالهم "[1]. **وقيل**: عرفهم " لقوة فراسته وزكانة عقله دونهم "[2].

أما هم فلم " يعرفوه؛ لطول العهد ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم

(١) البحر المحيط (٦/٢٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/١٢).

بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحاً في البئر، مشرياً بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأنّ الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف"[1].

وقيل: إن معرفته لهم جاءت بعد التعرف عليهم[2].

وكأنه بوحي من الله تعالى أمر يوسف إخوته بالقدوم عليه ببنيامين أولاً، لتبدأ بعد ذلك مرحلة اللقاء تدريجيًا، ولحرصه على لقاء أخيه أحسن ضيافتهم، وأمعن في إكرامهم، وأمر فتيانه بجعل ثمن ما أخذوه في رحالهم سراً؛ ليطمعهم في العودة مرة أخرى: **قال** تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف:٥٨-٦٢].

أما آيات المشهد الرابع فهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ

(١) الكشاف (٢/٤٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٨).

حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۞ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٦٣-٦٨].

معنى الآيات:

يخبر تعالى إن إخوة يوسف لما رجعوا من مصر قالوا قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع: إنه سيمنع منا الكيل بعد هذه المرة إن عدنا بغير أخينا بنيامين؛ لأن عزيز مصر ألزمنا به وطلبه منا؛ إما ليراه، أو ليعرف صدقنا منه، فأرسله معنا، فإن فعلت أمكننا أن نعود إليه، ونكتال منه، وإننا له لحافظون أي: لا تخف عليه؛ فإنه سيرجع إليك، وقالوا هذه المقالة لأبيهم ترغيباً له في إرساله معهم؛ لكونه لم يعد يثق بهم لما كان منهم في يوسف.

فلما سمع منهم أبوهم ذلك **قال** لهم: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم، وقد ضمنتم لي حفظه ولكنكم أضعتموه؟ فهل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ لكنه لما رأى المصلحة في إرساله وكل أمره إلى الله فقال: إن حفظ الله خير من حفظكم له، ففيه التفويض إلى الله تعالى، والاعتماد عليه في جميع الأمور، وهو أرحم الراحمين في حفظ ما استودع فلا يجمع علي مصيبتين، وهو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم ، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف؛ لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف، أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح ولما كبروا، فأرسله معهم، أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك.

ثم إنهم فتحوا متاعهم الذي حملوه من مصر فوجدوا ثمن طعامهم قد رد إليهم، وهو الذي كان أمر يوسف فتيانه بوضعه في رحالهم، فعجبوا لذلك فقالوا لأبيهم: أي شيء نطلب وراء هذا الإكرام؟! أُوفيَ لنا الكيل، ورُدّ علينا الثمن، وأرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم ليرسل معهم أخاهم، ثم ذكروا مصلحة الموافقة فقالوا: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالطعام إلى أهلنا؛ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطي كل رجل حمل بعير، ثم إن ذلك الحمل الذي نزداد من الطعام هين على الملك؛ لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك، **وقيل**: معناه: أن الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا.

فوافق والدهم على إرسال بنيامين لكنه أخذ عليهم العهد فقال: لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله، وتجعلوا الله شاهداً عليكم على أن تردوه إلي إلا أن تهلكوا جميعًا، أو تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه، فأعطوه ذلك فقال: الله على ما نقوله شاهد، **قال** ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

ثم وصاهم بوصيةٍ رجاء حفظهم بها؛ حيث أمر بنيه- لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر- أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد من أبواب المدينة، وليدخلوا

من أبواب متعددة.وقد تلمس بعض المفسرين سبب هذا الأمر لهم؛ فقيل: إنه خشي عليهم العين؛ وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، ولكونهم أبناء رجل واحد، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق.

وقيل: وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة، وقد عرفهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع.ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام! لأمرٍ مّا أكرمهم الملك وقرّبهم، وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

وقيل: وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة، فربما سجنوهم، أو رصدوا الأعين إليهم، فيكون ذلك ضراً لهم، وحائلاً دون سرعة وصولهم إلى يوسف عليه السلام ودون قضاء حاجتهم.ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد، دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن "بنيامين" يكون في صحبة أحد إخوته؛ لئلا يضل في

المدينة.

ثم أخبرهم بأن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف، ولا يمانع، أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنيًا غناء مبتدئًا من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عند أمر الله، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره، واقتناع النفس بعدم التفريط.

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ تأدبًا مع واضع الأسباب، ومقدر الألطاف في رعاية الحالين؛ لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وقد أطاع إخوة يوسف فدخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولكن ذلك لم يكن ليرد قضاء الله سبحانه، ولكن ذلك الدخول قضى حاجة في نفس يعقوب عليه السلام، وهي إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة شفقة عليهم.

وإن يعقوب لذو يقين ومعرفة بالله سبحانه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن يعقوب عليه السلام بهذه الصفة[1].

تأملات في المشهد:

١-لعل أحوال إخوة يوسف مع أبيهم وأخيهم بنيامين تحسنت، ولم يعد

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٢٨٩-٢٩٠)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٨-٤٠٠)، النكت والعيون (٣/٥٧-٦٠)، تفسير الخازن (٣/٢٩٦-٢٩٩)، تفسير البغوي (٤/٢٥٦-٢٥٩)، الكشف والبيان (٥/٢٣٦-٢٣٧)، الوجيز للواحدي (ص:٥٥٣)، التحرير والتنوير (١٢/٨٩-٩١)، الكشاف (٢/٤٦٠).

لديهم عزم على التخلص منه كما تخلصوا من أخيه يوسف، فسنوات الطيش، ونزق الأحقاد قد دفنها مرور الزمان عليهم، فالفراغ من محسودهم الأكبر، وكبر سنهم، ورؤية حال أبيهم الذابلة بعد فقد يوسف ربما قد كستهم هدوءاً وأدبًا؛ إذ بعد هذا كله لم يذكر لنا القرآن أنهم حاولوا إبعاد بنيامين عن أبيهم بطلب منهم.غير أننا نجدهم هذه المرة عند عودتهم من مصر مضطرين إلى أخذ بنيامين معهم ليزدادوا به كيل بعير في تلك السنوات الشهباء، لكن استئذانهم هذه المرة ليس وراءه كيد، ولا مضرة فيه على أخيهم ولا أبيهم، إلا أن هذا الطلب منهم لأبيهم لم يعد سهل المنال؛ لأن جرح يوسف في قلب يعقوب مازال ينزف، وذكرى استئذانهم الماكر لأخذه مازالت محفورة في الذاكرة الحزينة؛ ولهذا قالوا ليوسف: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾[يوسف:٦١]؛ لعلمهم أن أباهم لن يسلمه لهم بسهولة، لكنهم كانوا عازمين على اصطحابه معهم إلى مصر ؛لأجل المنفعة الغذائية للأسرة كلها؛ ولهذا قالوا: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ "أي: سنخادعه ونستميله في رفق إلى أن يتركه يأتي معنا إليك، ثم أكدوا ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة، لا نفرط فيه ولا نتوانى"(١).

٢-فجاءوا إلى أبيهم عليه السلام فطلبوا وعللوا ووعدوا، فماذا كان رد الأب المكلوم، والطلب للحبيب الحاضر كالطلب للحبيب الغابر، والطالب الماضي الماكر هو الطالب الآن للسلوة الباقية، والجملة الكاذبة السابقة هي الجملة نفسها يسمعها تطرق سمع يعقوب مرة أخرى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؟!

٣-أما موقف يعقوب عليه السلام من هذا الطلب فكان له أربعة مواقف:

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٦/ ٢٩٤).

الأول: موقف الإنكار والمعاتبة ونزع الثقة: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[يوسف:٦٤].

الثاني: الاقتناع بإرساله معهم توكلاً على الله، وركونًا إلى حفظه وحده؛ لما رأى من المصلحة الغذائية لآل يعقوب.﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

الثالث: الاحتياط بعقد الاستيثاق بينه وبينهم على رده، وهذا من باب العمل بالأسباب بعد توكله على الله.﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف:٦٦].

الرابع: تزويدهم بنصيحة عند دخولهم مصر؛ شفقة منه عليهم، مع ما قد فعلوا به من الآلام.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف:٦٧].

٤-وإما أبناؤه فإنهم قد استنزلوه من تمنعه الكبير في ظرف لم يجد بداً من إيتائهم سؤلهم، إضافة إلى ذلك فقد سلكوا معه طرقًا إقناعية عديدة حتى ظفروا ببغيتهم:

أ-عرضوا عليه الموضوع أول ما وصلوا قبل أن يفتحوا أمتعتهم؛ ليخبروه بأهمية الأمر، وضرورة الموافقة على الطلب.

ب-استعملوا معه حسن الخطاب: (يَا أَبَانَا).

ج-الإخبار عن تحقق منع الكيل لهم مرة أخرى إذا رجعوا إلى الملك بدون

أخيهم، وقد قدموا هذه النتيجة قبل الطلب: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا) للأهمية.

د-ذكر الفائدة من إرساله معهم، وهو حصول كيل الطعام لهم: (نَكْتَلْ).

ه-الوعد بحفظه بجملة مؤكدة بتقديم ما حقه التأخير؛ دليلاً على شدة حفظهم له: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ز-الإغراء له بالآتي:

-عودة ثمن ما أخذوه إليهم، فكأن ما حملوا من مصر كان هدية من ملكها لهم، وهذا يطمع في الرجوع إليه لكرمه هذا.

-استعمال الاستفهام: (مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) "والمعنى: أي شيء نطلبه بعد هذه الكرامة وهي ردّ البضاعة مع الطعام؟"[1].

- ترغيبه بجلب الطعام لأهلهم في وقت شدة الحاجة إليه.

-تكرار الوعد بحفظ بنيامين: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

-الظفر بزيادة كيل بعير، وهذا فيه خير كثيرة للأسرة؛ "إذ كان يوسف لا يعطي إلا كيل بعير من الطعام لكل إنسان"[2].

ح-الاستعطاف والتسهيل في قولهم: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ وهذا: "**فيه وجهان:**

أحدهما: أن الذي جئناك به كيل يسير لا ينفعنا.

والثاني: أن ما نريده يسير على من يكيل لنا ، قاله الحسن.فيكون على الوجه

(١) تفسير ابن جزي(١/ ٣٩١).

(٢) تفسير ابن جزي (١/ ٣٩١).

الأول استعطافاً، وعلى الثاني تسهيلاً. وفي هذا القول منهم وفاءٌ، ليوسف فيما بذلوه من مراودة في اجتذاب أخيهم؛ لأنهم قد راودوه من سائر جهات المراودة ترغيباً واستنزالاً واستعطافاً وتسهيلاً"(١).

٥-وفي هذا المشهد نسمع من الأب الكريم الحروف الملتاعة على ابنٍ غيبته الأيام، فبقيت له ذكرى حزينة في الفؤاد، وهكذا يصنع حنان الآباء ولو طالت السنون، وفي زاوية أخرى من المشهد نجد من يعقوب كمال التوكل، وتمام تفويض الأمور إليه، فما زادته الأحزان إلا تعلقًا بالله تعالى؛ ليكون ذلك درسًا لكل أب فارقه ابن يحبه.

٦-كما نجد يعقوب عليه السلام قد علمته تجربة يوسف درسًا بليغًا في الحذر من الوثوق بإخوته فنراه هنا يستوثق من أبنائه ميثاقًا مؤكداً على حفظ بنيامين، ولولا تقدير المصلحة لما سمحت نفسه الجريحة بتسليمه لهم، والأب الحكيم تعلمه التجارب دروس الاحتياط، غير أن الحكمة تملي عليه فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

٧-ومن هذا المشهد نستفيد أن على الأبناء أن يعلموا أن حنان الأبوة ورحمتها طبع باقٍ في نفوس الآباء مهما عقّهم الأبناء، فيدعو ذلك كلَّ ابن إلى بر أبيه، والإحسان إليه؛ فيعقوب مع ألمه الغائر الناتج من فعل أبنائه تحمله رحمته وحنانه على إيصائهم بوصية تدفع عنهم الشر حيث **قال** لهم متلطفًا: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾، كما يدعوه عطفه وعلمه إلى التماس

---

(١) النكت والعيون (٣/٥٨).

الأعذار لبنيه حينما يكونون معذورين على الحقيقة فيقول لهم: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

٨-وحينما نتأمل في عمل أبناء يعقوب هنا فإننا سنلاحظ حرصهم الشديد على مصلحة الأسرة الغذائية، والوصول إلى كفايتها في زمن الحاجة، وهذا يدعو الأبناء إلى أن يكونوا كذلك مع أسرهم، لا أن يبقوا عالة عليها منتظرين ما يجود به الآباء والأمهات أو غيرهم عليهم.

٩-كما نلاحظ حسن الكلام، وبراعة الأسلوب في الطلب وقوة الإقناع، ومعرفة الطرق المؤدية إلى الظفر بالحاجة المشروعة، وفي هذا أسوة للأبناء.

١٠-ونجد أيضًا أن إخوة يوسف بدوا بارين بأبيهم هذه المرة؛ حيث عملوا بما **قال** لهم فدخلوا من حيث أمرهم أن يدخلوا.

المشهد الخامس:

لقد مضى أبناء يعقوب إلى مصر مرة أخرى ومعهم بنيامين حسب طلب الملك، وبأمر من الله تعالى احتبس يوسف أخاه بنيامين، ليعود إخوته بدونه إلى أبيهم بعد محاورة لخلاصه، لكن من غير جدوى، **قال** تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٠-٨٧].

معنى الآيات:

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك؛ انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، فذكّرهم أسنُّهم بموثق أبيهم عليهم في حفظ بنيامين، وتقصيرهم من قبل في حفظ يوسف، وغرضه أن أباهم غير مصدقهم فيما يخبرون به من أخذ بنيامين في سرقة الصواع. وأخذ على نفسه أن يبقى في الموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذراً؛ ليكون بقاؤه علامة عند أبيه يعرف بها صدقهم في سبب تخلف بنيامين؛ إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبًا لولا خوفه من أبيه، وقد جعل غاية بقائه إلى حصول أحد أمرين: **الأول**: إذن أبيه بالرجوع له، **والثاني**: أن يحكم الله في هذه الحادثة بجميع ما يمكن أن يرده من القدر كالموت أو النصرة وبلوغ الأمل وغير ذلك. والله خير الحاكمين؛ لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف، والمراد من هذا الكلام: الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده،

ويتنصلوا إليه، ويبرءوا مما وقع بقولهم.وقولنا لك: ﴿ابْنَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى والعلم في الغيب إلى الله ليس في ذلك حفظنا، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ احتراس من تحقق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خلجهم به الشك في وقوع السرقة منه.

ثم طلبوا منه -من أجل تصديقهم وبيان أمانتهم- سؤال أهل مصر أو غيرها، والرفاق الذين قدموا معهم من مصر، فأما سؤال العير فسهل، وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات.

وقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقنهم إياه كبيرهم، **فقال** أبوهم: بل زينت لكم أنفسكم أمراً من الكيد له كما فعلتم بيوسف من قبل.

ثم أخبر عن نفسه بأنه سيصبر صبراً ثابتًا ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاء الله تعالى، وترجى من الله-العليم بحاله، الحكيم في قضائه- أن يرد عليه أولاده الثلاثة، **ورجاؤه هذا من جهات:**

إحداها: الرؤيا التي رأى يوسفُ، فكان يعقوب ينتظرها، والثانية: حسن ظنه بالله تعالى في كل حال.

والوصف بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاء بنيه، وفيها تسليم لحكمة الله تعالى في جميع ما جرى عليه.

ثم أعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين، وحينئذ تناهى حزنه،

واشتد بلاؤه، وبلغ جهده. **وقال** متذكراً حُزنَ يوسف القديم: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾. والأسف: أشد الحزن، وإنما ذكر القرآن تحسره على يوسف - عليه السلام - ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين:

لأن ذلك التحسر هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكره أن يعقوب - عليه السلام - لم يتحسر قط إلا على يوسف.

وقيل: وإنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة؛ لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول.

وقيل: إن يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين، فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجْدُه، وجدد حزنه على يوسف؛ لأن يوسف كان أصل المصيبة.

ومع تواتر الحزن ضعف بصر يعقوب عليه السلام حتى ذهب، والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين؛ إذ توالى إحساس الحزن على الدماغ يفضي إلى تعطيل عمل عصب الإبصار.

على أن البكاء من الحزن أمر جبلي فلا يستغرب صدوره من نبي.

ولما كان يعقوب من أهل الصبر الجميل فإنه كان يكظم حزنه فلا يظهره للناس شاكيًا لهم، وقد وصف يعقوب بذلك؛ لأنه لم يشك إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويمسك همه في صدره، وكان يكظمه أي: يرده إلى قلبه، ولا يرسله بالشكوى والغضب.

فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: والله لا تفتر في حال كونك تذكر يوسف حتى تكون شديد المرض، وإن استمر بك هذا

الحال خشينا عليك الهلاك والتلف، وربما قالوا ذلك جهلاً وظلماً غير مبالين بمشاعر أبيهم المكلومة.

وجملة ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ محاورة بنيه إياه عندما سمعوا قوله: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وقد قالها في خلوته فسمعوها. والمقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف - عليه السلام -، وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف.

وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنه يذكر أمراً لا طمع في تداركه، فأجابهم يعقوب عليه السلام راداً عليهم: بأني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف، وإنما أشكو إلى الله، ولا تعنيف في ذلك، وأن ذكره يوسف - عليه السلام - موجه إلى الله دعاء بأن يرده عليه.

فقوله: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه برد يوسف -عليه السلام- إليه؛ لأنه كان يعلم أن يوسف لم يهلك، ولكنه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي. فجملة ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، أي: يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة؛ لأن الدعاء عبادة. وصار ابيضاض عينيه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى أثراً جسديًا ناشئًا عن عبادة، مثل تفطر أقدام النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الليل.

والبث: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. والحزن: الأسف على فائت. فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب - عليه السلام -؛ لأنه كان مهتمًا بالتفكير في مصير يوسف - عليه السلام -، وما

يعترضه من الكرب في غربته، وكان آسفًا على فراقه.

وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية؛ ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه، أي: أنا أعلم من عند الله علمًا علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوة.وفي هذا تعريض برد تعريضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع.

ويعني بهذه الجملة: أنه تعالى من رحمته وإحسانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب، وفيه إشارة إلى أنه كان يعلم حياة يوسف، ويتوقع رجوعه إليه.

ثم ندب يعقوب بنيه للذهاب في الأرض بحثًا عن يوسف وأخيه، وفي خطابهم بوصف البنوة منه ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال.

والتحسس: شدة التطلب والتعرف، وهو طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع، ويستعمل في الخير والشر، فمن استعماله في الخير هذه الآية.

وقال يعقوب لبنيه: لا تيأسوا من الظفر بيوسف - عليه السلام - معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة؛ فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك فحقه أن يأخذ في سببه، ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة، وينكرون غيرها[1].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/١٠٥-١١١)، المحرر الوجيز (٣/٢٧٧-٢٨١)، تفسير ابن كثير (٤/٣٠٣-٣٠٣)، تفسير الخازن (٣/٣٠٦-٣١٠)، النكت والعيون (٣/٦٧-٧٠)، تفسير الطبري (١٦/٢٢٤).

تأملات في المشهد:

١-هنا في هذا المشهد تسكب العبرات، وتنطق الحروف بالآهات، ويبلغ الحزن مداه، والحرج منتهاه، فقد انطلقت خطى إخوة يوسف من عند أبيهم والسرور يملأ جوانب نفوسهم، والشوق إلى كرم الملك يحدو ركبهم، والتفكر بالعودة السعيدة بالميرة الكثيرة إلى يعقوب عليه السلام، والوفاء له بحفظ أخيهم؛ يسكب في قلوبهم السعادة، ولكن تلك المشاعر لم تعد معهم إلى أبيهم فقد دفنت في صواع الملك، وتبدلت الأفراح إلى أتراح، والمسرة إلى مضرة، والسيرة الحسنة إلى شكوك وتهمة وأوجاع نفسية عميقة.

فبأمر من الله تعالى-لكي يزداد الأجر وتعلو المنزلة بالبلاء-أمسك يوسف أخاه بنيامين عنده وأبى تسليمه لإخوته، وفي هذه اللحظات نزل بإخوته الغم الكبير؛ لأنهم قد عاهدوا أباهم على إرجاعه إليه. **وهنا نلاحظ الآتي:**

أ-نرى من هذا المشهد أن إخوة يوسف قد صلح حالهم، فبدا عليهم الوفاء والحرص على حفظ أخيهم وإسعاد أبيهم وعدم إرادة إحزانه؛ وذلك بحرصهم على مراجعة الملك في أمر بنيامين؛ إذ لم يصلوا إلى درجة اليأس من شفاعتهم لإطلاق أخيهم إلا بعد مراجعة طويلة.

ب-في موقف أخيهم الكبير ومقاله ما يشي بمدى الغم الذي اكتسح جوانب نفسه، وعكر عليه حاله، وهذا يدل على حرجه من خلف الوعد لأبيه، وخوفه من أذية أبيه بفقد ابنه الثاني، ومن ظنِّه بهم سوءاً بكونهم قصروا في حفظ ابنه.

ب-امتلأت قلوب إخوة يوسف بالرحمة والشفقة على أبيهم؛ لما رأوا شدة

الحزن قد استولت عليه، فخافوا عليه الموت أو مقدماته.

٢-ومن هذا الموقف لأبناء يعقوب نستفيد أن على الأخ الكبير أن يسارع إلى حل مشكلات إخوته، ويجمعهم لتبادل الرأي في الهموم المشتركة، ويوجههم إلى العمل الصائب.والواقع يشهد أن الأخ الأكبر يتحمل من مهمات إخوته شيئًا كبيراً، وأن عواقب الأخطاء المشتركة أول ما تتجه نحوه، وأن سنه تحمله على أن يكون أرشد إخوته سلوكًا وأحسنهم رأيًا،-وإن حصل خلاف ذلك في النادر- وأن على إخوته أن يسمعوا صواب رأيه، ويسرعوا إلى طاعة أمره.

٣-وأن على الابن أن يحرص على بر أبيه، والعمل على ما يرضيه، ويحذر أن يقع فيما يسخطه أو يؤذيه، وأن يحرص على طلب الإذن منه فيما يفعل أو يذر، وأن يوفي له بوعده، ويحفظ ما استودعه عليه، فإن غلب على خلاف ذلك فإن غمه ومحاولاته فعل ما يحبه والده، وسرد الأعذار الصادقة؛ دليل على عنايته بأمر أبيه، أما تفريطه وعدم مبالاته فذلك برهان العقوق.

٤-ونستفيد أيضًا أن على الابن أن يلتزم الصدق مع أبيه، وأن يقيم على صدقه من الأدلة والقرائن الصادقة ما يجعل أباه يقبل قوله.

٥-لقد كان يعقوب ينتظر من مصر قدوم البشائر برجوع أبنائه وهم يحملون الميرة التي تسد حاجتهم، ويتوثق بعودة بنيامين مع إخوته على صلاح حالهم مع أخيهم، لكن الأمر لم يكن حسب الخواطر السعيدة التي كانت تدور في خلد نبي الله يعقوب؛ فليس كل ما يتوقعه المرء من الأخبار السعيدة يحصل دائمًا.

٦-وصل أبناء يعقوب والحزن يثقل خطاهم، والغم يكسو وجوههم

الصبيحة، والكلمات تتثاقل على شفاههم لا تستطيع الانطلاق على عادتها، ولكن لابد من الحديث مع الأب الجريح بالكَلْم السابق عن الكَلم الجديد.

٧-وصل الخبر إلى يعقوب فما كان موقفه؟

لقد ألحقَ هذه القضيةَ بسابقتها؛ إذ الأصل في أبنائه حسد أخويهم وكراهيتهم لهما، ولم يقم لديه دليل منهم يغير هذا الأصل، ولم تحدث تلك الأدلة التي أقاموها على صدقهم لدى يعقوب تصديقًا وثقة بما أخبروا.

٨-وعد يعقوب من نفسه الصبر الجميل، كما وعد في يوسف، وهذا يبين عادته في مواقف البلاء فإنه يستقبلها بالصبر الذي لا ضجر فيه من القدر ولا شكوى إلى البشر.

٩-تفاءل يعقوب في هذا المصاب جداً؛ لأن البلاء إذا اشتد آذن بقرب الفرج.

١٠-هرع إلى معتكف حزنه وبكائه، وترك من حوله حتى سلم لأوجاعه نور عينيه، وتذكر بحزنه الجديد حزنه القديم، والأسى يبعث الأسى، كما **قال** مُتَمِّم بن نَوْيَرَة:

فقالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى والدَّكادِكِ
فقلْتُ له: إنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ذَرُونِي، فهذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ[1].

١١-نقول:

على فقدِ بنيامينَ مِن بعدِ يوسفٍ تذوب من الأحزان عيناْ أبيهما

(١) الحماسة البصرية (ص:٨٧).

وتجتمع الأشواق في القلب والأسى فيـذهب نـور العـين آهًـا علـيهما!

١٢-رفع يعقوب شكواه إلى الله وطواها عن الخلق؛ لعلمه بأن البلوى لا يكشفها إلا الله تعالى.

١٣-لم يقعده حزنه الكبير، وبكاؤه الكثير عن عمل ما يرد إليه أبناءه، بل أمر من ورد إليه منهم أن يرجع إلى مصر للبحث عن إخوتهم، ونهاهم عن اليأس، وهذا غاية عظيمة في حسن الظن بالله.

١٤-ومن هذا الموقف ليعقوب عليه السلام نستفيد:

أ-أن على الأب إن جاءه نبأ أليم عن بعض بنيه أن يستقبل ذلك بالصبر الجميل الذي سيهون عليه مصابه الجلل.

ب-أن يحسن الظن بالله، ويوقن بحسن جزائه وكرم عوضه.

ج-أن يتجرد عن الضجر واليأس ويتحلى بالتفاؤل وتغير بؤس الحال إلى ما يحب ويسعد.

د-أن يدع الشكوى إلى الخلق، ويقصد بها الخالق وحده الذي بيده تبديل الأحوال.

هـ-ليس عليه حرج إن حزن أو بكى ولو اشتد ذلك؛ فإن هذا مما لا يملكه المرء؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه **قال** : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أبي سيف القَين -وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام- فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إبراهيم فقبّله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تذرفان،

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأنت يا رسول الله ؟ فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة).ثم أتبعها بأخرى، **فقال** صلى الله عليه وآله وسلم:(إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم، لمحزنون)[1].

١٥-تطوى صفحات هذا المشهد المأساوي ونبي الله يعقوب يذوب حزنًا على أبنائه المفقودين، ويكتوي أسى من أبنائه الموجودين، ويذوي شوقًا إلى يوم اللقاء الموعود، وأما أبناؤه فهم في حضن اللوعة حزانى على أبيهم وعلى أخيهم، وينتظرون اليوم الذي يُذهب أَساهم، ويلقون فيه أخاهم.

المشهد السادس:

هذا المشهد هو المشهد الأخير بين يعقوب وأبنائه، وهو مشهد الفرج بعد الشدة، والاجتماع بعد الفرقة، والسرور بعد الحزن، والغنى بعد الفقر، وفيه تحقق مضمون رؤيا يوسف التي انتظرها مع أبيه سنين عدداً.

في هذا المشهد تُغسل أدران الماضي البائس- ماضي البؤس والعناء، والحزن والضراء، والعقوق والعصيان، والظلم والعدوان-، وتشرق فيه شمس التوبة والاستغفار، بعد دياجٍ من الطيش والأوزار، و تسمو فيه روح العفو والغفران، والتسامي عن الانتصار للنفس في ظل الملك والسلطان.

لقد ولِد هذا المشهد العظيم بعد قدوم إخوة يوسف وتذللهم بين يديه، وإظهار فاقتهم إليه، فرقّ لهم يوسف فعرفهم بنفسه، وأرسل معهم قميص البشارة إلى أبيه

---

(١) متفق عليه.

ليفرحوه به، بعد أن أحزنوه بقميصه الماضي، قال تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٩٣-١٠٠].

معنى الآيات:

ذُكر أن يوسف عليه السلام لما عرّف نفسه إلى إخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره من الحزن! فعند ذلك أعطاهم قميصَه وقال لهم: اذهبوا بهذا القميص فألقوه على وجه أبي؛ فإنه إن وجده ريحه رجع إليه بصره، وطلب منهم القدوم بجميع بني يعقوب؛ إكرامًا منه لهم، وصلة لأهله.

وفائدة إرساله إلى أبيه القميص: أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر. ولقصد تعجيل المسرة له.

كما أن في ذلك علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف - عليه السلام -.

وأما كونه يصير بصيراً فحصل ليوسف - عليه السلام - بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

ولولا الوحي لما عرف ذلك؛ لأن العقل لا يدل عليه، ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره، فإذا ألقي عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح، ويزيل الضعف عن القوي، فحينئذ يقوى بصره ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب؛ فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى.

ولما خرجت عير بني يعقوب من مصر أكرم الله تعالى يعقوب عليه السلام بمعجزة خارقة للعادة وهي أنه وجد رائحة يوسف من مسافة بعيدة قبل أن يصل إليه قميصه، فأخبر من حضره بذلك، ولكونهم غير مصدقين بحياة يوسف **قال** لهم يعقوب: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني، أو لتحققتم ذلك.

وأصل "التفنيد": الإفساد.وإذا كان ذلك كذلك فالضعف والهرم والكذب وذهاب العقل وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد؛ لأن أصل ذلك كله الفساد، والفساد في الجسم: الهرمُ وذهاب العقل والضعف، وفي الفعل: الكذب واللوم بالباطل.

فلما **قال** يعقوب ذلك **قال** له من حضره: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: من حبك يوسف لا تنساه ولا تسلاه.

والضلال: البعد عن الطريق الموصلة.والمعنى: أنك مستمر في التلبس

بتطلب شيء من غير طريقه.أرادوا طمعه في لقاء يوسف - عليه السلام - ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدته، وكانت مدة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام سنوات عدة.وكان خطابهم إياه بهذا مشتملاً على شيء من الخشونة.

فلما وصل البشير بقميص يوسف ألقاه على وجه أبيه، فرجع إليه بصره؛ كرامة له وليوسف عليهما السلام، وخارقة للعادة، فلما حصل ذلك **قال** لهم يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ بحياة يوسف وإمكان لقائه، وهذا من حسن ظنه بالله تعالى.

فلما رأى أبناء يعقوب هذه الآية العظيمة طلبوا منه أن يدعو لهم بغفران ذنوبهم وهم معترفون بخطئهم مما صنعوا به وبيوسف، فوعدهم بالاستغفار لهم لكنه قال: (سوف) التي تدخل على التأجيل بخلاف السين التي تدل على التعجيل، ولماذا فعل يعقوب ذلك؟ ليس لدينا إجابة قاطعة في الأمر، لكن تلمس بعض المفسرين أسبابًا لذلك، فمما ذكروا:

أنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب، وأنه ليس بالأمر الذي يغفر بسهولة.

وقيل: أخر الاستغفار لهم إلى ساعة هي مظنة الإجابة كوقت السحر الذي هو أشرف الأوقات لذلك.

وإنما سألوه غفرانه لأمرين : أحدهما : أنهم أدخلوا عليه من آلام الحزن ما لا يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.الثاني : أنه نبيٌّ تجاب دعوته ويعطى مسألته.

ثم ينتقل سياق الآيات إلى دخول يعقوب مع بنيه مصر، لكنه طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف - عليه السلام -؛ إذ ليس فيه من

العبر شيء، فلما اقتربوا من مصر خرج يوسف عليه السلام لاستقبالهم كما قيل، **وقال** لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وقيل: إن معنى: (ادخلوا) تمكنوا واسكنوا واستقروا؛ لأنهم قد كانوا دخلوا عليه.

ومعنى قوله: ﴿ءامِنِينَ﴾ يعني: على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً، وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر.وقيل: آمنين من القحط والشدة والفاقة.وقيل: آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف، والله أعلم.

فلما دخلوا مصر ضم إليه أبويه وأكرمهما إكرامًا زائداً، وأبواه هنا هما أبوه وأمه وليس أباه وخالته كما **قال** بعضهم؛ لأنه لم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها.

ثم أجلس يوسف أبويه على سرير ملكه إكرامًا لهما، ثم خر أبواه وإخوته الأحد عشر ساجدين له سجود تحية وإكرام، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجُعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى.

عن ابن أبي أوفي رضي الله عنه قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم **فقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما هذا؟!) قال: يا رسول الله، قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك، قال: (فلا تفعل؛ فإني لو أمرت شيئًا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى

تؤدي حق زوجها)[1].

فلما رأى يوسف سجود أبويه وإخوته له ذكّر أباه برؤياه، وقال: هذا ما آلت إليه رؤياي؛ فقد جعلها الله صحيحة صادقة.

ثم اعترف بنعم الله عليه فقال: وقد أحسن إلي حين أخرجني من السجن، وجاء بكم من البادية إلى هذه الحاضرة؛ لأن بهذا المجيء حصل جمع الشمل، والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين، وكان رب إبل وغنم وبادية.

يقول: وجاء بكم على ذلك من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف بي حينما أخرجني من السجن وأوصلني إلى نعمه.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

وقد خص يوسف من إحسان الله إليه إحسانين هما: يوم أخرجه من السجن، ومجيء عشيرته من البادية.

فإن ﴿إذ﴾ ظرف زمان لفعل ﴿أَحْسَنَ﴾ فهي بإضافتها إلى ذلك الفعل اقتضت وقوع إحسان غير معدود؛ فإن ذلك الوقت كان زمن ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به امرأة العزيز وتلك منّة، وزمن خلاصه من السجن؛ فإن السجن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبة، وبخلطة من لا يشاكلونه، ويشغله عن خلوة نفسه بتلقي الآداب الإلهية، وكان أيضًا زمن إقبال

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان، وهو صحيح.

الملك عليه. وأما مجيء أهله فزوال ألم نفساني بوحشته في الانفراد عن قرابته وشوقه إلى لقائهم، فأفصح بذكر خروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو إلى حيث هو مكين قوي.

وأشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجب، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، فكلمة ﴿بَعْدِ﴾ اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره. وقد ألمّ به إجمالاً اقتصاراً على شكر النعمة، وإعراضًا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته، فمر بها مر الكرام، وباعدها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان.

وقال بعض المفسرين: وذكر يوسف عليه السلام إخراجه من السجن، وترك ذكر إخراجه من الجب **لوجوه:**

أحدها: أن في ذكر إخراجه من الجب تجديد فعل إخوته وخزيهم بذلك، وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخبيث النفوس، ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريباً لهم، فكان إهماله جارياً مجري الكرم.

ثانيها: أنه خرج من الجب إلى الرق ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح.

ثالثها: أنه كان في السجن مع الخوف من المعرة ما لم يكن في الجب، فكان ما في نفسه من بلواه أعظم؛ فلذلك خصه بالذكر والشكر.

رابعها: أنه **قال** ذلك شكراً لله عز وجل على نقله من البلوى إلى النعماء، وهو إنما انتقل إلى الملك من السجن لا من الجب، فصار أخص بالذكر والشكر؛ إذ

صار بخروجه من السجن ملكاً، وبخروجه من الجب عبداً.

خامسها: أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة، فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته، وزالت التهمة، فكان هذا أقرب إلى المنفعة.

سادسها: أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكاً، بل صيروه عبداً، أما لما خرج من السجن فقد صيروه ملكاً، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاماً كاملاً[(١)].

تأملات في المشهد:

في هذا المشهد تتجلى صور مشرقة بين الآباء والأبناء نوجزها في **الآتي**:

أولاً: بدا من يوسف عليه السلام من صور البر بأبيه:

١ - بعثه بقميصه إليه ليبشره به، وإنما اختار هذه الوسيلة لأمور، **منها**:

أ-لأنها كانت الوسيلة التي أدخلت عليه الحزن، فأحب أن تكون هي الوسيلة نفسها التي تذهب عنه ذلك الحزن؛ لهذا ينبغي لمن حزن والداه بسببه أن يسعى لإفراحهما، وما أحسن أن يسعدهما بمثل أسلوب يوسف هذا!

ب-أن يحسن إلى إخوته؛ ليرضى أبوه عنهم؛ فإنهم لما جاءوه بالقميص الأول فأحزنوه، أراد يجيئوه بالقميص الثاني ليفرحوه، ويمسحوا خطيئتهم السالفة.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/١١٤-١٢٠)، المحرر الوجيز (٣/٢٨٣-٢٨٨)، النكت والعيون (٣/٧٨-٨٤)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٨-٤١٢)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٦٥-١٧١)، تفسير الخازن (٣/٣١٤-٣١٥)، تفسير الطبري (١٦/٢٥٨،٢٦٣)، الكشاف (٢/٤٧٥).

٢- أحب يوسف عليه السلام أن يرجع بصر أبيه إليه حتى يراه فتسعد به عيناه وأذناه معًا؛ إذ ليس من تمام السعادة أن يلقاه فاقداً للبصر؛ فلذلك كانت هذه الغاية من أولوياته قبل لقائه.

٣- ضمه لأبويه، وعنايته الخاصة بهما حتى إنه أجلسهما على سريره، وهكذا يصنع الابن البار بوالديه؛ حيث يوليهما عنايته وعطفه مهما بلغت منزلته الدنيوية، ويجعلهما يشاركانه في نعمته.

٤- تلطف يوسف في ذكر الماضي البئيس؛ حيث لم يذكر فعل إخوته به، بل جعل ما حصل من نزغ الشيطان، وليس من جريرة إخوته به، ومن أغراض ذلك: لئلا يبعث من قلوب والديه كوامن الحزن عليه، والغضب على إخوته، ولكي لا يذل إخوته في هذا اليوم الذي وصلوا فيه معه إلى العز المنيف.

ثانيًا: وأما إخوته فقد ظهر منهم في هذا المشهد التوبة والإنابة، والاعتراف بسالفهم المظلم، وطلب الدعاء من أبيهم عليه السلام، فبعد ماضي الطيش آبوا إلى الصواب.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ فالضمير في: (قالوا) يعود على المتحدث عنهم، فهل هم أبناؤه الذين في مصر، أم هم الموجودون عنده، وهل هؤلاء الموجودون غير أبنائه، أم فيهم بعض أبنائه بأن ذهب بعضهم إلى مصر وبقي معه بعضهم، لا نستطيع الجزم بشيء من ذلك؛ لأن الأمر محتمل، لكن نستطيع القول بأن القول صدر ممن كان حاضراً عنده وليس لدينا دليل على تعيينه، فإن كان قد صدر من أبنائه فهو من العقوق الذي يضاف إلى رصيدهم السابق منه، وإن كان من الحاضرين من غيرهم من سائر أهله فإن تلك العبارة قاسية لم يراع قائلها منزلة نبي الله، ولا مشاعر ذلك الشيخ الكبير

الذي تواترت عليه الأحزان وعذبته الأشواق، بل كان عليهم أن يتلطفوا معه بكلمة لينة، وأسلوب رقيق، ولكن كما **قال** العرب: "وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الخَلِيِّ"، **وقال** الشاعر:

لَا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيْهَا

ثالثًا: أما يعقوب فهذا اليوم هو يومه الموعود الذي انتظره سنوات بعد سنوات، فهو اليوم الذي رأى فيه تأويل رؤيا يوسفه وهو على المجد الشامخ، والشرف الباذخ، فسعادته لا توصف، وفرحه ملك عليه أمره.

وقد ظهر منه في هذا المشهد:

ب-شوقه الكبير ليوسف، وبقاء آثاره لديه، حتى إنه وجد رائحة حبيبه من بعد سنين، ولكن لا غرابة فللولد رائحة لا يعرفها إلا الآباء والأمهات المحبون.

ب- عفوه عن أولاده، وتناسيه لماضيهم القاتم، وحِلمه معهم رغم قسوتهم معه.

ج- وعده بالدعاء لهم، فعلى الآباء قبول اعتذار الأولاد المخطئين، والدعاء لهم، ونسيان ماضي العقوق، وهذا خير من الانتصار للنفس.

رابعًا: ومن تأملات هذا المشهد أيضًا:

١-أن الفرح يزيل عن النفس آلامها البدنية، كما أن الحزن له أثر على صحة الجسد.

٢- ﴿لولا أن تفندون﴾، ما جاءت هذه العبارة إلا بعد تتابع الملام والعتاب ليعقوب ممن حوله على يقينه بحياة يوسف، وهم لا يتوقعون ذلك؛ فلهذا لم يستطع يعقوب كتمان وجدانه ريح يوسف، مع أنه على يقين من تفنيد الحاضرين له، لكن الحب والمسرة إذا غلبا لم يقدر صاحبهما على إضمار مسراته بين الجوانح.

٣-استحباب التبشير بقدوم الغائب الذي طالت غيبته، وليس من المناسب القدوم مفاجأة، فالتدرج في إفراح النفس التي طال حزنها هو الأسلوب الأمثل.

٤-لقد بدا يوسف عليه السلام وَصُولاً لرحمه؛ حيث طلب إتيانهم أجمعين إلى مصر لينزلهم منازل العز و الإكرام.

٥- جاءت يعقوبَ بشارتان قبل لقائه بيوسف: وجدان ريح يوسف، ووصول القميص إليه.

٦- في المرة السابقة لما **قال** ليعقوب أبناؤه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف:٨٥].رد عليهم قائلاً: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦]، وأما هذه المرة فإنه لما **قال** له الحاضرون: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾[يوسف:٩٥]، فإنه لم يرد عليهم، فكأن هذا من حلمه وتأنِّيه؛ لعلمه بقرب تحقق ما وجده، حيث أوكل عليهم ردَّ الحال بدل رد المقال، فلما تحقق ذلك **قال** لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٩٦].

العِلْم والجهل

المطلب الأول: العلم:

التعريف:

(علم) العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره..ومن ذلك: العِلْم: نقيض الجهل، وقياسه قياس العَلَم والعلامة، والدَّليل على أنَّهما من قياسٍ واحد قراءة بعض القُرَّاء: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾[الزخرف٦١]، قالوا: يراد به نُزول عيسى عليه السلام، وإنَّ بذلك يُعلَمُ قُرب الساعة. وتعلّمت الشَّيءَ: إذا أخذت علمَه، وعلم وَالشَّيْء علماً: عرفه، وعالمه باراه وغالبه فِي الْعلم، وتعالم فلَان: أظهر الْعلم، وتعلم الْأَمر: أتقنه وعرفه، والْعلم: نور يقذفه الله فِي قلب من يحب، والعلم: المعرفة، وَقيل: الْعلم يُقَال لإدراك الْكُلِّي والمركب، والمعرفة تقال لإدراك الجزئي أَو الْبَسِيط[1].

اصطلاحًا:

هو: إدراك الشيء على حقيقته، أو هو: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع[2].

نافذة:

العلم وصف حسن، ونعت كريم يدل على معرفة الأشياء والتمييز بينها، وهو صفة من صفات الله تعالى التي كثيراً ما يذكرها في مواضع عديدة من كتابه

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/١٠٩-١١٠)، المعجم الوسيط (٢/٦٢٤).

(٢) المعجم الوسيط (٢/٦٢٤). (٤/١١٠)، التعريفات (ص:١٩٩).

الكريم؛ لأنه من أدل الصفات على ربوبية الله تعالى وألوهيته.

وقد اشتق تعالى لنفسه من صفة العلم أسماء: العليم والعالم وعلام الغيوب، وهي أسماء دالة على إحاطته تبارك وتعالى بكل شيء؛ "فهو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولما يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالمًا، ولا يزال عالمًا بما كان وما يكون، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها على أتم الإمكان"[1].

وقد تفضل ربنا تعالى بتعليم الناس ما يحتاجون إليه، فأول ما كان ذلك تعليمه أباهم آدم عليه السلام، كما **قال** تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[البقرة:٣١].

ثم علم تعالى ذريته على امتداد الحياة الدنيا، فغدا منهم أهل العلم بشؤون الدين، وبشؤون الدنيا، وبتلك الصفة الحميدة وصلوا إلى غايات جليلة مما يعود عليهم بالنفع ويدفع عنهم الضرر والمشقة.

ومن نظر في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله عليه الصلاة والسلام وجد الدعوة الكثيرة إلى العلم والثناء الكبير على أهله، خاصة ما يتعلق بشأن الدين.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:١١].

وقال النبي صلى الله عليه و سلم:(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين)[2].

وفي سورة يوسف ذكر الله تعالى صفتي العلم والجهل في مواضع وموضوعات متعددة، وسنبدأ بالحديث عن العلم في النقاط الآتية:

---

(١) لسان العرب (١٢/٤١٦).

(٢) متفق عليه.

أولاً: علم الخالق سبحانه وتعالى:

إن الناظر في قصة يوسف عليه السلام يلاحظ كثرة ذكر علم الله تعالى في مشاهد متنوعة منها، فقد جاء ذلك في قالب الاسم وقالب الفعل، ففي الاسم ورد ذكره في **صيغتين**:

الأولى: صيغة اسم الفاعل الدال على المبالغة والتكثير وهو اسم: "العليم"، وقد ورد هذا الاسم الكريم على هذه الصيغة في قصة يوسف مجرداً، كما ورد أيضًا مقترنًا بغيره من الأسماء الحسنى.

فمن أمثلة المجرد عن الاقتران: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

وأما الاقتران فقد اقترن باسم الله "الحكيم" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦]، وقوله: ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

واقترن باسم الله: "السميع" في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يوسف:٣٤].

الثانية: صيغة اسم التفضيل، في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:٧٧].

وأما في قالب الفعل فقد ورد بصيغتي الماضي والمضارع على جهة تعليمه لعباده العلم، **قال** تعالى: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[يوسف:٣٧]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[يوسف:٦٨]، وقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[يوسف:١٠١]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٦]، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٢١].

تأملات في بعض الآيات التي ذكر فيها علم الله في قصة يوسف:

١-الله تعالى هو مصدر العلم:

أ-فما من علم نافع في الخلق إلا والله تعالى هو معطيه وواهبه أهليه، فلا يتكبر أحد بعلمه؛ إذ ليس ذلك بقوته وقدرته، وإنما هو منّة من العليم الخبير.

وقد رأينا في الآيات القريبة الماضية: (٦٨، ٢١، ٦، ٣٧، ١٠١) أن الله تعالى أخبر عن تعليمه يعقوب ويوسف عليهما السلام، وأن يعقوب بشّرَ يوسفَ بتعليم الله إياه، وأن يوسف نسب علمه إلى الله، واعترف بين يديه بذلك.

ب-**وقال** تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢].

يخبر الله في هذه الآية أنه تعالى آتى يوسف عند بلوغه حكمًا وعلمًا، وهما النبوة وعلم تعبير الرؤيا، والعلم بالدين، والعلم بالدنيا كأمر الاقتصاد.

٢-اقتران اسم الله " العليم" بغيره من أسماء الله ومناسبة ذلك في قصة يوسف:

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد كثرة اقتران الأسماء الحسنى بعضها ببعض، خاصة في نهاية الآيات، وهذا له حكمه وأسراره، ومن ذلك اسما: العليم والحكيم.

قال ابن القيم: "وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال؛ فالعلم يتضمن الحياة و لوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب"(١).

ونرى في قصة يوسف اقتران اسم الله العليم باسمه الحكيم في ثلاثة مواضع، وكلها تقدم فيها اسم العليم على الحكيم؛ إشارة إلى أن المقام مقام علم، لكنه مصحوب بحكمة.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦].

تحدثت هذه الآية عن بشارة يعقوب لابنه يوسف من خلال رؤياه بما سينعم الله تعالى عليه من النعم، ثم ختم هذا الموضوع باسمي العليم والحكيم، وهذا له مناسبته؛ فقوله: عليم، يعني: بمن يستحق الاجتباء، أو النعمة، أو الفضل ومن يصطفيه لذلك، حكيم باصطفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها له، أو عليم بما يعطيك، حكيم في فعله بك، أو عليم: علَّمك تأويلَ الأَحاديث، حكيم: اجتباك للرّسالة.(٢).

---

(١) الرسالة التبوكية (٨/٤).

(٢) البحر المديد(٣٥٣/٣)، تفسير الطبري (٥٦١/١٥)، تفسير المنار (٢١٢/١٢)، تفسير القرطبي (١٢٩/٩)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢٥٧/١).

قال الرازي: "فقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام:١٢٤]، وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية"(١).

وقال أبو حيان: "إن ربك عليم بمن يستحق الاجتباء، حكيم يضع الأشياء مواضعها. وهذان الوصفان مناسبان لهذا الوعد الذي وعده يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام في قوله: ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾(٢).

وقال ابن عاشور: "وجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل؛ لأنه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة"(٣).

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن جواب يعقوب عليه السلام لأبنائه عندما جاءوا من مصر، وأخبروه باحتباس بنيامين وبقاء كبيرهم هناك، فأجاب بهذا الجواب، وختمه باسمي الله العليم والحكيم. **ومناسبة ذلك:**

العليم: بحالي وحالهم، الحكيم فيما حكم علي، أو العليم بحالي في الحزن والأسف،

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٧٣).

(٢) البحر المحيط (٥/٢٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٢١).

الْحَكِيم الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة، أو العليم بأمركم، الحكيم في قضائه بما ذكرتم.

أو العليم بمكانهم، الحكيم أن يحكم بردهم علي[1].

وقال الرازي: "الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ: يعني هو العالم بحقائق الأمور، الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة"[2].

وقال السعدي: "﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومنَّته، واضطراري إلى إحسانه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية"[3].

وقال ابن عاشور: "وجملة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفي عليه مواقعهم المتفرقة، حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق [4].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

---

(١) البحر المديد (٤١٢/٣)، زاد المسير (٢٦٩/٤)، تفسير الكشاف (٤٦٧/٢)، النكت والعيون (٦٩/٣)، بحر العلوم (٢٠٦/٢).

(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٥٣/١٨).

(٣) تفسير السعدي (ص:٤٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٠٧/١٢).

هذه الآية حكت تلك الحال السعيدة التي انتهى إليها أمر يوسف وأبيه وإخوته من الاجتماع بعد التفرق، والفرج بعد الشدة، وتحدثت عن شكر يوسف لله تعالى لنعمه عليه بعد المحن، ثم ختم الآية باسمي الله العليم والحكيم، ومناسبة ذلك: أن هذه الأحداث المتباينة التي جرت ليوسف وأبيه وإخوته ترجع إلى علم الله وحكمته، فليس فيها جهل بالأمور وعواقبها، ولا خفاء عن وجه الحكمة.

فقوله: العليم أي: بما صنعوا، الحكيم: إذ رد علي أبي، وجمع بيني وبين إخوتي[1].

قال الرازي: "ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ والمعنى: أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال؛ كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف، فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول. ثم قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أعني: أن كونه لطيفاً في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها، فيكون عالماً بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب، وحكيم: أي: محكم في فعله حاكم في قضائه، حكيم في أفعاله مبرأ عن العبث والباطل، والله أعلم"[2].

وقال البقاعي: "العليم : أي البليغ العلم للدقائق والجلائل، الحكيم: أي البليغ الإتقان لما يصنعه طبق ما ختم به يعقوب عليه الصلاة والسلام بشراه في

---

(١) بحر العلوم (٢/٢١١).

(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب.(١٨/١٧٢).

أول السورة، أي: هو منفرد بالاتصاف بذلك، لا يداينه أحد في علم ليعترض إلى أبطال ما يقيمه من الأسباب، ولا في حكمه ليتوقع الخلل في شيء منها"[١].

٣-ثمرة التدبر لما ذكر من علم الله في هذه القصة :

إننا لو تدبرنا هذه الآيات التي تتحدث علم الله تعالى في هذه القصة فإن ذلك سيربي فينا شعوراً إيمانيًا يجعلنا نراقب الله تعالى في كل أقوالنا وأعمالنا؛ إذ كيف نعصيه في الخلوة والجلوة وهو المحيط علمًا بكل صغيرة وكبيرة!.

كما أن تدبرَ ذلك يجعلنا نطمئن-ما دمنا مؤمنين صادقين- بأن تدبير الله لنا تدبير خير مهما كرهنا بعضًا من أوائله؛ لإيجاعه لنا أو مخالفته لأهوائنا، لكنه في النهاية يصب في صالحنا في عواقبه ونهاياته؛ إذ مبناه على علم العليم الخبير؛ وما أجمل ما يتسلل إلى النفس من مشاعر الاطمئنان وهي تتدبر هذه الآية وقد ختمت ببيان أن مبنى الأمور على علم الله بالمآلات الذي نحن جاهلون به، **قال** تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١٦].

كذلك أن تدبر ذلك يجعلنا نرغب إلى الله في تعليمنا وتفهيمنا ما نجهله من أمر ديننا وأمر دنيانا؛ فهو تعالى قبلة العلم فمن أراد العلم فليتجه نحو تلك القبلة، ولا يتجه إلى جهده وذكائه.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهادُهُ.

(١) نظم الدرر (٤/٩٩).

ثانيًا: علم الخلق:

لقد ذكر ربنا العليم سبحانه في قصة يوسف جانبًا من العلم الذي آتاه يعقوب ويوسف عليهما السلام، إضافة إلى علم النبوة الذي آتاهما إياه.

وسيكون حديثنا في النقاط الآتية:

١-علم يعقوب عليه السلام:

لقد أثنى الله تعالى على يعقوب عليه السلام بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٦٨]. وذلك حينما أمر أولاده إذا وردوا مصر أن يدخلوا من أبواب متعددة خوفًا عليهم من ضرر، وهو من باب عمل الأسباب وهي لا ترد ما قدره الله تعالى، وهذا من العلم النافع لدى يعقوب. **قال** ابن عاشور: "وهو ثناء على يعقوب – عليه السلام – بالعلم والتدبير، وأن ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوة. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك نشأ عن جملة ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ الخ. والمعنى: أن الله أمر يعقوب – عليه السلام – بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم؛ فإن مراد الله تعالى خفي عن الناس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة. وعلم يعقوب – عليه السلام – ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما. فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمراً قدره الله وعلم أنه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.

وقد دل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بصريحه على أن يعقوب – عليه

السـلام - عمـل بـما علمـه الله.ودل قولـه: ﴿وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـونَ﴾ بتعريـضه على أن يعقـوب - عليه الـسلام - مـن القليـل من النـاس الـذين علمـوا مراعاة الأمرين "[1].

وقوله: ﴿ولكنّ أَكْثَرَ الناسِ لا يَعْلَمُوْن﴾ يعني: ما يعلم يعقوب من أمر دينه، أي: لا يعرفون مرتبته في العلم، أو لا يعلمون مثل ما علم يعقوب، أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة من العلم[2].

وفي مشاهد هذه القصة العظيمة نجد من علوم يعقوب عليه السلام النافعة: تعبيره للرؤيا؛ كتعبيره رؤيا يوسف التي رأى من خلال تعبيره لها العز والشرف الذي ينتظر ابنه يوسف في المستقبل[3].

ومن علومه أيضًا التي ظهرت في القصة: حسنُ إرشاده ونصحه ليوسف عقب تعبيره رؤياه، وإيمانُه العظيم بالقضاء والقدر، وعمله بالأسباب مع كمال توكله على الله، واليقينُ بوعد الله وحسن الظن به.

٢-علم يوسف عليه السلام:

لقد منح الله تعالى يوسفَ عليه السلام مع النبوة معرفة تامة بأشياء كثيرة، **قال** تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٤).

(٢) الكشف والبيان.(٥/ ٢٣٧)، تفسير القرطبي (٩/ ٢٢٩)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/ ١٤١).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٥)، تفسير المنار (١٢/ ٢١٤).

فمما ذكرته آيات قصته: معرفته العظيمة بعلم تعبير الرؤيا وآدابه؛ فإنه لما قص رؤياه على أبيه بشره بأن الله تعالى سيعطيه مع النبوة العلم بتأويل الرؤى **فقال** الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٦]، ولما ذكر الله وصول يوسف عليه السلام إلى بيت العزيز قال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٢١].

وقد عبر يوسف عليه السلام -كما في القصة- ثلاث رؤى: رؤيا الفتيين في السجن، ورؤيا الملك، ففي السجن عبر للفتيين رؤياهما، **وقال** لهما: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف:٣٧]. وفي تعبيره هنا: استغل علمه بالتعبير في الدعوة إلى الله تعالى، وهذا من الآداب التي ينبغي أن يحرص عليها معبر الرؤيا.

"وجملة ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ استئناف بياني، لأن وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوة علمه، وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأن ذلك مما علمه الله تخلصًا إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد. وكان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة. وقوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ إيذان بأنه علمه علومًا أخرى، وهي علوم الشريعة والحكمة والاقتصاد والأمانة كما قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]"(١).

وفي تعبيره للملك -بعد أن عبر رؤياه-: "مزج تعبيره بإرشاد جليل لأحوال التموين والادخار لمصلحة الأمة"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٧٣).

ومما ذكرته الآيات في علم يوسف: علمه الوظيفي بتدبير شؤون الاقتصاد أيام المجاعة في مصر، ولهذا لما **قال** الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤] **قال** يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]. فقد: "علل طلبه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع "إن" في صدر الجملة فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه، ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما؛ لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى اتباعه. وهذا من قبيل الحسبة"[1].

"يقول: ﴿حفيظ﴾ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، ﴿عليم﴾ بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال: ﴿حفيظ﴾ بجميع مصالح الناس ﴿عليم﴾ بجهات حاجاتهم، أو يقال: ﴿حفيظ﴾ لوجوه أياديك وكرمك ﴿عليم﴾ بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع"[2].

ومما ذكرته الآيات: اعترافه بنعمة الله عليه بالعلم، **قال** تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١]. وهذا من شكره لله تعالى على هذه النعمة.

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٢).

(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/ ١٢٩).

فقد" أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، والثالثة أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام"(١).

ثالثًا: أنواع العلوم التي ذكرتها قصة يوسف عليه السلام:

ذكرت هذه القصة المباركة عدة علوم تميز بها يوسف عليه السلام:

الأول: علم تعبير الرؤى:

وهو علم من العلوم العظيمة التي ذكرها القرآن الكريم في سور عدة، وجاء عن رسولنا صلى الله عليه وسلم عشرات الأحاديث في علم الرؤى وتعبيرها، وبوب له المحدثون في مصنفاتهم أبوابًا خاصة سردوا فيها ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه.

وقد بين العلماء أهمية هذا العلم وأثره في تفاسير الآيات، وشروح الأحاديث الواردة في الرؤى، كما تكلموا عن ذلك في مصنفات مفردة.

قال السعدي-وهو يذكر العبر والفوائد التي اشتملت عليها قصة يوسف-: "أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده...**ومنها**: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية...**ومنها**: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه"(٢).

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٠).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٠٧).

وقال ابن عاشور: "تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده"[١].

وقال ابن عبد البر -عند كلامه عن حديث: (هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟...)[٢]: "وهذا الحديث يدل على شرف علم الرؤيا وفضله؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم إنما كان يسئل عنها لتقص عليه ويعبرها؛ ليعلم أصحابه كيف الكلام في تأويلها، وقد أثنى الله عز وجل على يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما، وعدد عليه فيما عدد من النعم التي آتاه التمكين في الأرض وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها"[٣].

وقال النووي -في شرح حديث: (من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له)[٤]: "وفي الحديث الحث على علم الرؤيا والسؤال عنها وتأويلها، **قال** العلماء: وسؤالهم محمول على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم تأويلها وفضيلتها واشتمالها على ما شاء الله تعالى من الإخبار بالغيب"[٥].

وهذا العلم الشريف لا يحسنه كل عالم فضلاً عن غيرهم، وإنما يجيده قلة من الناس، خلافًا لما نرى في زماننا من الجرأة عليه ممن ليس من أهله.

وقد اشتملت قصة يوسف على أربع رؤى:

---

(١) التحرير والتنوير (٦/١٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) التمهيد (٣١٣/١).

(٤) رواه مسلم.

(٥) شرح النووي على مسلم (٣٠/١٥).

الرؤيا الأولى: رؤيا يوسف وتعبيرها:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٤-٦].

"وإنما أخبر يوسف – عليه السلام – أباه بهذه الرؤيا؛ لأنه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيراً، وعلم أن الكواكب والشمس والقمر كناية عن موجودات شريفة، وأن سجود المخلوقات الشريفة له كناية عن عظمة شأنه. ولعله علم أن الكواكب كناية عن موجودات متماثلة، وأن الشمس والقمر كناية عن أصلين لتلك الموجودات، فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه فأخبر بها أباه"(١).

هذه هي الرؤيا، وكلام يعقوب ليوسف عن تعبيرها كلام مجمل، لكن في نهاية القصة حصل الإفصاح من يوسف، **قال** تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

فهل يعقوب أخبره بأن تعبيرها هو: سجود أبيه وأمه وإخوته له، ولكن لم

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٤).

يصرح بذلك في الآيات في أول السورة، أو ذكر له كلامًا مجملاً عن ذلك يدل على فضله، وهو الذي يدل عليه ظاهر الآيات في أول السورة، أو أن يوسف لما رأى سجود أبيه وأمه وإخوته له تذكر رؤياه الماضية فعبرها هو بهذا السجود؟ الله أعلم.

الرؤيا الثانية والثالثة: رؤيا الفتيين وتعبير يوسف لهما:

هذان الفتيان رأيا من يوسف فضلاً وعلمًا، فطمعا أن يفسر لهما ما رأيا، أو أن يوسف قد أخبرهما بأنه يحسن تعبير الرؤى فسألاه لذلك.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٣٦].

وقد قيل: إن هذين الفتيين كانا ساقي الملك وخبَّازه، فغضب عليهما؛ لتهمة بخيانة فأدخلهما السجن.

فالأول ذكر أنه يعصر عنبًا يصير خمراً، والآخر رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فجاء تعبير يوسف هكذا:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف:٤١].

فتعبير رؤيا الأول: أنه ينجو ويعود إلى سقي سيده، وأما الثاني فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه.

الرؤيا الرابعة: رؤيا الملك وتعبير يوسف لها:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[يوسف:٤٣-٤٩].

رأى ملك مصر الذي كان العزيز وزيراً له رؤيا عجيبة فهالته، وهي:

أنه رأى سبع بقرات سمان أكلتها سبع بقرات مهازيل، وسبعَ سنبلات خُضْرٍ قد انعقد حَبُّها، وسبعاً أخر يابسات قد أدركت، فالْتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها. فلما رأى ذلك انتبه مرعوبًا فجمع الكهنة والحُزَاة وكبراء دولته وأمراءه وقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن رؤياه أخلاط أحلام، والمعنى: ليس لها تأويل عندنا؛ لأنها أكاذيب الشيطان، وإنما التأويل للمنامات الصادقة.

وكان الذي نجى من السجن حاضراً فلما رأى عجزهم عن التعبير تذكر يوسف بعدما نسيه مدة طويلة فقال: أرسلوني؛ فأنا أعرف من يحسن التعبير.

فجاء إلى يوسف فأخبره بالرؤيا وطلب منه تعبيرها؛ لكي يرجع إلى الملك ومن معه فهم ينتظرون العلم بها.

فقال في تعبيرها : تزرعون سبعَ سنينَ على عادتكم المستمرة من الخصب والرخاء، فما حصدتُّم فاتركوه في سُنْبُله؛ لئلا تأكله السوس، وهي نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا.﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين، أي: لا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون إلى أكله خاصة.فعلمهم حيلة يبقى بها السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهو أن يتركوه في سنبله غير مُدرَس؛ فإن الحبة إذا بقيت في غشائها حُفظت بإذن الله.

ثم يأتي من بعد ذلك سبع سنين ذات شدة وجوع يأكل أهلهن ما ادخروا لأجلهن.إلا قليلاً مما تخزنون وتخبئُون للزراعة والبذر.ثم يأتي من بعد ذلك عام يغيثهم الله بالفرج من القحط، وفي ذلك العام يَعْصِرُون العنب والزيتون ؛ لكثرة الثمار.وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة.ولعله علم ما في السنة الثامنة من الخصب والرخاء بالوحي، أو بأن انتهاء الجدب لا يكون إلا بالخصب، وبأن سنة الله الجارية أن يوسع على عباده بعدما ضَيّق عليهم؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح: ٥].

وقد عبر يوسف الرؤيا بجميع ما دلت عليه؛ فالبقرات لسنين الزراعة؛ لأن البقرة تتخذ للإثمار.**والسمن** رمز للخصب.**والعجف** رمز للقحط.**والسنبلات** رمز للأقوات، **والسنبلات الخضر** رمز لطعام ينتفع به، وكونها **سبعًا** رمز للانتفاع

به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديداً.

والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر، **وكونها سبعًا** رمز لادخارها في سبع سنين؛ لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أن سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب[1].

الثاني: علم الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله عمل من الأعمال العظيمة التي قام بها الرسل عليهم الصلاة والسلام في كل مكان كانوا فيه مع الناس، وهي مفتقرة إلى العلم في عرضها ودفع الشبهات والاعتراضات عليها؛ ولهذا ذكر الله تعالى في هذه السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨].

فقوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا﴾ أي: "على علم ويقين"[2]، والبصيرة هي: "أعلى درجات العلم"[3].

"فدل على أن الداعي إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه[4].

(١) ينظر: البحر المديد (٣/٣٨٨-٣٩٠)، التحرير والتنوير (١٢/٧١-٧٤)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٢-٢٩٣).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٠٦).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٥١).

(٤) أضواء البيان (١/٤٦٣).

وهنا نجد نبي الله يوسف عليه السلام ينتهز الفرصة في بقائه في السجن فيدعو من في السجن إلى توحيد الله تعالى، **قال** تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف:٣٦-٤١].

معنى الآيات:

المعنى: ودخل يوسف السجن واتفق أن أُدخل شابان إلى ذلك السجن، فلما كانوا هناك حصل التعارف بينهم، وعلم الشابان أن ليوسف علماً بتأويل الرؤى فأخبره كل شاب برؤياه، **فقال** أحدهما: إنه رأى في المنام أنه يعصر عنبًا يصير خمراً، **وقال** الآخر: إنه رأى نفسه وهو يحمل خبزاً فوق رأسه تأكل الطير منه، ثم طلبا من يوسف تعبير ذلك، **وقال** له: إنا نراك من أهل الإحسان في السجن للناس، أو من المحسنين في تعبير الرؤيا، أو نبئنا بتأويل رؤيانا محسنًا إلينا في إخبارك إيانا بذلك، كما نراك تحسن في سائر أفعالك.

فلم يسارع يوسف إلى التعبير، بل سارع إلى دعوتهما إلى الله تعالى أولاً؛ استغلالاً لحاجتهما إلى سماعه، ولأن أحدهما سيقتل فأحب أن يدخل في الإسلام فيموت عليه بعد ذلك. فلذلك **قال** لهما: لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام إلا أخبرتكما بما يصير إليه تعبيره قبل مجيء زمان وقوعه في اليقظة، أو أراد أنه يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا من طعام قبل أن يأتيهما وذلك من الإخبار بالغيوب الذي هو معجزة من معجزات الأنبياء، مثل قول عيسى عليه السلام لقومه: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[آل عمران: ٤٩].

فلما أخبرهما بذلك كأنهما عجبا من ذلك؛ لأن وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوة علمه، وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأن ذلك مما علمه الله؛ تخلصًا إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد.

ثم ذكر سبب تعليم الله إياه، فأخبر بأن سبب عناية الله به: أنه انفرد في ذلك المكان بتوحيد الله، وهجر ملة أهل المدينة الكافر أهلها، فأراد الله اختياره لهديهم. ثم قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلّمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد. ثم قال: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هذا التوحيد -وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم.ثم قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ نسبهما إلى السجن إما لأنهما سكناه، أو لأنهما صاحباه فيه، كأنه قال: يا صاحبي في السجن،﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره. وقد دعاهما بهذا إلى توحيد الله، وأقام عليهما الحجة رغبة في إيمانهما.﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر، ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: إلا مسميات، أو أشياء أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة، والمعنى: أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهةً، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلَّه لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣].ثم ذكر لهم بعد هذه الدعوة تعبير الرؤيا فقال:إن أحدكما- وهو الساقي- سينجو ويعود إلى سقي سيده الخمر، وأما الآخر فسيُقتل ويصلب فتأتي الطير فتأكل من رأسه، ثم أخبرهما بأنه قد قُطع الأمر الذي استفتياه فيه وهو ما يؤول إليه أمر ما رأيا[١].

(١) ينظر: بحر العلوم (٢/١٩٣)، بحر العلوم (٢/١٩٣)، تفسير ابن كثير (٤/٣٨٧-٣٩٠)، تفسير البيضاوي (٣/٢٨٧-٢٨٩)، تفسير الطبري (١٦/١٠٠-١٠١)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٢/١٩)، التحرير والتنوير (١٢/٦٢-٦٧).

تأملات في هذا المشهد:

في هذا المشهد نرى يوسف عليه السلام يتناسى ما هو عليه من محنة السجن فينصرف عن ذلك إلى الدعوة إلى توحيد الله بين قوم مشركين؛ لينقذهم من النار، ويقيم عليهم الحجة.

فقد كان يوسف عليه السلام يحمل همّ الدعوة، فلهذا استغل الجو لذلك، واستخدم ما أمكنه من الوسائل، وسخر ما لديه من مواهب وطاقات لخدمتها.

وحينما نتأمل في هذه الآيات دعوته لصاحبيه نجد أنه قد اتخذ أساليب دعوية ناجحة لها أثرها الكبير على المدعوين، فمن تلك الأساليب:

١-استغلال المكان الدعوي؛ فالسجن من الأماكن المهمة في الدعوة إلى الله، وكم من إنسان كان السجن مكان هدايته، وتغيير حياته من الشر إلى الخير.

٢-توظيف التخصص في الدعوة إلى الله؛ فيوسف قد وظف علمه بالتعبير في دعوة أهل السجن إلى التوحيد، وهكذا ينبغي لكل مسلم استغلال مواهبه وعلومه وأعماله في دعوة الناس إلى الخير حيثما حل.

٣- قضاء حاجة المدعويين، وتفريج كروبهم؛ فهذه الرؤيا قد أهمّت الشابين فقضى حاجتهما بتعبيره لهما.

٤-البداءة بالأهم قبل غيره؛ فقد أخّر يوسف تعبير الرؤيا حتى أكمل مع الرائيين جلسة الدعوة إلى الله؛ لأن تلك الحال مناسبة جداً لدعوتهما.

قال الزمخشري: "لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل

إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين؛ لم يكن من باب التزكية"(١).

٥-سلوك أسلوب الدعوة الفردية، وهي دعوة الأنبياء حيث تبدأ بدعوة الأفراد ثم دعوة الجموع، وهذا النوع من الدعوة قد يكون له من الأثر ما لا يكون للدعوة العامة، وفرصه وأسباب تيسيره أسهل من النوع الآخر.

٦-أسلوب استعطاف المدعو، وهذا يتأتى بأمور كثيرة، ومنها: حسن ندائه وخطابه؛ فيوسف نادى الفتيين بوصف الصحبة، ونسبهما إلى شيء يشترك معهما فيه وهو السجن.

٧- أسلوب الغَيبة وتحاشي أسلوب الخطاب وتحديد الأسماء عند تعبير الرؤيا؛ وذلك لتضمن إحداهما شراً؛ فلم يقل لصاحبها: أنت ستؤول رؤياك إلى كذا، وإنما قال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف: ٤١]، وكل منهما سيعرف تعبير رؤياه بالقرائن.

---

(١) تفسير الكشاف (٢/٤٤٣).

٨-أسلوب التعريف بشخص الداعي؛ من أجل إدخال الثقة في نفس المدعو؛ فيوسف عليه السلام بين لهما مقدرته في تعبير الرؤيا، وأنه عِلمَ بذلك من الله تعالى، فقد " وصف لهما نفسه بكثرة العلم؛ ليجعل ذلك وصلة إلى دعائهما لتوحيد الله "[١].

" كأنه أراد أن يدعوهما إلى التوحيد، ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد؛ فقدم ما يكون معجزة له من الأخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير "[٢].

ثم ذكر لهما " آباءه؛ تعليماً بفضلهم، وإظهاراً لسابقية الصلاح فيه، وأنه متسلسل من آبائه، وقد عقله من أول نشأته ثم تأيد بما علمه ربه، فحصل له بذلك الشرف العظامي والشرف العصامي. ولذلك **قال** النبي صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن أكرم الناس-: (يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي)[٣]. ومثل هذه السلسلة في النبوة لم تجتمع لأحد غير يوسف - عليه السلام "[٤].

٨- أسلوب عرض المنهج المدعو إليه، وقد استعمل لذلك:

أ-الإعلان بوضوح عن دعوته؛ فيوسف بيّن أنه يدعو إلى توحيد الله، ويحذر

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٢/١٩).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/٢٨٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) التحرير والتنوير (١٢/٦٣).

من الشرك به.﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ب-بيان حقيقة الباطل الذي يحذر منه ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

ج-أسلوب الاستفهام التقريري، والاحتجاج العقلي، والاستدلال على بطلان الباطل: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

د- حسن الانتقال في تقرير التوحيد وإبطال الشرك، فبعد " أن أثار لهما الشك في صحبة إلٰهية آلهتهم المتعددين انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، يعني: أن تلك الآلهة لا تحقق لحقائقها في الوجود الخارجي "(١).

هـ-التنقية قبل التحلية، فقد ذكر يوسف أولاً: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهذه تنقية، ثم قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهذه تحلية.

ز- التدرج في إبطال الباطل، **قال** البيضاوي في تفسير هذه الآيات: "وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة؛ بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٥).

الإلهية؛ فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير، وكلا القسمين منتفٍ عنها، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه"(١).

الثالث: علم الاقتصاد والتدبير المالي:

علم الاقتصاد من العلوم الإنسانية التي يحتاجها الناس في صلاح معايشهم، وتوفير السلامة الغذائية لهم، ويعرف هذا العلم بأنه: "العلم الذي يبحث في كيفية إدارة واستغلال الموارد الاقتصادية لإنتاج أمثل ما يمكن إنتاجه من السلع والخدمات لإشباع الحاجات الإنسانية من متطلباتها المادية، كما يبحث في الطريقة التي توزع بها هذا الناتج الاقتصادي(٢).

وفي هذه القصة ظهر يوسف -عليه السلام- ذا معرفة تامة بهذا العلم في تلك البيئة التي كان يعيش فيها، وكان رحمة من الله رحم به أهل مصر والشام في تلك السنوات التي مرت بها تلك البلاد.

حيث تبنى فكرة اقتصادية لحفظ الخزانة العامة (بيت المال)، واقترح التدبير المناسب لتنظيم إيراداتها ومصروفاتها للتصدي للمجاعة القادمة التي ستجتاح مصر وما حولها، ثم باشر تنفيذ الفكرة بنفسه بعد أن طلب من الملك جعله على خزائن الأرض، فولاه عليها.

ولقد رأى ملك مصر تلك الرؤيا العجيبة فعبرها له يوسف عليه السلام

---

(١) تفسير البيضاوي .(٣/ ٢٨٩).

(٢) الاقتصاد الإسلامي (ص:٦).

تعبيراً دقيقًا وافقه مستقبلُ الأيام.

لكن ما هو الشيء الذي أضافه يوسف عليه السلام على تلك الرؤيا؟

لقد وضع لهم فكرة اقتصادية مستقبلية حكيمة، وترشيداً ماليًا بديعًا لتلافي المجاعة وشدة الحاجة، وهي: إبقاء الحبوب في سنابلها؛ لئلا تأكلها السوس، وأشار بتقليل الأكل في سنوات الخصب؛ لادخار الفاضل لسنوات الجدب، **قال** تعالى: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾[يوسف:٤٧].

فقد " مزج تعبيره بإرشاد جليل لأحوال التموين والادخار لمصلحة الأمة.وهو منام حكمته كانت رؤيا الملك؛ لطفًا من الله بالأمة التي آوت يوسف عليه السلام، ووحياً أوحاه الله إلى يوسف - عليه السلام - بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان - عليه السلام - بواسطة الطير.ولعل الملك قد استعد للصلاح والإيمان.

وكان ما أشار به يوسف - عليه السلام - على الملك من الادخار تمهيداً لشرع ادخار الأقوات للتموين، كما كان الوفاء في الكيل والميزان ابتداء دعوة شعيب - عليه السلام - وأشار إلى إبقاء ما فضل عن أقواتهم في سنبله؛ ليكون أسلم له من إصابة السوس الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض، فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس، وأشار عليهم بتقليل ما يأكلون في سنوات الخصب لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة، فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا

تَأْكُلُونَ﴾"[1]. وهذه" نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا"[2].

ولم يكتف يوسف بهذا، بل أضاف لهم بشارة -بعد انقضاء سنوات الجدب- بمجيء " عام يغيثهم الله بالفرج من القحط، وفي ذلك العام يَعْصِرُون العنب والزيتون؛ لكثرة الثمار. وهذه بشارة بشرهم بها"[3].

فلما سمع الملك تعبيره ومدى علمه، ووصل إليه تعداد نعوته الحسنة عن طريق فتاه الذي نجى طلب إحضاره ليجعله من خاصته، وأهل السمو والأمانة لديه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

فخرج يوسف من السجن فلما اجتمع به طلب منه الولاية على خزانة الأرض من أجل نفع الناس، **قال** تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥].

"واقتراح يوسف - عليه السلام - ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح؛ ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه، ولا عَرَضًا من متاع الدنيا، ولكن سأل أن يوليه خزائن المملكة؛ ليحفظ الأموال، ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالها"[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٧٣).

(٢) البحر المديد (٣/٣٩٠).

(٣) البحر المديد (٣/٣٩٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/٨٢).

فأعطاه الملك ما طلب؛ لمكانته لديه؛ لأمانته، ولعلمه بهذه الولاية.

فباشر يوسف عليه السلام هذه الوظيفة أحسن مباشرة، فحينما جاءت السنوات المخصبة أحسن جمع الإيرادات، وصرفها بقدر الحاجة، وادخر منها للسنوات المجدبة، التي ظهر فيها حسن تصرفه، ودقة تفكيره، فصرف من ذلك المدَّخر في حاجات الناس بنظام دقيق؛ حتى إنه كان لا يعطي الشخص الواحد إلا حمل بعير، وكان يكرم النازلين به، ويوفي لهم الكيل حتى قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[يوسف:٥٩].

قال البغوي: "فلما اطمأن يوسف في ملكه دبَّر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله"(١).

فما أسعد الناس حينما يتولى أمورهم المالية الأكفَاء الأمناء الذين يتقنون وظيفتهم، ويؤدون حق الناس فيها!

رابعًا: آداب العلم في قصة يوسف عليه السلام:

حفلت هذه القصة العظيمة بآداب جمّة تتعلق بالعلم النافع وأهله، **فمن تلك الآداب:**

أولاً: الرجوع إلى أهل العلم واستفتاؤهم عما يشكل على الإنسان.

ففي هذه القصة رجع يوسف إلى أبيه وسأله عن تعبير رؤياه، ورجع كذلك الفتيانِ والملك إلى يوسف للغرض نفسه، حتى **قال** الملك: ﴿أَفْتُونِي﴾، **وقال** رسوله إلى يوسف: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا...﴾.

(١) تفسير البغوي (٤/٢٥٢).

ثانيًا: العمل بالعلم.

قال تعالى عن يعقوب: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[يوسف:٦٨].

قال قتادة: "لعامل بما علم"، **وقال** ابن الأنباري: "سمي العمل علمًا لأن العلم أول أسباب العمل"[(١)]. وقيل: "كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل"[(٢)].

ثالثًا: إكرام أهل العلم وتقريبهم وتوليتهم الوظائف التي يحسنونها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

رابعًا: نسبة العلم إلى الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[يوسف:٣٧].

خامسًا: عدم منع بذل العلم انتصاراً للنفس.

فيوسف لم يمنع تعبيره الرؤيا غضبًا على الذي نجا من الفتيين حينما نسي إخبار الملك بمظلمته، فلبث لذلك في السجن بضع سنين، ولم يقل: لن أعبر للملك رؤياه حتى يخرجني من السجن.

(١) زاد المسير (٤/ ٢٥٤).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٢٥٨).

سادسًا: عدم تشبع المرء بما لم يعط، وترك إقحام النفس فيما تجهل.

ومن ذلك تعبير الرؤى، فكم سمعنا من أناس وعن آخرين مسارعتهم إلى تفسير الرؤى وهم ليسوا أهلاً لذلك، **قال** تعالى عن الملأ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾[يوسف:٤٤]، **قال** السعدي في ذكر العبر من قصة يوسف: "أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ و**قال** الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ و**قال** الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ..﴾ الآيات. فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم"(١).

سابعًا: بعث بعض الناس لتلقي العلم ونقلهم إياه إلى غيرهم.

قال تعالى: ﴿...أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف:٤٥]، ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٤٦].

ثامنًا: مشروعية الحديث عن الإمكانيات العلمية للنفس عند الحاجة إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].

" وإنما سأل ذلك صلاحًا للخلق؛ لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله "(٢).

قال النووي–عند شرح حديث ابن مسعود: (ولقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني أعلمهم بكتاب الله ولو أعلم أن أحداً أعلم مني

---

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٧).

(٢) بحر العلوم (١٩٨/٢).

لرحلت إليه): "وفي هذا الحديث جواز ذكر الإنسان نفسه بالفضيلة والعلم ونحوه للحاجة، وأما النهي عن تزكية النفس فإنما هو لمن زكاها ومدحها لغير حاجة، بل للفخر والإعجاب وقد كثرت تزكية النفس من الأماثل عند الحاجة كدفع شر عنه بذلك، أو تحصيل مصلحة للناس، أو ترغيب في أخذ العلم عنه أو نحو ذلك، فمن المصلحة قول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].ومن دفع الشر قول عثمان رضي الله عنه في وقت حصاره: إنه جهز جيش العسرة، وحفر بئر رومة، ومن الترغيب قول ابن مسعود هذا، وقول سهل بن سعد: ما بقي أحد أعلم بذلك مني، وقول غيره: على الخبير سقطت وأشباهه"(١).

تاسعًا: معرفة العالم تفاوت الناس في العلم وأن كل عالم فوقه من هو أعلم منه إلى أن ينتهي ذلك إلى الله.

قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦].

ففي هذه الآية " شاهد لتفاوت الناس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنه فوق كل نهاية من علم الناس...وعبر عن جنس المتفوق في العلم بوصف عليم باعتبار نسبته إلى من هو فوقه إلى أن يبلغ إلى العليم المطلق سبحانه.وظاهر تنكير عليم أن يراد به الجنس، فيعم كل موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى"(٢).

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/١٦-١٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/٣٣).

عاشراً: اعتراف العالم بنعمة الله عليه بالعلم، والتوسل بذلك بين يدي الدعاء.

قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

الحادي عشر: تسخير العالم علمه في منفعة الناس وابتغاء الأجر على ذلك من الله تعالى.

كما فعل يوسف في علمه بتعبير الرؤى والاقتصاد.

خامسًا: ثمرات العلم النافع في قصة يوسف:

لا شك أن العلم النافع له ثمرات تعود بالخير على صاحب العلم، وعلى الناس كذلك، فمن خلال القصة **وجدنا من ذلك:**

أولاً: ثمرات العلم للعالم:

أ-ثمرات علم يعقوب عليه:

لقد أعطى الله تعالى نبيه يعقوب النبوة والعلم، وقد ظهر من خلال هذه القصة من ثمرات العلم على يعقوب عليه السلام:

١-صبره الجميل على ما أصابه؛ فإن حسن الصبر أثر من آثار العلم النافع.

٢-عمله بالأسباب، مع توكله الكامل على الله تعالى؛ لأن الجهل يجعل بعض أهله يتركون عمل الأسباب، ويدع آخرين يتكلون على الأسباب، ويتركون الله ربهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٦٨].

"وهو ثناء على يعقوب - عليه السلام - بالعلم والتدبير، وأن ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوة"(١).

٣-تفاؤله وحسن ظنه بالله تعالى، خاصة حينما تناهى البلاء بأسر ابنه الثاني، واحتباس ابنه الثالث؛ فإنه لما جاءه أبناؤه وأخبروه عن أسر بنيامين لم يجزع ولم ييأس، بل ازداد تفاؤله بردهم جميعًا، وأمر أبناءه الحاضرين بالبحث عن يوسف وأخيه، وهذه ثمرة يانعة من ثمرات علمه بالله وبدينه، **قال** تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣]، وقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

ب-ثمرات علم يوسف عليه:

لقد أفاد يوسف -عليه السلام- من علمه-كما في هذه القصة-خيراً كثيراً في دينه ودنياه، فمن ذلك:

١-استطاع الصبر عند المحن المتنوعة وتجاوزها.

٢-الخروج من السجن.**قال** الرازي: "اعلم أنه لما رجع الشرابي [يعني: الساقي] إلى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال: ﴿ائتوني به﴾، وهذا يدل على فضيلة العلم؛ فإنه سبحانه جعل علمه سبباً لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٤).

الأخروية"(١).

٣-تعظيم الملك له وتقريبه لديه.

٤-توليه خزائن مصر.

٥-نفعه الناسَ بتلك الوظيفة ودعوته لهم إلى الله.

٦-حصول براءته بين الناس.

٧-معرفة الناس قدره مما أدى إلى تبجيله.

٨-قدوم إخوته إلى مصر وإحسانه إليهم، واللقاء بأبيه، ثم المجيء بهم من البدو إلى حيث الغنى والعز والاجتماع والفرح من الشدائد، وهذا مما أدخل عليه السعادة، وكشف عنه آخر فصول المحنة وهو فرقته لأبويه والوحشة بينه وبين إخوته.

وهنا نلاحظ أن الإنسان عند العقلاء إنما يمدح بالصفات الحسنة لا بحسن الصورة الظاهرة، فجمال يوسف أوقعه في المكاره، ولكن صفاته الباطنة الحسنة كالعلم أوصلته إلى المكارم.

وجماله أدخله السجن وأوقعه في التهمة، وعلمه أخرجه من السجن وبرأه من التهمة وبلغه المراتب العليا.

قال السعدي-وهو يذكر العبر من قصة يوسف: "وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢١).

يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته"(١).

قال الله تعالى- ذاكراً تتويج يوسف بالعز بسبب إحسانه في العلم والعمل بعد تجاوز مراحل المحنة-: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦].

وهذا التمكين في هذه الآية هو التمكين الثاني ليوسف، وهو التمكين بولايته في أرض مصر، وأما التمكين الأول فهو التمكين في بيت العزيز حيث النجاة من الجب والوصول إلى الإكرام، **قال** تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١].

فـ"التمكين في الأرض هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أول أجزائه، فيوسف - عليه السلام - بحلوله محل العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتم الذي أشير له بقوله تعالى بعد ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[سورة يوسف: ٥٦]، فما ذكر هنالك هو كرد العجز على الصدر مما هنا، وهو تمامه"(٢).

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٤٣).

ثانيًا: ثمرات العلم للناس:

لقد أثمر علم يوسف على الناس-الأقربين والأبعدين-ثمرات كثيرة، فمن خلال القصة نرى **من ذلك:**

١-دخول بعض الناس الإسلام وتركهم الكفر.

" فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة "[١].

٢-تفريج غم الملك بتعبير رؤياه.

٣-انتفاع الناس بتدبيره في سنوات الجدب.

٤-خروج أسرته من الضيق إلى السعة.

٥-لقاء والديه له.

(١) تفسير السعدي (ص:٣٩٨).

المطلب الثاني: الجهل:

التعريف:

لغة:

(جهل) الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما: خِلاف العِلْم، والآخر: الخِفّة وخِلاف الطُّمَأْنينة؛ فالأوّل: الجَهْل: نقيض العِلْم. ويقال للمفازة التي لا عَلَمَ بها: مَجْهَلٌ، وجهل الشَّيْء وَبِه: لم يعرفهُ، وجهل الْحق: أضاعه فَهُوَ جَاهِل وجمعه: جُهّال وجهلة وجهلاء وَهُوَ جهول، وأجهله جعله جَاهِلاً، ووجده جَاهِلاً، وجَهّله: نسبه إِلَى الْجَهْل وأوقعه فِيهِ، وتجاهل: أظهر أَنه جَاهِل وَلَيْسَ بِهِ، واستجهله: عدّه جَاهِلاً ووجده جَاهِلاً، وَحمله على الْجَهْل[1].

اصطلاحًا:

اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه[2].

نافذة:

إن الجهل لا ينحصر في صورة واحدة وهي خلاف العلم، بل يتجاوز ذلك إلى أشياء أخرى:

فعدم معرفة الأمور جهل، والطيش ومفارقة الحلم جهل، واتباع الهوى والميل إلى الشهوات المحظورة جهل، وفعل خلاف الصواب جهل.

وهو بهذا التكييف مذموم لدى العقلاء.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/٤٨٩)، المعجم الوسيط (١/١٤٣).

(٢) التوقيف على مهات التعاريف (ص:٢٦٠).

ولما كان العلم حسنًا كان ضده -وهو الجهل- سيئًا، سواء كان الجهل في الدين أم في الأشياء الحسنة من أمر الدنيا؛ وسبب ذلك أن الجهل يؤدي إلى ارتكاب أفعال غير محمودة العاقبة، ويقصر بصاحبه عن بلوغ ما ينفعه.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

وكثرة الجهل وقلة العلم في الدين تنذر بقرب رحيل الدنيا.

قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (إنّ بين يدي السّاعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم)[١].

وسنتناول الحديث عن موضوع الجهل في قصة يوسف في النقاط **الآتية:**

أولاً: أساليب ورود لفظ الجهل ومرادفاته في قصة يوسف:

أ-التصريح بلفظ الجهل بصيغة الاسم:

قال تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩].

ب-نفي العلم بصيغة اسم الفاعل، وبصيغة الفعل المضارع المسبوق بـ "لا النافية":

---

(١) متفق عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾[يوسف:٤٤].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١، ٤٠، ٦٨].وقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].ونفي العلم يعني وجود الجهل في حق ما نفي عنه العلم.

ج-ذكر الغفلة عن الشيء التي تعني عدم العلم به:

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:٣].

" **الضمير** في ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد إلى القرآن.والمراد من قبل نزوله بقرينة السياق، والغفلة: انتفاء العلم؛ لعدم توجه الذهن إلى المعلوم.والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر، ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن، فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون، على تفاوت مراتبهم في العلم"(١).

وقال أبو السعود: "﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك قط، وهو تعليل لكونه موحى، والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإن غفل عنه بعض الغافلين"(٢).

ثانيًا: صور الجهل التي تحدثت عنها القصة:

من خلال الآيات السابقة التي ذكرت في الأساليب ومما قاله المفسرون فيها

(١) التحرير والتنوير (١٢/١١).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/٢٥١).

نستطيع أن نلخص صور الجهل التي جرى ذكرها في القصة في الآتي:

١-عدم معرفة الخبر:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:٣].

قال الطبري: ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن كنت يا محمد، من قبل أن نوحيه إليك لمن الغافلين عن ذلك لا تعلمه ولا شيئًا منه "[١].

٢-عدم معرفة قبح الفعل:

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

" أي : فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين قُبح ذلك "[٢].

٣-عدم معرفة تأويل الرؤيا:

كما حصل ليوسف في صغره، وكما حصل للفتيين وللملك وملئه.

٤- عدم معرفة عواقب الأمور ومآلاتها:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

أي: بعواقب أفعالكم، وبما يؤول إليه أمر يوسف، وفعلتم ذلك حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وما إليه صائر أمره وأمركم[٣].

٥- عدم معرفة عظمة الحقوق والأمر والنهي:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥١).

(٢) البحر المديد (٣/ ٤١٨)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٢/ ٣٢)، تفسير البيضاوي(٣/ ٣٠٦).

(٣) النكت والعيون(٣/ ٧٤)، تفسير الخازن (٣/ ٣١٢)، تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٤).

أي: جاهلون بعقوق الأب، وقطع الرحم، وموافقة الهوى[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

" يقول: وأكن بصبوتي إليهن من الذين جهلوا حقك، وخالفوا أمرك ونهيك"[2].

٦-العصيان:

قال تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

يعني: من المذنبين، فمن ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة[3].

٧-ترك العمل بالعلم:

قال تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

أي: "من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء"[4].

٨-الطيش وذهاب الحلم:

قال تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

يعني: من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه؛ فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح، ولأنّ الوقوع في موافقة النساء والميل إليهن سفاهة، والجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم[5].

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٨٠).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٨٩).

(٣) تفسير الخازن (٣/ ٢٨١).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٤٤١).

(٥) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٠٦)، تفسير البيضاوي(٣/ ٢٨٧)، التحرير والتنوير (١٢/ ٥٨).

٩-قلة الدراية بسبب صغر السن:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

كأنه قال: أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا، أو في جهالة الغرور(١).

١٠-عدم الدراية بعلم النبوة:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].

فقد: "أعقب كلامه بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية؛ ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه، أي: أنا أعلم من عند الله علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوة"(٢).

١١-ما عند الله لعباده:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].

يعني: "من أنه غفور لمن رجع عن معاصيه، وأن عذابه أليم لمن أصر عليها"(٣).

١٢-حياة يوسف وتحقق رؤياه:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١١٠).

(٣) الوجيز للواحدي (ص:٣٩٩).

يعني أنه: كان يعلم حياة يوسف، ويتوقع رجوعه إليه، وتحقق رؤياه[١].

وهذه الصور كثير منها أقوال لبعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩]. وقوله: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣]. وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦]. وذلك من اختلاف التنوع، وكلها تحتملها الآيات؛ إذ لم يقم دليل قاطع على تعيين أحد الأقوال ونفي ما عداه، والله أعلم.

ثالثًا: كثرة الجاهلين:

ذكر الله تعالى ثلاث جمل متفقة الألفاظ ختم بها ثلاث آيات مختلفة المواضع والموضوعات في هذه القصة، صرحت هذه الجمل بكثرة أهل الجهل، **ولكن في شؤون مختلفة:**

فأما الآية الأولى: فهي قول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١].

فتتحدث عن شراء عزيز مصر ليوسف من السيارة، وأمره زوجته بإكرامه لأجل الانتفاع به، أو اتخاذه ولداً، ثم ذكر الله بعد ذلك تمكينه ليوسف في الأرض، وتعليمه تأويل الأحاديث، ثم بين أن أمره تعالى نافذ غالب في عباده، وبعد هذا ختم الآية بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فما هو هذا الشيء الذي لا يعلمه أكثر الناس؟

---

(١) تفسير الخازن (٣/٣١٠)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٦).

قيل: لا يعلمون أن الأمر كله بيده، أو لا يفهمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه[1].

أو لا يعلمون هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة، شأنها أن لا تجهل؛ لأن عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره[2].

أو لا يعلمون أن الله تعالى غالب على أمره[3].

أو لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه وفعله لما يريد[4].

أو لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله، فمن تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله، وأن قضاء الله غالب[5].

أو لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه، وما إليه يصير أمر يوسف[6].

وهؤلاء الناس الكثير **قيل**: هم: أهل مصر، **وقيل**: أهل مكة المشركون، وقيل: الذين زهدوا في يوسف فباعوه بثمن خسيس، **وقيل**: الذين صَار بين أظهرهم من أهل مصر حين بيع فيهم[7].

---

(١) البحر المديد (٣/٣٦٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/٤٤).
(٣) بحر العلوم (٢/١٨٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/٥٧٦).
(٥) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/٨٨).
(٦) تفسير الخازن (٣/٢٧٢)، تفسير الطبري (١٥/٢١).
(٧) بحر العلوم (٢/١٨٧)، تفسير الطبري (١٥/٢١).

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٤٠].

تتحدث هذه الآية عن قول يوسف للفتيين: إن قومهم المشركين يعبدون معبودات باطلة، مبينًا أن الحكم في الخلق الذي أمر عباده أن لا يعبدوا إلا إياه، وأن ذلك هو الدين المستقيم، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فما هو هذا الشيء الذي لا يعلمه أكثر الناس هنا؟

قيل: لا يعلمون دلائل توحيد الله، فهم يتخبطون في جهالتهم[١].

أو لا يعلمون أن دين الله هو الإسلام[٢].

أو يجهلون الدِّين القويم الذي لا اعوجاج فيه، والحقّ الذي لا شك فيه، فلا يعلمون حقيقته[٣].

أو يجهلون حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك[٤].

أو ليس لهم علم بالحقائق، بل تسيطر عليهم الأوهام الباطلة، التي تخدع

(١) البحر المديد (٣/٣٨٥).

(٢) بحر العلوم (٢/١٩٣).

(٣) تفسير الطبري (١٦/١٠٦).

(٤) تفسير السعدي (ص:٣٩٨).

العقول فلا تعلم[1].

أو لا يعلمون لما لم يتفكروا فيه ولم ينظروا فلم يعلموا، ولو نظروا فيه وتفكروا لعلموا، وهذا يدل أن العقوبة تلزم - وإن جهل - إن أمكن له العلم به؛ فلا عذر له في الجهل إذا أمكن العلم به، أو علموا لكنهم لم ينتفعوا بعلمهم؛ فنفي عنهم العلم لذلك، والله أعلم[2].

والناس هنا هم أهل الشرك[3].

وأما الآية الثالثة فهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٦٨].

وتتحدث هذه الآية عن دخول أبناء يعقوب مصر من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم خشية عليهم من شر، ثم أثنى الله على يعقوب بالعلم والعمل بما علمه الله، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فما هذا الشيء الذي لا يعلمه أكثر الناس هنا؟

قيل: لا يعلمون سر القدر، وأنه لا ينفع منه الحذر[4].

أو لا يعلمون أنه لا يصيبهم إلا ما قدر الله تعالى عليهم[5].

---

(١) زهرة التفاسير (٧/٣٨٢٥).

(٢) تفسير الماتريدي (٦/٢٤٢).

(٣) تفسير الطبري (١٦/١٠٦).

(٤) البحر المديد(٣/٤٠٥).

(٥) بحر العلوم (٢/٢٠٢).

أو لا يعلمون مثل ما علم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم[(١)].

أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة[(٢)].

أو لا يعلمون أن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بذلك كما ينبغي.

أو لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة[(٣)].

والمعنى: أن الله أمر يعقوب - عليه السلام - بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم؛ فإن مراد الله تعالى خفي عن الناس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة.وعلم يعقوب - عليه السلام - ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما.فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمراً قدره الله وعلم أنه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.

وقد دل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بصريحه على أن يعقوب- عليه السلام- عمل بما علمه الله.ودل قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ بتعريضه على أن يعقوب- عليه السلام - من القليل من الناس الذين علموا

(١) اللباب في علوم الكتاب (١١/ ١٥٧)، تفسير البغوي (٤/ ٢٥٩).
(٢) الوجيز للواحدي (ص:٥٥٣).
(٣) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/ ١٤١).

مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب[1].

والناس هنا: المشركون[2].

وهذه الأقوال التي قيلت في تعيين موضوع ما يجهله أكثر الناس هي من اختلاف التنوع فلا تعارض بينها، بل هي تدخل في عموم ما لا يعلمونه في تلك المواضع الثلاثة، والله أعلم.

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٤).

(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/ ١٤١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٠).

الحُبُّ والبغض

المطلب الأول: الحُبّ:

التعريف:

لغة:

(حب) الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها: اللزوم والثَّبات، فالحُبّ والمَحبّة، اشتقاقه من أحَبَّه إذا لزمه، وأَحْبَبْتُ الشيء واسْتَحْبَبْتُهُ وحببته وأَحِبُّهُ، والحُبُّ اسم منه، فهو مَحْبُوبٌ وحَبِيبٌ وحِبٌّ بالكسر...[1].

اصطلاحًا:

الْحبّ: هُوَ عبارَة عَن ميل الطَّبْع فِي الشَّيْء الملذ[2]، أو ميل الطبع ما يراه أو يظنه خيراً[3].

وهو ثلاثة أنواع:

-حب للذة؛ كمحبة الرجل المرأة، والعكس.

-وحب منفعة؛ كمحبة شيء ينتفع به.

-وحب فضل؛ كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٢٦) المصباح المنير(١/١١٧).

(٢) الكليات (ص:٣٩٨).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن(١/٢٠٥).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (١/٢٠٥).

نافذة:

إن كلمة "حُب" كلمة جميلة مؤلفة من حرفين يحتويان على معانٍ رقراقة، ومشاعر دفاقة.إنهما حرفان تلتذ بهما اللسان، وتستريح لهما الأسماع، وتشتاق إليهما القلوب.حرفان يبنيان في القلوب مراكز للأمر والنهي، ليتحول الإنسان إلى ولوج مسالك ما كان يسلكها، وميولٍ ما كان يميل إليها.تكوّنت من هذين الحرفين كلمة من أجمل كلمات المعجم العربي، فظهرت قليلة المبنى، عميقة المعنى، تتنعم الشفتان بنطقها، وأسْرِ آخر حرفيها، كأنهما حينما تنطقان بهما تهديان للعالم قُبلة رائعة.

إن الحب أصل أصيل في هذه الحياة، فله حضور في كثير من شؤونها؛ "فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها، واتخذت إلى ربها سبيلا، وكان لها دون غيره مأمولا وسولا، وبها نالت الحياة الطيبة، وذاقت طعم الإيمان "(١).

لكن الناس مختلفون في مضمون هذه الكلمة العذبة؛ فمنهم من صرفها إلى أحسن الجهات، ومنهم من صرفها إلى أسوئها، فالمحبون كثير، وجهات حبهم عديدة؛ فهناك " محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأثمان، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن"(٢).

---

(١) روضة المحبين (ص:٣).

(٢) روضة المحبين (ص:٣).

وفي قصة يوسف عليه السلام حديث عن الحب ومقابله وهو البغض تنجلي فيها صور وأحوال عن هذين المتقابلين، وستناول الحديث عن ذلك ابتداء بالحديث عن الحب في قصة يوسف في النقاط الآتية:

أولاً: أنواع الحب في قصة يوسف:

في هذه القصة المباركة نجد أنواعًا من الحب: حب الأب ابنه والمتمثل في حب يعقوب يوسف، وحب المرأة الرجل، والمتمثل في حب امرأة العزيز يوسف، وحب الرجل الرجلَ للصفات المعنوية الفاضلة فيه؛ كحب الملك يوسف، فالأول حب رحمة، والثاني حب شهوة، والثالث حب فضل وتعظيم.

وهناك نوعان آخران في هذه القصة وهما: إيثار أهون الضررين على أشدهما وهو حب يوسف السجن على الاستجابة لمراودة امرأة العزيز، وإيثار المصلحة الدنيوية على تحمل بعض المشقات النفسية، وهو حب أبناء يعقوب الإتيان ببنيامين إلى مصر من أجل كيل الطعام وزيادته، وهذا حب منفعة.

وسنتحدث عن هذا كله في التفصيل الآتي:

١-حب يعقوبَ يوسفَ عليهما السلام:

الأولاد هم ثمرة الفؤاد، وفلذات الأكباد، وزينة الحياة الدنيا، **قال** تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[الكهف:٤٦].

وقد فطر الله الوالدين على حب الأولاد، والشفقة عليهم؛ لأن ذلك يعين على حفظهم، ويساعد على نموهم العقلي والجسمي والنفسي والعاطفي.وأي بيت لا يجد فيه الأولاد طعم الحب والعطف فإن ذلك يربي في نفوسهم الكراهية

والعُقد النفسية، والميل إلى الانتقام، وربما لعقوا رضابَ الحب والغرام من أفواه الحرام.

ولا ريب أن بعض الآباء قد يحب بعض أبنائه حبًا عظيمًا، خاصة إذا كانوا صغاراً، ففي مسند أحمد وصحيح ابن حبان بسند صحيح عن معاوية بن قرة، عن أبيه: أن رجلاً كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ابن له، فقال له: النبي صلى الله عليه وسلم: (أتحبه؟) فقال: يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (ما فعل ابن فلان؟) قالوا: يا رسول الله، مات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه: (أما تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة، إلا وجدته ينتظرك؟) فقال رجل: يا رسول الله، أله خاصة أم لكلنا؟ قال: (بل لكلكم).

وفي رواية للنسائي بسند صحيح: كان نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه فحزن عليه، ففقده النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (ما لي لا أرى فلانًا؟) قالوا: يا رسول الله، بُنَيُّه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن بنيه، فأخبره أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال: (يا فلان، أيما كان أحب إليك أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟) قال: يا نبي الله، بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي لهو أحب إلي قال: (فذاك لك).

وفي قصة يوسف نجد يعقوب عليه السلام يحب ابنين من أبنائه حبًا زائداً على سائرهم، وهما: يوسف وبنيامين، بل يخص يوسف بمزيد من ذلك.

وقد كان هذا الإيثار العاطفي ليوسف وأخيه على مرأى ومسمع من إخوته الذين لم يستطيعوا احتمال ذلك، ولا كتمان حقدهم منه، بل قدح ذلك زناد حنقهم، وأوقد في حشاياهم شدة البغض ليوسف وأخيه، والحكم على أبيهم بالخطأ الواضح لذلك، فنطقت ألسنتهم بما تفور به قلوبهم من هذه الحال التي يرونها فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٨].

ففي هذه الكلمة الناقدة لفعل أبيهم ذكروا ثلاثة أشياء: تفضيل أبيهم لأخويهم في الحب، كونهم جماعة وهو موجب تفضيل، لكن أباهم لم يعتمده في الحب، النتيجة النهائية وهي تخطئة أبيهم في زيادة حب يوسف وأخيه عليهم.

فهم يقولون: إن أباهم يفضلهما في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كَفَأَة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما؛ لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما، فقد كبر عليهم إقبال أبيهم يعقوب بكل وجهه وكل نفسه على هذا الابن الصغير وأخيه، الذي لم يبلغ أن ينفعه أو ينفع الأسرة بخدمة ولا حماية ولا غيرها من مواضع آمال الآباء في الأبناء، وإعراضه عنهم على قوتهم، وقيامهم بكل ما يحتاج إليه الأب والأسرة[(١)].

هكذا جمعوا الأدلة على استحقاقهم زيادة محبة أبيهم، وحكموا لأنفسهم في

---

(١) تفسير الكشاف(٢/٤٢١)، تفسير المنار (١٠/٢٠٥).

القضية بالمظلومية، وعلى أبيهم بالخطأ المبين! حيث : "اعتقدوا أن الحب للكفاية والمنفعة"[1].

ولم يشعروا أن والدهم الكريم عليه السلام معذور فيما صنع؛ وأعذاره منها هذه الأمور[2]:

أ-ما فضل يوسف وأخاه على سائر الإخوة إلا في المحبة المحضة، ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها، وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر والمرء معذور فيما لم يدخل تحته.

ب-صغر سنهما على إخوتهما، وقد كان بنيامين أصغر من يوسف، فكان يعقوب يحبهما بسبب صغرهما، وحب الصغير والشفقة عليه مركوز في فطرة البشر.

وقد نظم الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً، ومن ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري في قصيدته التي بعث بها إلى أولاده وهو في السجن:

وَصَغِيرُكُمْ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَإِنَّنِي ... أَطْوِي لِفُرْقَتِهِ جَوًى لَمْ يَصْغُرِ
ذَاكَ الْمُقَدَّمُ فِي الْفُؤَادِ وَإِنْ غَدَا ... كُفُؤًا لَكُمْ فِي الْمُنْتَمَى وَالْعُنْصُرِ
إن البنانَ الْخَمْسَ أَكْفَاءٌ مَعًا ... وَالْحَلْيُ دُونَ جَمِيعِهَا لِلْخِنْصِرِ

---

[1] البحر المديد (٣/٣٥٥).

[2] ينظر: البحر المديد (٣/٣٥٥)، المستقصى في أمثال العرب (١/٢٨٠)، تفسير البحر المحيط (٥/٢٨٣)، تفسير الخازن (٣/٢٦٥)، روح المعاني (١٢/١٩٠).

وَإِذَا الْفَتَى بَعْدَ الشَّبَابِ سَمَا لَهُ   حُبُّ الْبَنِينَ وَلَا كَحُبِّ الْأَصْغَرِ

ويحكى أَن هَوْذَة بن عَليّ الْحَنَفِيّ دخل على أبرويز فَقَال لَهُ: أَي أولادك أحب إِلَيْك؟ قَالَ: الصَّغِير حَتَّى يكبر، وَالْغَائِب حَتَّى يقدم وَالْمَرِيض حَتَّى يبرأ.

لكن بعضهم لم ير الصغر وحده عذراً في ذلك، حتى علل ذلك قائلاً: وفيه أن منشأ زيادة الحب لو كانت ما ذكر لكان بنيامين أوفر حظًا في ذلك؛ لأنه أصغر من يوسف عليه السلام، ومن المعلوم أن حب يوسف أعظم من بنيامين.ورجح الأمر التالي:

ج- إنما أحبه أكثر منهم لما رأى فيه من مخايل الخير ما لم ير فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، بحيث لم يصبر عنه، ولا لوم على الوالد في تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة.

٢-حب امرأةِ العزيز يوسفَ عليه السلام:

لقد اشترى عزيز مصر يوسف عليه السلام رقيقًا من أصحاب القافلة فبقي في منزله سنوات، ولما كان عليه السلام على جمال باهر، وظاهر آسر فقد فُتنت به امرأة العزيز، وقبل أن نتحدث نقدم بين يدي ذلك بعض القضايا المتعلقة بهذا الموضوع:

أ-فضل الجمال:

" **الجمال ينقسم قسمين**: ظاهر وباطن، **فالجمال الباطن**: هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده، وموضع محبته..وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة،

وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات؛ فإن المؤمن يعطى مهابة وحلاوة بحسب إيمانه فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه، وهذا أمر مشهود بالعيان؛ فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة، وإن كان أسود أو غير جميل، ولا سيما إذا رزق حظًا من صلاة الليل؛ فإنها تنور الوجه وتحسنه، وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل فقيل لها في ذلك! فقالت: إنها تحسن الوجه، وأنا أحب أن يحسن وجهي، ومما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر: أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه. **وأما الجمال الظاهر** فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي **قال** الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[فاطر:١].وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكراً؛ فإنْ شكره بتقواه وصيانتِه ازداد جمالاً على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه له شيئًا ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحًا وشينًا، وينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره..ولما كان الجمال من حيث هو محبوبًا للنفوس، معظماً في القلوب لم يبعث الله نبيًا إلا جميل الصورة، حسن الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا **قال** علي بن أبي طالب رضي الله عنه"(١).

---

(١) روضة المحبين (ص:٢٢١).

ب-جمال يوسف عليه السلام:

لقد كان ليوسف عليه السلام من الجمال الباطن والظاهر حظ وافر، يخلب به قلب من يراه، فكيف بمن يجالسه ويطيل معه الثواء، فـ" هؤلاء النسوة قطعن أيديهن لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام، وما تمكن حبه من قلوبهن، فكيف لو شغفهن حبًا..ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[يوسف:٣٢]، أي: هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته وهذا حسن منظره! ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[يوسف:٣٢]، أي: فمنع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره؛ فإنه في غاية العفة والنزاهة، والبعد عن الخنا"[1].

وقد تحدث نبينا صلى الله عليه وسلم عن جمال يوسف في ليلة المعراج فقال: (ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم إذا هو قد أعطي شطر الحسن)[2].

وعند البيهقي في دلائل النبوة: (ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله، قد فضل عن الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف).

---

(١) روضة المحبين (ص:١٤٤، ٢٣٤).

(٢) رواه مسلم.

وفي مستدرك الحاكم: عن أنس: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعطي يوسف وأمه[1] شطر الحسن)[2].

وبجمال يوسف تمثل الشعراء، **فقال** ابن عبد ربه:

يـا مَـن عليـهِ رداءُ البـأسِ والجـودِ ... من جودِ كفِّكَ يجري الماءُ في العودِ

لمَّـا تطلعـتَ في يـومِ الخمـيسِ لنـا ... والنـاسُ حولـك في عيـدٍ بـلا عيـدِ

وبادرتْ نحوكَ الأبصارُ واكتحلتْ ... بحسنِ يوسُفَ في محرابِ داودِ[3].

وقال الشاعر:

وأرغَـمَ أنـفَ البَيـنِ لُطْـفُ اشـتِمالِها ... عـليَّ بـما يُـربي عـلى كـلَّ مُنيـةِ

---

(١) يعني: سارة. الكامل في الضعفاء (٥/ ٣٨٥). أي: أم جده إسحاق عليه السلام.

(٢) قال ابن قتيبة: " إن الناس يذهبون في نصف الحسن الذي أعطيه يوسف عليه السلام إلى أن الله سبحانه أعطاه نصف الحسن، وأعطى العباد أجمعين النصف الآخر، وفرقه بينهم، وهذا غلط بين لا يخفى على من تدبره إذا فهم ما قلناه، والذي عندي في ذلك: أن الله تبارك وتعالى جعل للحسن غاية وحداً، وجعله لمن شاء من خلقه إما للملائكة أو للحور العين، فجعل ليوسف عليه السلام نصف ذلك الحسن، ونصف ذلك الكمال، وقد يجوز أن يكون جعل لغيره ثلثه، ولآخر ربعه، ولآخر عشره، ويجوز أن لا يجعل لآخر منه شيئًا". تأويل مختلف الحديث (ص:٣١٦).

وقال نور الدين الهروي القاري: " قد أعطي شطر الحسن، قال المظهر: أي نصف الحسن، أقول: وهو يحتمل أن يكون المعنى نصف جنس الحسن مطلقًا، أو نصف حسن جميع أهل زمانه، وقيل: بعضه؛ لأن الشطر كما يراد به نصف الشيء قد يراد به بعضه مطلقًا، أقول: لكنه لا يلائمه مقام المدح وإن اقتصر عليه بعض الشراح، اللَّهم إلا أن يراد به بعض زائد على حسن غيره، وهو إما مطلق فيحمل على زيادة الحسن الصوري دون الملاحة المعنوية؛ لئلا يشكل نبينا، وإما مقيد بنسبة أهل زمانه، وهو الأظهر". مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٧/ ٩٢).

وقال المناوي: "يتبادر إلى إفهام بعض الناس أن الناس يشتركون في الشطر الثاني وليس كذلك، بل المراد أنه أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا؛ فإنه بلغ النهاية، ويوسف بلغ شطرها". فيض القدير (٢/ ٢).

(٣) ديوان ابن عبد ربه (ص:٧٠).

بهـا مـثلَما أمـسَيتُ أصْـبَحتُ مُغرَمـاً وما أصبحتْ فيهِ من الحسنِ أمستِ

فلو منحتْ كلّ الوَرى بعضَ حُسنها خَـلا يوسُـفٍ، مـا فـاتَهُمْ بِمَزِيّـةِ[1].

ج-الميل الطبعي بين النساء والرجال:

لقد خلق الله تعالى في الذكر ميلاً فطريًا إلى الأنثى، وخلق كذلك في الأنثى الميل إلى الرجل؛ لأن هذا الانجذاب والحب سبب لإقامة الأسرة التي يقوم عليها المجتمع وتستمر بها الحياة.

ويزداد هذا الميل حينما يكون هناك جمال وحسن يأسر الناظر إليه، غير أن الإسلام ضبط هذا الميل في دائرة الحلال بشرائع حكيمة تضمن إفراغ ذلك الميل الفطري في قالبه المشروع؛ لأنه لو ترك الحبل على الغارب لفسدت الأرض، وحل الهلاك بأهلها.

ولقد وجدنا أن الجمال في المرأة من دواعي نكاحها، كما قال عليه الصلاة والسلام: (تنكح المرأة على إحدى خصال: لجمالها، ومالها، وخُلقها، ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك)[2].

وهذا مما يعجب الرجل في المرأة، وكذلك المرأة يعجبها ذلك من الرجل، وكذلك الجمال في الرجل مما يرغب المرأة فيه، فإذا نقص فقد تطلب الطلاق منه أو تخالعه؛ فعن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خُلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتردين عليه

(١) ديوان ابن الفارض (ص:٧٠).

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه.

حديقته؟) قالت: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة)[١].

قال ابن حجر: "وأخرج عبد الرزاق عن معمر قال: "بلغني أنها قالت: يا رسول الله، بي من الجمال ما ترى، وثابت رجل دميم"، وفي رواية معتمر بن سليمان عن فضيل عن أبي جرير عن عكرمة عن ابن عباس: "أول خلع كان في الإسلام امرأة ثابت بن قيس، أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، لا يجتمع رأسي ورأس ثابت أبداً، إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهًا. فقال: (أتردين عليه حديقته؟) قالت: نعم، وإن شاء زدته. ففرق بينهما"[٢].

د-فتنة امرأة العزيز بجمال يوسف عليه السلام وحبها له:

عاش يوسف عليه السلام في بيت العزيز حينًا من الدهر وامرأة العزيز ترقب ذلك الفتى العبراني الذي قد أُفرغ عليه الحسن إفراغًا، ومع كثرة المخالطة وطول الصحبة وتحديق النظر الطموع في روض مترع بالجمال الآسر؛ تمكن حب يوسف من قلبها حتى وصل شغافه، وأصبح حديث نفسها الذي لا يفارقها.

"فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة الحب تنمو حتى يفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن، ويلقي القلب

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري (٩/٤٠٠).

في التلف، والسبب في هذا أن الناظر التذت عينه بأول نظرة، فطلبت المعاودة كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أولاً لاستراح قلبه وسلم. وتأمل قول النبي: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس)[1]، فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر استفرغه، وإلا قتله ولابد"[2].

لقد غدا حبها يوسفَ ظمأً يعذبها حتى تبرده بنيل مأربها من محبوبها، وكذلك الحب بين الجنسين لا يمكن لجذوته أن تخمد حتى ينال به الوطر، فمتى ظفر المحب بحبيبه ونال منه حاجته ذهب وهج الحب المتقد.

وهكذا الفطرة الإنسانية، فإذا لم يكن هناك عفاف رادع ولا حلال ممكن فإن الحرام هو الطريق، أو البقاء في عذاب نفسي بين نيران الحب الملتهبة.

فلذلك أقدمت امرأة العزيز في خطوة جريئة على مراودة فتاها، متناسية حق سيدها، ومكانتها بين قومها لو كشف سرها، ولكن حينما غشى قلبَها وعقلها حبُّ يوسف لم تعد تعبأ بذلك كله.

غير أنها لم تكن تتوقع أن تجد لدى ربيب نعمتها مخالفة لهواها، وهو رقيقها، وشاب عزب، وهي امرأة حسناء طالبة في مكان خالٍ.

لكنها ألفتْ جبلاً من إيمان وأمانة لا يمكن أن تعمل فيه معاول المراودة؛ لأن خوف الله مانعُهُ، والوفاء بحق سيده حابسه عن ذلك الفعل المشين.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وهو ضعيف.

(٢) روضة المحبين (ص:٩٤-٩٥).

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ **قال** مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

لقد حاولت إنزاله من حصن عفافه فلم تقدر على ذلك؛ إذ يوسف يدفعها بكلامه، حتى إذا لم يُجِدِ دفعُ يوسف لها بالقول هرب منها نحو الباب، فتبعته حتى قطعت قميصه من خلفه، وهي في عنفوان شهوتها العارمة، فوافق ذلك وصولَ سيدها إلى الباب وكان ذلك فَرَجًا من الله عن يوسف، فتسربلت بجلباب العفة المزيف، واتهمت يوسف، ولكن الله أنجاه.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٥-٢٩].

لم يبق خبر هذه الحادثة رهين بيت العزيز، بل خرج منه إلى المدينة، فبلغ نساءها فلُمنَ امرأةَ العزيز على حبها فتاها ومراودتها له، فعلمت امرأة العزيز بذلك، فاحتالت لهن لتريهن محبوبها هذا ليعذرنها فيما فعلت.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ

فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٠-٣٢].

وقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: **الشغف**: الحب القاتل، وهو مرتبة من مراتب الحب، يقال: شغفة الْحُبّ: أَي: أحرق قلبه مَعَ لَذَّة يجدهَا، والشغاف **قيل**: هو حجاب القلب، **وقيل**: غلافُه، وهو جلدة رقيقة بيضاء تكون على القلب، وربما سُميت لباسَ القلب، **وقيل**: الشغاف: حَبة القلب وسويداؤه.

والمعنى: أن حبه خرق شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، أو أصاب حبه شغاف قلبها، كما تقول: كبَدَه إذا أصاب كبده، أو دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب، أو أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو: أن اشتغالها بحبه صار حجاباً بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة، فلا تعقل سواه، ولا يخطر ببالها إلا إياه، أو أن حبه وصل إلى سويداء قلبها.وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد، والعشق العظيم[1].

وفي هذا الموقف وصلت امرأة العزيز إلى غايتها من هذه الدعوة للنسوة، وهي أن يعذرنها في حب يوسف، فإذا حصل لهن هذا التعلق بيوسف وحبه بنظرة واحدة، فكيف يكون حال من هي معه في البيت وهو خليطها وجليسها؟!

٣-حب العناء الجسدي على معصية الله وخيانةِ رب النعمة:

لما رأت امرأة العزيز إصرار يوسف عليه السلام على تمنعه، ورفضه تلبية

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٥)، الكليات (ص:٣٩٨)، البحر المديد (٣/٣٧٨)، التبيان تفسير غريب القرآن (ص:٢٤٢)، النكت والعيون (٣/ ٣٠)، تفسير البغوي (٤/٢٣٦)، تفسير البيضاوي (٣/٢٨٤)، الكشاف (٢/٤٣٦)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/ ١٠١).

رغبتها هددته بالسجن عقوبة له على ذلك، فقارن يوسف عليه السلام عند ذلك بين الإجابة إلى طلبها الذي فيه معصية الله وخيانة زوجها، والفضيحة بين الناس، وبين دخول السجن الذي فيه عناء جسدي، لكن فيه سلامة من العصيان والخيانة وسوء السمعة، فقارن بين مصلحة بدنية تفضي إلى مفسدة دينية، ومفسدة بدنية تفضي إلى مصلحة دينية فرجح حب الثانية.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٢-٣٥].

فيوسف عليه السلام: "فضل السجن مع ما فيه من الألم والشدة، وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة على ما فيه من اللذة، ولكنَّ كرهه لفعل الحرام فضَّل عنده مقاساة السجن.فلما علم أنه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوبًا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر، كمحبة الشجاع الحرب.

فالإخبار بأن السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه"(١).

واسم التفضيل هنا ﴿أحب﴾" لا مفهوم له، أو على غير بابه كما يقال، فليس

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٥).

المراد أن ما يدعوني إليه محبوب عندي والسجن أحب إلي منه، وإنما معناه: أن هذين الأمرين إذا تعارضا وكان لا بد من أحدهما فالسجن آثر وأولى بالترجيح؛ لأن ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة، وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهن، فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن، فهو –أي: اسم التفضيل - من قبيل قول المحدثين في بعض الأحاديث الضعيفة: هو أصح ما في هذا الباب، يعنون: أقوى ما فيه، وإن كانت كلها غير صحيحة، بل هو كقوله الآتي: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يوسف:٣٩].

وقيل: يجوز أن يكون المراد من التفضيل ترجيح الأحب بمقتضى الإيمان، وحكم الشرع على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع؛ فإن الأنبياء والصلحاء كسائر البشر يحبون النساء، ويشتهون الاستمتاع بهن، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع، وشره الاعتداء على نساء الناس"[(١)].

" وفي قول يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ عبرتان: إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي. والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب صبا إلى الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين. ففي هذا توكل على الله، واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة... فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور،

(١) تفسير المنار (١٢/٢٤٥).

كما فعل يوسف عليه السلام اتقى الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس...ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنًا وثبوراً.فيوسف عليه السلام خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة، على الكرامة والعز وقضاء الشهوات، ونيل الرياسة والمال مع المعصية؛ فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس وترك الشهوة، والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة، على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن آذاه بالحبس والكذب.. "[1].

٤-حب المِلك يوسفَ عليه السلام:

رأى الملك رؤيا أهمته كثيراً، فجمع ملأه ليعبروها، لكنهم قالوا عاجزين: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾[يوسف:٤٤]، وكان أحد الفتيين اللذين كانا مع يوسف في السجن حاضراً، فذكر عند ذلك يوسف عليه السلام، فذهب إليه لتعبير رؤيا الملك، فعبرها للملك تعبيراً اطمئن إليه، فعرف

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٠-١٣٣).

من خلال ذلك التعبير علم يوسف، وعلم عظم قدره من إخبار ذلك الفتى عن محاسنه وفضله، فدخل حبه قلبه؛ فلذلك طلب الإتيان به فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

"يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلمًا وعدوانًا"(١).

فأبى يوسف عليه السلام الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة، فلما حصل ذلك **قال** الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾[يوسف:٥٤].

والمعنى: أجعله خالصًا لنفسي، أي: خاصًا بي لا يشاركني فيه أحد، وهذا كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه. وقد دل الملك على استحقاق يوسف - عليه السلام - تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه. وصبره على تحمل المشاق، وحسن خلقه، ونزاهته، فكل ذلك أوجب اصطفاءه"(٢).

"فتأمل أن الملك قال أولاً حين تحقق علمه: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٨٠).

أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فلما جاءه وكلمة قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فدل ذلك على أنه- أي: من كلامه وحسن منطقه- ما صدق به الخبر، أو أربى عليه؛ إذ المرء مخبوء تحت لسانه"[١].

قال الرازي: "وتقرير الكلام أن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه:

أحدها: أنه عظم اعتقاده في علمه؛ وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته؛ مال الطبع إليه.

وثانيها: أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته؛ وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج، بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم.

وثالثها: أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه؛ وذلك لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠]، وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة، مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء، وهذا من الأدب العجيب.

ورابعها: براءة حاله عن جميع أنواع التهم؛ فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجُرم.

وخامسها: أن الشرابي وصف له جِدّه في الطاعات، واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/٢٦٤).

وسادسها: أنه بقي في السجن بضع سنين، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان، فكيف مجموعها؛ فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه، وإذا أراد الله شيئاً جمع أسبابه وقواها"(١).

٥- حب أبناءِ يعقوب الإتيانَ ببنيامين إلى مصر:

أتت سنواتُ الجدب السبع على مصر ومن حولها كبلاد الشام، وكان يوسف عليه السلام قد قام بتدبيره الاقتصادي العظيم حينما ادخر لتلك السنين العجاف من سنوات الخصب، فأصبحت مصر حينئذ مقصد الممتارين، وقبلة المحتاجين.

فكان ممن وفد إليها: إخوة يوسف، فلما لقيهم عرفهم ولم يعرفوه، فطلب منهم القدوم بأخيهم بنيامين في المرة القادمة، ولحرصه على ذلك رغبهم بحسن ضيافته واستقباله، ووفائه الكيل لهم، وإعادة ما دفعوه إليهم في رحالهم، ورهبهم بأنهم إذا لم يجيئوا به فإنه لن يكيل لهم كرة أخرى، وهذا يسبب لهم مشقة شديدة في تلك السنوات الشديدة.

فلما رجعوا إلى أبيهم أخبروا بما لقوا من جميل لقاء عزيز مصر بهم وإكرامه لهم، وحدثوه عن طلبه والآثار الحسنة للموافقة، والعواقب السيئة للرفض.

وكانوا حريصين جداً على موافقة أبيهم لطلب العزيز، محبين العودة إلى مصر؛ لنيل كرامة العزيز بتكرار الكيل، وزيادة كيل بعير معه.

غير أن أباهم مازال جرح يوسف في قلبه يدمي، **لكنه وافق على ما يحبونه لثلاثة أمور:**

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٢٧).

١-شدة الحاجة إلى الطعام في ذلك الزمن الكالح، وهم لابد لهم من الميرة، وليس لهم جهة يقصدونها لذلك إلا بلد العزيز.

قال البغوي: "وفي القصة: أن الإخوة ضاق الأمر عليهم، وجهدوا أشد الجهد، فلم يجد يعقوب بداً من إرسال بنيامين معهم"(١).

٢-عظَّم يعقوب رغبته في حفظ الله، وتوكلَّه عليه توكلاً عظيمًا في حفظ ولده.

٣-أخذ الميثاق على أبنائه في حفظ بنيامين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف:٦٣-٦٦].

(١) تفسير البغوي(٢/٥٠٢).

المطلب الثاني: البغض:

أولاً: التعريف:

لغة:

(**بغض**) الباء والغين والضاد أصلٌ واحد، وهو يدلُّ على خلاف الحبّ، يقال: أبغَضْتُه أُبْغِضُه، وبغض الشيء بغضًا مقته وكرهه، فهو باغض وبغوض، والشيء مبغوض وبغيض، وتباغض القوم أبغض بعضهم بعضًا، والبغضاء: شدة البغض[1].

اصطلاحًا:

البغض هو: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، وهو ضد الحب؛ فإن الحب انجذاب النفس إلى الشيء، الذي ترغب فيه[2].

وقيل: عبارَة عَن نفرة الطَّبْع عَن المؤلم المتعب، فَإِذا قوي يُسمى مقتاً[3].

نافذة:

إن البغض نعت من نعوت النفس الإنسانية التي فطرت على قابلية الاتصاف به، غير أن هذا الانفعال الإنساني قد يكون محموداً؛ كبغض الذنوب، ومساوئ الأخلاق، والأعمال وسائر الشر، وقد يكون مذمومًا كبغض الطاعات وأعمال

(١) المعجم الوسيط (١/ ٦٤)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٢٧٣).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ١٠٥).
(٣) الكليات (ص:٣٩٨).

الخير، وبغض المسلمين الصالحين، وغير ذلك؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا تباغضوا)(١).

وهناك نوع ثالث من البغض وهو البغض الطبعي؛ كبغض أطعمة أو أشربة أو ألبسة معينة، أو غير ذلك.

وفي قصة يوسف عليه السلام نجد هذه الأنواع الثلاثة: البغض المذموم، والبغض المحمود، والبغض الطبعي، **على التفصيل الآتي:**

١-بغض إخوةِ يوسفَ عليه السلام:

حينما كان نبي الله يوسف عليه السلام متميزاً بخِلال عذبة، ومزايا كريمة على سائر إخوته حظي بزيادة حب أبيه له، مما ولّد الغيرة في قلوب إخوته، فحسدوه على تلك المنزلة، حتى ولد ذلك فيهم بغضه الشديد.

ولم يكن لديهم ما يستطيعون به تحمل ذلك التفضيل، وقبول ما يبدي أبوهم من الميل نحو أخيهم الصغير؛ فلذلك بدأ بغض يوسف ينمو في أفئدتهم يومًا بعد يوم، حتى خرج ذلك المكتوم على ألسنتهم.

ولا ريب أن البغض نار مضطرمة تتأجج في القلب ولا تسكن حتى تنطفئ بالانتقام من المبغَض؛ فلذلك بيّت إخوة يوسف الإضرار به، فعقدوا مؤتمراً سريًا بينهم، فكان لديهم من خيارات الانتقام من يوسف: القتل، الإلقاء في أرض مهلكة، ثم جاء واحد منهم بخيار آخر وهو: الإلقاء في غيابة الجب، وهو ما اتفقوا عليه ونفذوه بعد ذلك.

---

(١) متفق عليه.

وهكذا انتصر إخوة يوسف لبغضهم، فجنوا على أنفسهم، وعلى أبيهم، وعلى أخيهم.غير أن غايتهم من أبيهم التي تخلصوا من يوسف لأجلها في الظاهر لم يظفروا بها، بل ازداد أبوهم حبًا ليوسف بدوام الحزن عليه، وما لقوا من أبيهم غير النفرة وسوء الظن بهم.

٢-بغض امرأة العزيز مخالفةَ يوسف لها:

ملك جمالُ يوسف قلب امرأة العزيز حتى أسرها حبه والكلف به، وكانت ترجو من وراء ذلك أن يلبي رغبتها منه، لكنه لم ينلها غايتها السيئة من عفافه وأمانته.

فلما تترس عن شهوتها الجامحة بخوفه من الله تعالى أبغضت ذلك الفعل منه، فأرادت أن تنتقم لنفسها منه، فاتهمته بمراودتها، ثم ألقى به كيدُها في السجن بضع سنين.

وهكذا انتصرت لعشقها الذي وجد الصدود من المعشوق الطاهر الكريم، ودفنت أيام المودة السالفة بالانتقام لبغضها العارم، وأبرزت في يوسف عيبًا ليس فيه، وبه صار إلى السجن، وصدق الشاعر:

وَعين البغض تبرز كلَّ عيبٍ   وَعين الحبِّ لَا تَجِد العيوبا [١].

٣-بغض يوسف مقارفةَ الفاحشة:

يوسف الجميل في صورته كان أجمل منها روحه وقلبه؛ فإن جمال إيمانه وكريم أخلاقه كانا يحرسان حسنه الظاهر أن يراق في الحرام، ولو كان لسيدته التي

(١) ثمار القلوب (ص:٣٢٧).

أكرمت مثواه في بيتها، وأحسنت إليه هي وزوجها أيما إحسان.

ما كان ذلك الصبيح البهي الطلعة يتوقع أن يأتي عليه يوم تطلب منه سيدته المحسنة إليه ما يزري بالعفاف، ويخدش جدار الصيانة.

لكن ذلك اليوم قد أتى، فحصلت المراودة من امرأة العزيز، فأبغض يوسف عليه السلام ذلك الفعل الذي أرادته بغضًا شديداً، ونفر منه نفوراً عظيمًا؛ حفاظًا لحق الله، ولحق سيده، وحماية لنفسه الطاهرة أن يدنسها في وحل الفاحشة.

وكان يوسف يعي تمامًا عواقب بغضه لذلك الفعل المشين، لكنه لم يبال بذلك ما دام أنه أطاع الله تعالى، ولسان حاله: فليفعلوا ما شاءوا؛ فإن إرضاء الله تعالى بسخط امرأة العزيز خير من موافقتها وإسخاط العظيم العزيز.

فما أعظم ذلك البغض اليوسفي لِما حرم الله تعالى في تلك الظروف التي لا ينجو منها إلا رجل يتربع في آفاق الإيمان السامي.

٤-بغض يعقوب فراقَ بنيامين:

بقي يعقوب عليه السلام يحاول أن ينهنه حزنه على يوسف بأخيه بنيامين، الذي بقي هو الذكرى الحسنة لأخيه المفقود؛ فلذلك بقي رهين حرصه، ومرئي عينه؛ خوفًا عليه من إخوته المبغضِين.

لكن مرت السنون تلو السنين فأجدبت الأرض وقلّت الأقوات، إلا ما كان من مصر فقد أحسن يوسف الإدارة الاقتصادية لمواردها أيام الخصب، فادخر من ذلك لسنوات القحط، فأقبل الناس على مصر للميرة، فكان من أولئك الواردين إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم ولم يعرفوه، فأراد منهم الإتيان بأخيهم بنيامين

في المرة القادمة، فرجعوا إلى أبيهم فحدثوه برغبة العزيز، لكن أباهم لم يحب إرساله معهم إلى هناك أول الأمر، إلا إنه حينما قارن بين المنافع المرجوة والأضرار المتوقعة رجح المنافع؛ لكونها متأكدة الحصول، والحاجة إليها شديدة.

فأرسل معهم بنيامين على كره منه، ولسان حاله والعير ترحل بسلوته الأخيرة:

رحلــــتمُ بفــــؤاديْ في رحـــــالكمُ ... ولم أكــن راغبًــا في ذلــك الــسفرِ
رفقًــا بَنــيَّ بقلبــيْ في الرحيــل فــلا ... تُلقــوا عــليَّ ضِرامَ البــثِّ والكَــدرِ

المطلب الثالث: تأملات في هذين المتقابلين: الحب والبغض في هذه القصة:

من خلال التأمل في حديث قصة يوسف عن الحب والبغض نجد الآتي:

١-الحب الذي انتفع به يوسف عليه السلام هو حب الملك له؛ لأنه كان سبب عاقبته الحسنة بعد تاريخ من المحن والشدائد، وأما حب أبيه وحب امرأة العزيز فقد أضرا به؛ لكونهما كانا قاعدة انطلاق بلائه.

٢-رأينا في قصة يوسف أن إفراط الحب أدى إلى نتائج مؤلمة، وإفراط البغض أوصل إخوة يوسف إلى ما فعلوا به وبأبيه من البلاء.

ولقد جاء الإسلام بالدعوة إلى التوسط في الأمور؛ لأنه اعتدال لا يفضي إلى إفراط ولا تفريط، فقد أرشدنا رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى ذلك؛ فعن أبي هريرة رفعه قال: (أحبِبْ حبيبك هونًا؛ ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما؛ عسى أن يكون حبيبك يومًا ما)[1].

فقوله: (أحبب حبيبك هونًا ما) أي: أحببه حبًا قليلاً (عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما) فإنه (عسى أن يكون حبيبك يومًا ما) أي: ربما انقلب ذلك بتغيير الزمان والأحوال بغضًا، فلا تكون قد أسرفت في حبه فتندم عليه إذا أبغضته، أو حبًا فلا تكون قد أسرفت في بغضه فتستحي منه إذا أحببته. ذكره ابن الأثير. **وقال** ابن العربي: معناه: أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن؛ فقد يعود الحبيب بغيضًا وعكسه، فإذا أمكنته من نفسك حال الحب عاد بغيضًا كان لمعالم مضارك أجدر لما اطلع منك حال الحب بما أفضيت إليه من الأسرار.. **وقال** هدبة بن خشرم:

(١) رواه الترمذي والبيهقي وغيرهما، وهو صحيح.

وأبْغِضْ إذا أَبْغَضْتَ بُغْضاً مُقارِباً فإنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى أنتَ راجِعُ
وَأَحْبِبْ إذا أَحْبَبْتَ حُبّاً مُقارِباً فإنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى أنتَ نازِعُ[1].

وقد بوّب الإمام البغوي فقال: "القصد في الحب والبغض"

وساق بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: **قال** لي عمر بن الخطاب: "يا أسلم، لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، وَلا بُغْضُكَ تَلَفًا. قلت: وكيف ذاك؟ قال: إِذَا أَحْبَبْتَ فَلا تَكْلَفْ كَمَا يُكَلف الصَّبِيُّ بِالشَّيْءِ يُحِبُّهُ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلا تُبْغِضْ بُغْضًا تُحِبُّ أَنْ يَتْلَفَ صَاحِبُكَ وَيَهْلِكَ".

وقال الحسن: أحبوا هوناً، وأبغضوا هوناً، فقد أفرط أقوام في حب أقوامٍ فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا[2].

وقد علم الناس ما صنع إفراط الحب من البلاء بعشاق العرب الأوائل؛ كمجنون ليلى وكثير عزة، وما ذكره ابن القيم في كتابه: "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" من العبر والحكايات عن مصائب المفرطين في العشق؛ غنية لمن نظر فيه.

وأما إفراط البغض فقد ذكر الله في القرآن الكريم قصة ابني آدم في سورة المائدة، وبيّن فيها كيف قتل قابيل هابيل.

٣-وجدنا من النتائج المرّة على يعقوب عليه السلام من غلبة حب يوسف: كثرة البكاء، ودوام الأحزان، حتى وصل الأمر إلى العمى، **قال** تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ

(١) فيض القدير (١/١٧٦).
(٢) شرح السنة. للإمام البغوي(١٣/٦٥).

عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨٤].

ووجدنا من نتائج إفراط حب امرأة العزيز الذي قد وصل شغاف قلبها: الفضيحة، الألم النفسي، عدم الظفر بالمطلوب، تكدير النعمة، عدم مراعاة حق الزوج.

وأما نتائج البغض فوجدنا في إخوة يوسف: كسب الإثم، والتعدي على يوسف بإلقائه في الجب، والتفريق بينه وبين أسرته، وما تبع ذلك من محن، وعقوق أبيهم بسوء الظن وغلظة الخطاب، والتفريق بينه وبين حبيبه، وما تبع ذلك من بلايا.

وأما بغض امرأة العزيز مخالفة يوسف لها، فمن نتائج ذلك: اتهام البريء، وإدخاله السجن ظلمًا.

٤-رأينا أن أول ما انقدح زناد بغض إخوة يوسف يوسف: زيادة حب أبيهم له، وأول بلايا يوسف في مصر: زيادة حب امرأة العزيز الذي تحول إلى مراودة.

٥- وجدنا أن الصفات الحسنة الظاهرة ليوسف -عليه السلام- أوقعته في البلاء، وأن صفاته المعنوية الجميلة كانت سبب خروجه من السجن إلى التمكين في الأرض.

٦-لقد ترسخ حب يوسف في قلب امرأة العزيز حتى في حال غضبها عليه راعت ذلك الشيء المتمكن في قلبها حينما توعدته بالسجن أو العذاب الأليم: فـ" حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع؛ وذلك لأنها بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب؛ لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضًا أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك

ذكراً كلياً؛ صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم.وأيضًا قالت: ﴿إِلا أَن يُسْجَنَ﴾ والمراد أن يسجن يوماً، أو أقل على سبيل التخفيف، فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين؛ ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء: ٢٩]"[(١)].

٧- الحياة مع ملازمة التقوى والعز تجني لصاحبها من الثمرات ما لا يجنيه الاستجابة للشهوات والذل للبشر؛ فيوسف لو استجاب للمرأة لبقي رقيقًا في بيت العزيز ولا يعلم ماذا تكون حاله بعد ذلك لو مات سيده، ولو خرج من السجن حينما قال الملك: ﴿ائتوني به﴾ لخرج والتهمة مازالت موجودة، ولم يصر إلى المنزلة التي صار لها عند الملك بعد أن علم الملك علمه وحزمه وشرف نفسه.

٨-**قال** صاحب المنار: "ومن فوائد القصة : وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل، واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى، وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم مطلقًا، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء.وما كان يعقوب بالذي يخفي عليه هذا، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه.ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه ؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟ كلا.

دَلَائِلُ الْعِشْقِ لَا تَخْفى عَلَى أَحَدٍ كَحَامِلِ الْمِسْكِ لَا يَخْلُو مِنَ

(١) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/٩٨).

(٢)تفسير المنار (١٢/٢١٦).

الإيمانُ والكفر

المطلب الأول: الإيمان:

التعريف:

لغة: (**أمن**) الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها: سُكون القلب، والآخر التصديق.

والإيمان: مصدر آمَنَ يُؤْمِنُ إيماناً فهو مُؤْمِنٌ، واتَّفق أَهلُ العلم من اللُّغَويّين وغيرهم أَن الإيمانَ معناه التصديق[١].

غير أن بعض أهل العلم باللغة والشريعة قالوا: "إن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق.والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد"[٢].

وقال آخرون: "أكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة: التصديق، ولكن في هذا نظر! لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فإنها تتعدى بتعديها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه..ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت)؛ فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت)؛ ولهذا لو فسر (الإيمان) بـ(الإقرار) لكان أجود، فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق،

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/١٣٣)، لسان العرب (١٣/٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٦٣٨).

فتقول: أقر به، كما تقول: آمن به، وأقر له كما تقول: آمن له"[1].

شرعًا: عرف الإيمان بتعريفات عدة، **منها**: تعريف النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل حينما سأله فقال: (فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) [2].

وقال بعضهم: "الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالأركان"[3].

وقال الراغب الأصفهاني: "والإيمان يستعمل تارة اسمًا للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾[المائدة:٦٩]، ويوصف به كل من دخل في شريعته مقرًا بالله وبنبوته. **قيل**: وعلى هذا **قال** تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]. وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾[الحديد:١٩]. ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح: إيمان. **قال** تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[البقرة:١٤٣]، أي: صلاتكم، وجعل الحياء وإماطة الأذى من الإيمان"[4].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (٢/٢٢٩).

(٢) رواه مسلم.

(٣) الإيمان لابن منده (١/٣٤١).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (١/٤٩).

وقال ابن كثير: "**قال** ابن جرير:...والإيمان كلمة جامعةٌ للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[الانشقاق: ٢٥، والتين: ٦]، فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولاً وعملاً"[١].

فمن خلال التعريف السابق يتبين أن الإيمان المقبول[٢] لابد أن يكون جامعًا لقول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح، فإن فقد أحد هذه الأركان فهو إيمان مردود أو مدخول.

نافذة:

إن الإيمان بالله سبحانه وبما جاء عنه هو القضية الكبرى التي أمر تبارك تعالى عباده بها؛ حتى ينجوا في الدنيا والآخرة؛ ولذلك ذكرها الله تعالى كثيراً في القرآن الكريم، مبينًا حقيقة الإيمان وأركانه، وشروطه وواجباته، وفضله وثمراته، وأهله الذين تمكسوا به كيف كانت عاقبتهم، وما هو الثواب الذي أعده لهم.

وفي سورة يوسف عليه السلام وجدنا ذكر الإيمان حاضراً في بعض الآيات، وسنتحدث عن ذلك في النقاط الآتية:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٦٥).

(٢) قال بعضهم: "والإيمان على خمسة أوجه: إيمان مطبوع، وإيمان مقبول، وإيمان معصوم، وإيمان موقوف، وإيمان مردود؛ فالإيمان المطبوع هو: إيمان الملائكة، والإيمان المعصوم هو إيمان الأنبياء، والإيمان المقبول هو إيمان المؤمنين، والإيمان الموقوف هو إيمان المبتدعين، والإيمان المردود هو إيمان المنافقين". التعريفات (ص:٦٠).

أولاً: معنى الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧].

أي: "وما أنت بمصدق لنا، يقال: آمن لفلان بمعنى صدقه؛ ولذلك عدي باللام دون الباء[١]".

ثانيًا: ثمرات الإيمان وفضائله:

للإيمان ثمرات كثيرة وفضائل عديدة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذه العوائد الحسنة العاجلة والآجلة تشجع على الاتصاف به حتى ينال صاحبها ذلك الخير العظيم.

وقد وجدنا في قصة يوسف من ذلك:

١-الفوز بالثواب العظيم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يوسف:٥٦-٥٧].

فقد أخبر الله تعالى في الآية الأولى أنه مكن لنبيه يوسف من ولاية مصر، وبوأه فيها منزلاً ساميًا بعد شدائده التي مر بها، ثم بين في الآية الثانية أن ما أعده في الآخرة لعباده الذين اتصفوا بالإيمان والتقوى هو خير من الدنيا.

وأخبر تعالى أنه قد أصاب يوسف - عليه السلام - من الرحمة في أحواله في

(١) تفسير البغوي (٤/٢٢٢)، التحرير والتنوير (١٠/١٣٥).

الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولأجره في الآخرة خير من ذلك له، ولكل من آمن واتقى[1].

وفي هاتين الآيتين بين تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر، ومطيع وعاص، وأن المحسن لا بد له من أجره في الدنيا؛ فالأول في المشيئة، والثاني واقع لا محالة، ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله للذين آمنوا وكانوا يتقون.

وفي الآية إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين خيري الدنيا والآخرة[2].

وجاء التعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع؛ لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى فهي متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان[3].

وقال الماوردي: "﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ **فيه وجهان:**

أحدهما: ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا من أجر الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا منقطع.

الثاني: ولأجر الآخرة خير ليوسف من التشاغل بملك الدنيا ونعيمها؛ لما فيه من التبعة"[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٣).
(٤) النكت والعيون(٣/ ٥٣).

٢-الانتفاع بالقرآن الكريم؛ إذ الإيمان يدفع إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

فقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يعني: "ما كان هذا القول[يعني: القرآن] حديثًا يختلق ويُتكذَّب ويُتخرَّص، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، يقول: ولكنه تصديق الذي بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل والزبور، يصدِّق ذلك كله ويشهد عليه أنّ جميعه حق من عند الله وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يقول تعالى ذكره: وهو أيضًا تفصيل كل ما بالعباد إليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: وهو بيان أمره، ورشاده لمن جهل سبيل الحق فعمي عنه، إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، وعمل بما فيه، ينقذه من سخط الله وأليم عذابه، ويورِّثه في الآخرة جنانه، والخلودَ في النعيم المقيم، يقول: لقوم يصدِّقون بالقرآن وبما فيه من وعد الله ووعيده، وأمره ونهيه، فيعملون بما فيه من أمره، وينتهون عما فيه من نهيه"[(١)].

ثالثًا: قلة أهل الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣١٤).

يذكر تعالى أن محمداً رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس، وقد ظن رسول الله أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم بها يؤمنون، فلم يؤمنوا، فخالفوا ظنه، فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، أي: ليس تقدر على هداية من أردت هدايته.

والمعنى: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت؛ لعلم الله السابق بهم. ومثل هذه الآية في قلة المؤمنين وكثرة الكافرين: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾[الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات:٧١]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١](١).

رابعًا: الإيمان المردود:

إن الإيمان المقبول عند الله هو الإيمان الذي توفرت فيه ثلاثة أركان -كما تقدم معنا في التعريف-: الإقرار القلبي بكل بما يجب التصديق به، ومطابقة اللسان بالقول لذلك الإقرار، وعمل الجوارح وفق ذلك الاعتقاد والقول.

لكن هناك ناس ليسوا كذلك؛ فلهذا لم يقبل الله إيمانهم، فبقوا على كفرهم، **قال** تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٤١٧)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٣٤)، الوجيز للواحدي (ص:٥٦١)، بحر العلوم (٢/٢١٢)، تفسير الخازن (٣/٣٢٠)، تفسير القرطبي (٩/٢٧١)، أضواء البيان (١/٤٩١) (٢/١٧٥).

وهذه الآية تشمل صنفين من الكافرين:

الأول: مشركو العرب، فذهب أكثر المفسرين إلى أن معنى هذه الآية: أن أكثر الناس- وهم الكفار- ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته.

فالمراد بإيمانهم: اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شؤونهم، والمراد بشركهم: عبادتهم غيره معه، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[يونس: ٣١]، وكقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[العنكبوت:٦٣][(١)].

ومن شركهم أيضًا: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ويلكم قَدِ قَدِ [يعني: كفاكم] فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت"![(٢)].

---

(١) ينظر: أضواء البيان (٢/٢١٨- ٢١٩)، التحرير والتنوير (١٢/١٢٤)، النكت والعيون (٣/٨٧)، تفسير ابن كثير (٤/٤١٨).

(٢) رواه مسلم.

الثاني: المنافقون، **قال** الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً﴾[النساء: ١٤٢](١).

ويمكن أن يدخل في عموم الآية صنف ثالث، وهو: المشركون من المسلمين شركًا أصغر؛ بالحلف بغير الله، وتعليق التمائم، قال عليه الصلاة والسلام: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)(٢). وقال: (إن الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلة شِرْك)(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤١٨).

(٢) رواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما.

(٣) رواه الحاكم وابن حبان في صحيحه، وهو صحيح.

المطلب الثاني: الكفر:

التعريف:

لغة: (**كفر**) الكاف والفاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو السَّتْر والتَّغطية. يقال لمن غطّى دِرعَه بثوبٍ: قد كَفَر دِرعَه. ووصف الليل بالكافر؛ لستره الأشخاص، والزارع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما كما قال بعض أهل اللغة.

والكُفْر: ضِدّ الإيمان، سمّي لأنَّه تَغْطِيَةُ الحقّ. وكذلك كُفْران النِّعمة: جُحودها وسَتْرُها[1].

شرعًا: عرفه ابن حزم بأنه: "صفة من جحد شيئًا مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه، ببلوغ الحق إليه، بقلبه دون لسانه أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معًا، أو بعمل جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان"[2].

نافذة:

لا ينحصر الكفر بالجحود الاعتقادي، بل قد يكون الكفر حاصلاً بقول، أو بعمل، وإن لم يكن معه اعتقاد، وهذا معلوم في شريعة الإسلام.

ولهذا قال تعالى عن المستهزئين: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/١٩١)، مفردات ألفاظ القرآن(٢/٣٠٣)، لسان العرب (٥/١٤٤).

(٢) الأحكام لابن حزم (١/٤٥).

إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].مع أنهم طعنوا في رسول الله صلى الله عليه مزاحًا؛ يقطعون بمزاحهم ذلك عناء الطريق، كما قالوا!.

والكفر أيضًا قد يكون تكذيبًا، أو إباء واستكباراً، أو شكًا، أو إعراضًا، أو نفاقًا.

وفي ضوء سورة يوسف لاحظنا آيات تتحدث عن هذا الحكم الشرعي.

وسيكون حديثنا عن ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: ديانة أهل مصر في زمن يوسف عليه السلام:

كانت أسرة يعقوب عليه السلام أسرة صلاح وطهر، وكان يعقوب نبيًا ابن نبي ابن نبي؛ فلذلك امتد الخير في فروع هذه السلسلة الطاهرة.

وقد تربى نبي الله يوسف عليه السلام في هذا البيت الصالح فرضع توحيد الله تعالى من والديه، وترعرع على ذلك.

فلما ألقاه إخوته في الجب جاءت السيارة فباعته لعزيز مصر، فعاش هناك.

فما كانت ديانة أهل مصر في ذلك الوقت؟

من خلال ثلاثة أمور يمكن الإجابة عن هذا السؤال:

الأمر الأول: دعوة يوسف عليه السلام الفتيين في السجن إلى الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا

عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ۞ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٣٦-٤٠].

فنلاحظ من الآيات السابقة الآتي:

١-ذكر كثير من المفسرين: أن هذين الفتيين هما ساقي الملك وخبازه، غضب عليهما الملك فأمر بسجنهما.

٢-بدأ يوسف عليه السلام دعوة الفتيين بهذا التمهيد: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، وقد استفتح الأمر بذلك: "تمهيداً للدعوة، وإظهاراً أنه من بيت النبوة؛ لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه، والوثوق به"(١).

"وأراد بالقوم الذين لا يؤمنون بالله ما يشمل الكنعانيين الذين نشأ فيهم، والقبط الذين شب بينهم، كما يدل عليه قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾، أو أراد الكنعانيين خاصة، وهم الذين نشأ فيهم؛ تعريضًا بالقبط الذين ماثلوهم في الإشراك، وأراد بهذا أن لا يواجههم بالتشنيع؛ استنزالاً لطائر نفورهم من موعظته"(٢).

"**والترك**: عدم الأخذ للشيء مع إمكانه، أشار به إلى أنه لم يتبع ملة القبط مع

(١) البحر المديد (٣/٣٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٦٢).

حلوله بينهم، وكون مولاه متدينًا بها"[1].

وقال بعضهم: "الترك: عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات إليه بالمرة، وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلاً فيه ثم تركه ورجع عنه. والوجه الثاني -وهو الأقرب-: أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر، وجميع من عنده كذلك، وقد كان بينهم، وكان يوسف على التوحيد والإيمان الصحيح صح قوله: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾"[2].

"وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار: ديانة شرك، أي: تعدد الآلهة"[3].

٣-وفي قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ تعريض بمفارقة أهل الشرك الذين عاش بينهم.

٤-وفي قوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ إنكار عقلي لتعدد الآلهة، وأن الإله الواحد الذي يقهر غيره هو الذي ينبغي أن يعبد وحده، وهو تمهيد أيضًا بين يدي المصارحة بوقوع هذين الفتيين وقومها في الشرك.

٥-وفي قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تصريح واضح بوجود الشرك لدى الفتيين وقومهما، وحكم على تلك الإلهة بالبطلان، فهي: "مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٣).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ٢٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٥).

الحقيقة؛ فإنهم سموها آلهة وعبدوها؛ لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها، وليس لها من الألوهية إلا مجرد الأسماء، لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، وهذا كمن سمى قشور البصل لحمًا وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه، وكمن سمى التراب خبزاً وأكله يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز، بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم؛ فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه"[1].

الأمر الثاني: أمرُ امرأة العزيز بالاستغفار:

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩].

فقد أمر هذا القائل امرأة العزيز بالاستغفار، وقد اختلف المفسرون في معنى ذلك:

فمن قال: إنه الشاهد ذكر أن المعنى: سلي زوجك أن يغفر لك، وأن لا يعاقبكِ على ذنبك ويصفح عنك، ومن قال: إن القائل هو زوجها ذكر أن المعنى: توبي إلى الله.وعلى هذا القول الثاني يظهر أنهم لا ينكرون وجود الله، وإنما يشركون به كما تقدم في دعوة يوسف للفتيين، **قال** الرازي في تعليل القول الثاني: "لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان"[2].

الأمر الثالث: ذكر امرأة العزيز بعض مصطلحات الإسلام؛ كاسم الله ووصفه بالمغفرة والرحمة وعدم هدايته كيد الخائنين،وكون النفس أمارة بالسوء:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٢-٥٣].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤).

(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/ ١٠٠).

" وهذا يقتضي أن قومها يؤمنون بالله، ويحرمون الحرام، وذلك لا ينافي أنهم كانوا مشركين؛ فإن المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضًا. **قال** تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت: ٦١]، وكانوا يعرفون البر والذنب"[١].

إذاً: من خلال ما مضى يتبين: أن ديانة الملك وشعب مصر في ذلك الوقت كانت هي الكفر بالله تعالى بنوع الإشراك به، وليس الجحود له مطلقًا.

تبقى سؤال: هل أسلم الفتيان، أو الملك ليوسف عليه السلام؟

والجواب: لم يصرح لنا القرآن في قصة يوسف بذلك.

ولكن بالنسبة للمك فقد ذكر بعض المفسرين عقب تأويل يوسف رؤيا الملك هذا القول: "ولعل الملك قد استعد للصلاح والإيمان"[٢].

وذكر آخرون عن مجاهد أن يوسف" لم يزل يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلم الملك، وكثير من الناس"[٣]. والله أعلم.

ثانيًا: من صفات الكافرين في هذه السورة:

الأولى: اليأس من رحمة الله وفرجه:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

(١) التحرير والتنوير (١٢/٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٧٤).

(٣) تفسير البغوي (٤/٢٥٢)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٦).

والروح -بفتح الراء-: النفس- بفتح الفاء- استعير لكشف الكرب؛ لأن الكرب والهم يطلق عليهما الغم وضيق النفس وضيق الصدر، والمراد: فرج الله ورحمته، يقول: ولا تقنطوا من أن يروِّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفرَجٍ من عنده.

وإنما جعل اليأس من صفة الكافر: لأن سببه تكذيب الربوبية، أو جهلاً بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته، والكافرون يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها. ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك فحقه أن يأخذ في سببه، ويعتمد على الله في تيسيره[1].

الثانية: الإعراض عن كثير من آيات الله الدالة على وحدانيته:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف:١٠٥].

يقول جل وعز: وكم لله من علامة في السموات والأرض وعبرةٍ وحجةٍ- وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض-﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرُّون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربِّها، وأن الألوهةَ لا تنبغي إلا للواحد القهَّار الذي خلقها وخلق كلَّ شيء، فدبَّرها. و مرورهم على ما في السموات من الآيات: نظرهم إليها[2].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/ ١١٠-١١١)، تفسير البغوي (٤/ ٢٧١)، تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٢)، البحر المديد (٣/ ٤١٥)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٣١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٥)، بحر العلوم (٢/ ٢١٢)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨)، تفسير السعدي (ص:٤٠٦)، أضواء البيان (٢/ ٢٦٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٤).

الصِدّق والكذب

المطلب الأول: الصدق:

التعريف:

لغة:

(**صدق**) الصاد والدال والقاف أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشيء قولاً وغيرَه.من ذلك الصِّدْق: خلاف الكَذِبَ، سمِّيَ لقوّته في نفسه، ولأنَّ الكذِبَ لا قُوَّة له هو باطلٌ.

وأصل هذا من قولهم: شيءٌ صَدْقٌ أي: صُلْب.ورُمْح صَدْقٌ.ويقال: صَدَقُوهم القِتالَ، وفي خلاف ذلك كَذَبوهم.والصِّدِّيق: الملازم للصِّدْق.والصَّدَاق: صَدَاق المرأة، سُمِّيَ بذلك لقوّته، وأنَّه حقٌّ يَلزمُ.

والصِّدْقُ والكذب أصلهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلاً، وعداً كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأوّل إلّا في القول، ولا يكونان في القول إلّا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام، والصِّدْقُ: مطابقة القول الضّمير والمخبر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صِدْقاً تامّا[1].

اصطلاحًا:

الصدق هو: الإبانة عما يخبر به على ما كان،وقيل:مطابقة الحكم للواقع[2].

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٣٩)، المفردات في غريب القرآن (ص:٤٧٨).

(٢) التعريفات (ص:١٧٤)، الحدود الأنيقة (ص:٧٤).

ويمكن أن يقال في تعريفه هو: مطابقة القول الفعل، والخبر الواقع، والظاهر الباطن.

نافذة:

إن الصدق صفة حميدة تتحلى بها النفوس الشريفة، وتصل بالتمسك بها إلى الآفاق المنيفة، **قال** ابن القيم في الحديث عن فضله الصدق: "ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]: منزلة الصدق، وهي منزل القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه. ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم في الجنات تجرى العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[النساء: ٦٩] فهم الرفيق الأعلى ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩] ولا

يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا.ولهم مرتبة المعية مع الله؛ فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه؛ إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين "(١).

وفي قصة يوسف عليه السلام حديث عذب عن هذا النعت الكريم، والوصف الخلقي العظيم، وسنتحدث عنه في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الصدق في قصة يوسف:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الاسمية والفعلية:

ففي صيغة الاسمية جاء في صورتين:

الأولى: الوصف به على جهة المبالغة، **قال** تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...﴾[يوسف:٤٦].

والثانية: الوصف بلا مبالغة، بل بصيغة الفاعلية، **قال** تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧]، وقال: ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٢٧]، وقال: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١]، وقال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[يوسف:٨٢].

كما جاء ذكره بلفظ الإيمان؛ **قال** تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[يوسف:١٧].

وفي صيغة الفعلية جاء على صيغة الفعل الماضي، **قال** تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾[يوسف:٢٦].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٢٥٧).

ثانيًا: مشاهد الصدق في قصة يوسف:

وجدنا في هذه القصة المباركة من مشاهد الصدق الآتي:

١-صدق يوسف عليه السلام:

في هذه القصة شهدت لصدق يوسف عليه السلام ألسنةٌ كثيرة، وأحوال عديدة، وقد نُعت يوسف بأعلى رتب الصدق حينما جاءه رسول الملك **فقال** له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...﴾[يوسف:٤٦].

والصديق: أصله صفة مبالغة مشتقة من الصدق، والصدّيق: الكثير الصدق؛ ولذلك سُمّي أبو بكر صدّيقاً من صدق غيره؛ إذ مع كل تصديق صدق، فالمصدق بالحقائق صادق أيضًا، وعلى هذا سمي المؤمنون صديقين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾[الحديد:١٩]، وفعيّل للمبالغة والكثرة؛ مثل: الفسيّق والضلّيل والشرّيب والخِمّير ونحوها.

وغلب استعمال وصف الصديق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى؛ لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين.وقد قيل: إن الصديق هو من لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره، وقيل : الذي لا يخالف قاله حاله.

والصِّدِّيقُ: قيل: ي**قال** لمن لا يكذب قطّ، وقيل: بل لمن لا يتأتّى منه الكذب؛ لتعوّده الصّدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقّق صدقه بفعله.

وأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية.وهي كمال الانقياد للرسول صلى الله

عليه وسلم، مع كمال الإخلاص للمرسل.

والفرق بين الصادق والصديق: أن الصادق في قوله بلسانه، والصديق من تجاوز صدقه لسانه إلى صدق أفعاله في موافقة حاله لا يختلف سره وجهره، فصار كل صدّيق صادقاً، وليس كل صادق صدّيقاً.

وقول رسول الملك: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾: يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه أن يعظمه، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال، ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونعم ما فعل؛ فإن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم.

وسمى الرسول يوسف صديقًا: لما جرب من أحواله، وما رأى من مناقبه، مع ما سمع من تعبير رؤياه، ورؤيا صاحبه في السجن، فوقعت كما عبرها. وإنما وصفه بذلك عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطة يوسف- عليه السلام- في السجن [1].

فمن شواهد صدق يوسف:

أ-قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[يوسف:٢٦].

يعني: هي طالبتني بالمواقعة بها، لا أني أردت بها سوءاً كما قالت، وهي دعتني إلى نفسها، وطلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت.

---

(١) ينظر: تفسير الخازن (٣/٢٨٧)، المحرر الوجيز (٣/٢٥٩)، الكشف والبيان(٥/٢٢٧)، روح المعاني (١٣/٧٨)، النكت والعيون(٣/٤٣)، المفردات في غريب القرآن (ص:٤٧٩)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٢٥٨)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/١١٩)، البحر المديد (٣/٣٨٩)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٠)، التحرير والتنوير (١٢/٨٥،٧٢).

وإنما **قال** ذلك تبرئة لساحته، ودفعًا لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم، ولو لم تكذب عليه لما قاله؛ أدبًا وتكرمًا، ومع هذا التصريح إلا أنه لم يخاطبها بـ أنت راودتيني، ولا أشار إليها بذم، وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ والاستحياء في الخطاب الذي لا يليق بالأنبياء عليهم السلام، فأبرز الاسم في صورة ضمير الغائب تأدبًا مع العزيز وحياء منه؛ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول، ولا يهتك سترها، ولكن لما قالت هي ما قالت، ولطخت عرضه احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه، فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[1].

قال الرازي: "واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق:

فالأول: أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم، والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

والثاني: أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج، والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

والثالث: أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

---

(١) ينظر: البحر المديد (٣/٣٧٢)، تفسير أبي السعود (٤/٢٦٨)، بحر العلوم (٢/١٨٩)، تفسير الخازن (٣/٢٧٧)، تفسير البيضاوي(٣/٢٨٣)، روح المعاني (١٢/٢١٩)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٩٨).

الرابع: أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة، فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر، وذلك أيضًا مما يقوي الظن.

الخامس: أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح، بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر، ولو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح؛ فإن الخائن خائف.

السادس: قيل: إن زوج المرأة كان عاجزاً، وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة، فإلحاق هذه الفتنة بها أولى.

فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج، وتوقف وسكت؛ لعلمه بأن يوسف صادق، والمرأة كاذبة، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة، ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة وهو قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾"(1).

ب-قدُّ القميص من دبر:

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٦-٢٨].

لما سمع زوج المرأة قول المرأة وقول يوسف فرآهما قد " تعارضا في القول

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٩٩).

احتاج إلى شاهد؛ ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلها "[1].

والمعنى: وحكم حاكم من أهل المرأة بهذا الحكم القائم على القرينة الحسية فقال: إن كان قميص يوسف شق من قدامه فقد صدقت المرأة في قولها: إنه أرادها على نفسها؛ لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدّت قميصه، فيصح ما قالت، وهو من الكاذبين في تبرئة نفسه.

وإن كان قميصه شق من خلفه فقد كذبت المرأة في اتهامها له وهو من الصادقين في قوله بمراودتها له؛ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فقدت قميصه من ورائه.

والمطلوب إذا كان هاربًا فإنما يؤتى من قِبل دبره، فكان معلومًا أن الشق لو كان من قُبُل لم يكن هاربًا مطلوبًا. ولكن كان يكون طالبًا مدفوعًا، وكان يكون ذلك شهادة على كذبه.

فلما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، قَالَ: إن هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن يعني: صنيعكن؛ إن صنيعكن عظيم يخلص إلى البريء والسقيم والصالح والطالح. وفي هذه الآية دليل أن القضاء بشهادة الحال جائز.

وإنما قال: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ ليكون أولى بالقبول في حق المرأة؛ لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والإضرار، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل.

وسمي قوله شهادة؛ لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف-

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ١٧٢).

عليه السلام- على سيدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البينة؛ لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه؛ لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض. ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقًا وقع، وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص.

والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف - عليه السلام -.

وزيادة ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ بعد ﴿فَصَدَقَتْ﴾، وزيادة ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بعد ﴿فَكَذَبَتْ﴾ تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام.

والذي رأى قميصه قد من دبر وقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾، هو العزيز لا محالة. وقد استبان لديه براءة يوسف - عليه السلام - من الاعتداء على المرأة، فاكتفى بلوم زوجه بأن ادعاءها عليه من كيد النساء. فضمير جمع الإناث خطاب لها فدخل فيه من هن من صنفها بتنزيلهن منزلة الحواضر[1].

ج-شهادة امرأة العزيز والنسوة ببراءته:

وسيأتي ذلك في ذكر صدقهن في المشهد الثاني والثالث.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٩/ ١٧٢)، تفسير الطبري (١٦/ ٥٩)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٣-٣٨٤)، بحر العلوم (٢/ ١٨٩)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ٩٩)، التحرير والتنوير (١٢/ ٥١-٥٢).

٢-صدق امرأة العزيز:

لقد نطقت امرأة العزيز بالصدق في حق يوسف في مشهدين:

المشهد الأول: أمام نسوة المدينة؛ **قال** تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢].

أي: لما أظهرت امرأة العزيز عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال، فباحت لهن بأنها راودته؛ لأنها رأت منهن الافتتان به فعلمت أنهن قد عذرنها. والظاهر أنهن كن خلائل لها، فلم تكتم عنهن أمرها. وقد صرحت بذلك أيضًا؛ لأنها علمت أنه لا ملامة عليه منهن، وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته.

فامتنع يوسف من ذلك الفعل الذي طلبته منه طلباً للعصمة، فالمعنى: أنه امتنع امتناع معصوم، أي: جاعلاً المراودة خطيئة عصم نفسه منها. فامتنع. **قال** بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفي عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال.

والاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه: استمسك واستوسع الفتق، واستجمع الرأي، واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه[١].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(١٠٤/١٨)، التحرير والتنوير (٥٦/١٢)، تفسير الخازن (٢٨١/٣)، تفسير ابن كثير (٣٨٦/٤)، تفسير الكشاف (٤٤٠/٢).

المشهد الثاني: أمام الملك؛ **قال** تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

كانت امرأة العزيز حاضرة وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها، فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فالآن: اسم الزمان، وتقديمه للدلالة على الاختصاص، أي: الآن لا قبله؛ للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان كان زمن باطل وهو زمن تهمة يوسف - عليه السلام - بالمراودة، فالقصر قصر تعيين؛ إذ كان الملك لا يدري أي الوقتين وقت الصدق: أهو وقت اعتراف النسوة بنزاهة يوسف عليه السلام، أم هو وقت رمي امرأة العزيز إياه بالمراودة.

وحصحص: معناه: تبين الحق ووضح بعد خفاء، وثبت واستقر، **قال** أهل اللغة: ﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ معناه: وضح وانكشف، وتمكن في القلوب والنفوس، من قولهم: حصحص البعير في بروكه إذا تمكن واستقر في الأرض، وقيل: أصله مأخوذ من قولهم: حَصّ شعره إذا استأصل قطعه، فظهرت مواضعه ومنه: الحصة من الأرض إذا قطعت منها.

فالمعنى: أي: بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل وجهته.وفي هذا الفعل زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق مثل قوله: (كبوا، وكبكبوا).

والتعبير بالماضي: " حصحص" مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها الذي لم يسبق؛ لأنه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من المضي.

والحَقُّ: هو براءة يوسف عليه السلام مما رمته به امرأة العزيز. وإنما ثبت حينئذ لأنه كان محل قيل **وقال** وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع.

والمعنى: أقر الحق في مقره ووضع في موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطن، خصوصًا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز، ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت في ذلك، بل أرادت ظهور ما هو متحقق في نفس الأمر، وثبوته من نزاهته عليه السلام في محل النزاع وخيانتها.

وقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: طلبت إليه أن يمكنني من نفسه، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنه لم يراودني وهو صادق فيما قال ذلك اليوم حيث قال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

وهذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب، مطهراً عن جميع العيوب[(١)].

٣-صدق نسوة المدينة:

في التحقيق الملكي الذي أجراه الملك في شأن قضية تهمة يوسف نطقت النسوة بتبرئة نبي الله يوسف عليه السلام فقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[يوسف:٥١].

فقولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ مبالغة في النفي والتنزيه، وتعجب من نزاهته وعفته وهو أيضًا تنزيه له أن يعصيه؛ لأجل خوف الله.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢٢)، التحرير والتنوير (١٢/٧٧)، النكت والعيون (٣/٤٧)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢٣)، تفسير أبي السعود (٤/٢٨٤-٢٨٥)، بحر العلوم(٢/١٩٧)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢٣).

وقولهن هذا تبرئة ليوسف ولهن، أو لهن فقط.وتكون تبرئة يوسف في قولهن : ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ : من ذنب.

وقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾: يعني ما رأينا منه شيئًا من الفاحشة، ولم يكن له ذنب.فشهدن له بالبراءة من السوء على علمهن؛ لأنها شهادة على نفي، ولو كانت شهادتهن على إثبات لشهدن قطعاً، وهكذا حكم الله تعالى في الشهادات أن تكون على العلم في النفي، وعلى القطع في الإثبات(١).

٤-صدق إخوة يوسف:

تباين موقف إخوة يوسف في الكذب والصدق تباينًا عجيبًا، ففي مشهد جنايتهم على يوسف كذبوا في أول الأمر وآخره، كما سيأتي معنا في مطلب الكذب.

وفي مشهد استئذان أبيهم في أخذ بنيامين معهم إلى مصر صدقوا في أول القضية وآخرها.

أما صدقهم في حق بنيامين فقد صدقوا في قولهم : ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:٦٣]، وذلك حينما رجعوا من مصر وطلب منهم العزيز الإتيان ببنيامين، وإلا فلن يكيل لهم إن جاءوا بدونه.

وصدقوا في قولهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف:٦٥].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٧٦)، تفسير أبي السعود (٤/٢٨٤)، البحر المديد (٣/٣٩٣)، بحر العلوم (٢/١٩٧)، النكت والعيون (٣/٤٦).

وصدقوا في قولهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[يوسف:٧٣].

وصدقوا في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

وصدقوا في قولهم- حسب ما ظهر لهم وليس في ذات الأمر على الحقيقة-: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف:٨١].فهم لم يكذبوا بل صدقوا على ما رأوا، والإنسان حينما يخبر عن الأمر حسب ما ظهر له ولم يتبين خلافه لا يعد كاذبًا.بل إن من لغو اليمين عند الفقهاء: أن يحلف الإنسان على شيء أنه كذا ثم يتبين له خلافه، فلا يحنث في يمينه.فبنيامين لم يسرق، ولكن لما وجد الفتيان الصواع في رحله شهدوا بما رأوا.فكأنهم قالوا فيما نسبوه إلى بنيامين: " إنما هو شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى، وما كنا نعلم الغيب: هل ذلك حق في نفس الأمر أم لا؟ "(١).

وصدقوا أيضًا في قولهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[يوسف:٨٢].أي: وإنا لصادقون " فيما أخبرناك به، من أنه سرق، وأخذوه بسرقته "(٢).

وإن نسينا فلسنا ننسى أنهم قد صدقوا أيضًا في حق يوسف يوم قالوا: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[يوسف:٨].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٠٤).

المطلب الثاني: الكذب:

التعريف:

لغة:

(**كذب**) الكاف والذال والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الصِّدق. وتلخيصه أنَّه لا يبلُغ نهايةَ الكلامِ في الصِّدق. من ذلك الكَذِب خِلاف الصِّدق.

يقال: كذب كَذِباً وكِذْباً وكِذَاباً: أخبر عَن الشَّيْء بِخِلَاف مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْوَاقِع، وكذب عَلِيهِ: أخبر عَنهُ بِمَا لم يكن فِيهِ، وَكذب: أَخْطَأَ، يُقَال: كذب الظَّن والسمع وَالْعين والرأي وَالشَّيْء: لم يتَحَقَّق مَا يبْنى عَنهُ وَمَا يُرْجَى مِنْهُ، يُقَال: كذب الْبَرْق والطمع.

وَكذب فُلَانًا: أخبرهُ بِالْكَذِبِ، وَيُقَال: كذبه الحَدِيث، وَيُقَال: كذبت فلَانًا نَفسُه حدثته بالأماني الْبَعِيدَة، وَيُقَال: كذب نَفسه، وكذبته عينه أرته مَا لَا حَقِيقَة لَهُ[1].

اصطلاحًا:

من خلال التعريف السابق للصدق يمكن أن نعرف الكذب بقولنا:

هو: الإبانة عما يخبر به على خلاف ما كان، ويقال: مخالفة الحكم للواقع، ويقال: مخالفة القول الفعل، والخبر الواقع، والظاهر الباطن.

نافذة:

إن الكذب صفة ذميمة، وطريقة إنسانية غير مستقيمة، اتفق عقلاء الناس في

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/١٦٧)، المعجم الوسيط. (٢/٧٨٠).

كل زمان وكل أمة على ذمه، والتحذير من الحياة به.فالكذب مجمع " كل شر، وأصل كل ذم؛ لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة"(١).

قال بعض الشعراء:

وَمَـــا شَيْءٌ إِذَا فَكَّـــرْتَ فِيـــهِ ... بِأَذْهَـــبَ لِلْمُـــرُوءَةِ وَالْجَـــمَالِ

مِـنْ الْكَـذِبِ الَّـذِي لَا خَـيْرَ فِيـهِ ... وَأَبْعَـدَ بِالْبَهَـاءِ مِـنْ الرِّجَـالِ(٢).

وهذا ما وجدنا أثره على الحقيقة ونحن ندرس قصة يوسف؛ فكم جمع الكذب من الشر، وأوصل إلى الظلم والعداوات، وقطع الأواصر والصلات، وأذل من كان في هامة العز عظيما، وذم من كان بين الناس ممدوحًا كريما.

وسنتناول حديث قصة يوسف عن الكذب في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الكذب في سورة يوسف عليه السلام:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الاسمية والفعلية:

ففي قالب الاسمية جاء في **صورتين**:

الأولى: اسم الفاعل، **قال** تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[يوسف:٢٦]، وقال: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾[يوسف:٧٤].

الثانية: المصدر الذي هو بمعنى المفعول، **قال** تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[يوسف:١٨]، " والمصدر هنا بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي: مكذوب

(١) أدب الدنيا والدين (ص:٣٢١).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص:٣٢١).

كونه دم يوسف عليه السلام؛ إذ هو دم جدي، فهو دم حقًا، لكنه ليس الدم المزعوم"[1].

وفي قالب الفعلية جاء على صورتين أيضًا:

الأولى: الفعل الماضي المبني للمعلوم، **قال** تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾[يوسف:٢٧].

والثانية: الفعل الماضي المبني لما لم يسم فاعله، **قال** تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا...﴾[يوسف:١١٠].

ثانيًا: مشاهد الكذب التي تحدثت عنها قصة يوسف عليه السلام:

المتتبع لهذه القصة يجد من المشاهد التي حصل فيها الكذب الآتي:

١-كذب إخوة يوسف:

حينما قضت مؤامرة إخوة يوسف بالتخلص منه، وكان أبوهم لا يغيب نظره عنه؛ كان لابد عندهم لاستخراج يوسف من هذا التشبث الشديد من وسيلة، فاستعملوا الكذب لذلك، وعندما سيعودون وقد ألقوا يوسف في الجب سيستخدمون وسيلة أيضًا لتغطية جريمتهم، ولإقناع أبيهم بذهاب يوسف عنهم من غير عودة؛ فلذلك ركبوا مركب الكذب لتلك الغاية أيضًا.إذاً صار الكذب معبرهم في أول الأمر وآخره.

وفي ظني أنهم-وهم مقدمون على هذا الأمر الخطير- قد خططوا للقول الذي سيعتذرون لأبيهم به عن فقد يوسف عندما يرجعون، ولم يذهبوا إلى والدهم إلا والعذر قد دُبر بليل، فربما كان أكل الذئب هو العذر المتفق عليه وما

(١) التحرير والتنوير (١٢/٣٦).

زاد قول أبيهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ إلا تأكيداً، أو أنهم كانوا قد حددوا عذراً آخر، لكنهم رأوا أن أكل الذئب هو أمثل العذرين، والله أعلم.

والآن نأتي إلى تعداد كذباتهم المكشوفة:

١-فقد كذبوا في قولهم عن يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[يوسف:١١].

٢-وكذبوا في قولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢].

٣-وكذبوا في قولهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[يوسف:١٤].

" والمراد: الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إياه؛ لأن المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران "(١).

٤-ولما عادوا من المهمة الآثمة كذبوا في تباكيهم: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[يوسف:١٦].

"وقد أطلق[البكاء] هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي، وإنما اصطنعوا البكاء تمويهًا على أبيهم؛ لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد"(٢).

-وكذبوا في قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٤).

٥-وكذبوا في ادعاء أن الدم على القميص دم يوسف: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[يوسف:١٨].

وفي ضمن هذه السلاسل الكذبية كانوا يظنون أن أباهم قد عرف كذبهم؛ فلذلك قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧].

٦-وكذبوا على يوسف في مصر يوم قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[يوسف:٧٧].

"وإنما قالوا: فقد سرق أخ له من قبل بهتانًا، ونفياً للمعرة عن أنفسهم، وليس ليوسف عليه السلام سرقة من قبل"[(١)].

وهناك روايات تدعي سرقة يوسف، لكن تلك الروايات لا تثبت على عين الحقيقة، وليس فيها معتمد لدى المتأمل، وإن ذكرها بعض المفسرين، واعتذر بها عن قول إخوة يوسف هذا فيه كقولهم: إنه سرق في صغره صنمًا لجده أبي أمه!

"وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير.كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر؛ دفعاً للتهمة التي تحرجهم، وتبرؤاً من يوسف وأخيه السارق [يعني: في ظاهر الأمر]، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه! لقد قذفوا بها يوسف وأخاه!"[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٤).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٢٢).

٢-كذب امرأة العزيز:

لما فاجأ العزيز امرأته وهي في عنفوان مراودتها ليوسف ففتح الباب وإذا بها تطارد يوسف؛ لم تجد وسيلة للتخلص من ظن زوجها بها السوء إلا أن تكذب على يوسف عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥].

"هذا قولها لزوجها لتدفع الريبة عن نفسها بإلقائها على يوسف، ولو صدق حبها لم تفعل ذلك به، ولآثرته على نفسها، ولكنها شهوة نزعت ومحبة لم تَصفُ.

وذلك أنه لما اقترن شدة حبها بالشهوة طلبت دفع الضرر بالتكذيب عليه، ولو خلص من الشهوة لطلبت دفع الضرر عنه بالصدق"(١).

فكان رد يوسف على كذبها: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾" لأنها لما برأت نفسها بالكذب عليه احتاج أن يبرئ نفسه بالصدق عليها، ولو كفت عن الكذب عليه لكف عن الصدق عليها"(٢).

(١) النكت والعيون(٣/٢٧).

(٢) النكت والعيون(٣/٢٧).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الصدق والكذب التي تحدثت عنها قصة يوسف:

في هذه المشاهد المتقابلة نقف متأملين في بعض ما **فيها**:

١- ليس كل من زعم الخير يكون من أهله، ولا كل من وعدك بما تحب يفي لك به، ولا كل من أسبل الدموع يكون معذوراً أو مظلومًا؛ فكم مؤذٍ لك وصل إلى ذلك عبر خداع النفع والنصيحة، وكم خيانة أودت بعزيز لديك جاءتك عن الثقة بأصحاب الكلمات المعسولة، وكم دمعات ذرفتها عيون بين يديك ستجعلك تبكي بكاء يعقوب على إيذاء أهلها لك، وعلى انخداعك بها؛ فلا تصدق كل ناصح، ولا كل واعد، ولا كل دمعة، ولكن تثبت وتبصر حتى تعرف أين تضع ثقتك؛ فإن أبناء يعقوب قد قالوا لأبيهم في حق يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[يوسف:١١]، فضروا يوسف، وقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢] فضيعوه، وجاءوا إلى أبيهم: ﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:١٦] فبكى من فعلتهم حتى عمي!.

وَقَائِلَةٍ وَدَمعُ العَينِ يجرِي ... علَى الخدّينِ كالمَاءِ السَّكُوبِ
أتكذِبُ فِي البكاءِ وأنتَ خِلْوٌ ... قديماً ما جَسَرْتَ علَى الذُّنوبِ
قَميصُكَ وَالدّمُوعُ تَجُول فيهِ ... وَقلبُكَ لَيسَ بالقلبِ الكَئيبِ
نظيرُ قميص يوسُفَ حينَ جاؤوا ... عَلَى لَبّاتِهِ بِدَمٍ كَذُوبِ[1].

٢-تأمل في قول النسوة: ﴿ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ لم يقلن: ما راودناه، وإنما نفين عن يوسف وقوع السوء منه، ففي هذا حفظهن لسر امرأة العزيز؛ إذ لم يذكرنها، على

(١) ديوان أبي الشيص محمد (ص:١٧).

خلاف عادة كثير من النساء في البحث عن النجاة لأنفسهن بإيقاع غيرهن في الهلاك.

كما أن في هذا القول منهن درسًا في نفي أمر عن شخص بأن يقال: ما علمت عن فلان أنه كذا، ولا يقال: إنه ليس كذلك، فكان نفيهن لعلمهن بوقوع السوء منه، وليس النفي لذات الشيء.

٣-تأمل في جوابي يعقوب عليه السلام على نبأ فقد يوسف وعلى نبأ فقد بنيامين:

ففي يوسف **قال** لأبنائه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].وفي بنيامين قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

فاتفق الجواب في اتهام أبنائه بتزيين أنفسهم الشر لهم حتى أوقعوه بأخويهم، واتفق في وعده من نفسه بالصبر الجميل.لكن آخر الجوابين اختلفا:

ففي قضية يوسف قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فذكر جملة تدل على استعانته بالله في تحمل ما أصابه من سوء صنيعهم ومن كذبهم.

"والتعبير عما أصاب يوسف عليه السلام بـ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ في غاية البلاغة؛ لأنه كان واثقًا بأنهم كاذبون في الصفة، وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف عليه السلام ضراً، فلما لم يتعين عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالاً موجهًا؛ لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه، ويعقوب عليه السلام يريد أن ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفا كاذبًا.فهو قريب من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات: ١٨٠].

وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام لأنه علم تعذر ذلك عليه؛ لكبر سنه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك. وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف عليه السلام، فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف عليه السلام بدونهم، **ألا ترى** أنه لما وجد منهم فرصة **قال** لهم: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] "[١].

وفي قضية بنيامين قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فلما تناهى المصاب في قلب الرجل الصبور وبلغ أقصى مداه ازداد تفاؤله وعظم رجاؤه، وهكذا يكون حال المؤمن الصابر الواثق بربه الحسن الظن به؛ فإن الليل إذا طال آذان بالفجر، والحبل إذا اشتد أعلم بالقطع. **قال** ابن حزم: "إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها"[٢].

٤- لما كانت ثقة يعقوب بأبنائه مضطربة -بعد فعلتهم بيوسف- جاءت قضية بنيامين فحاولوا إقناع أبيهم بصدقهم -مع أنهم كانوا صادقين في الحقيقة- فاستعملوا لذلك عدة قرائن تثبت صدق مقالهم:

أ- بقاء أخيهم في مصر حتى يكون ذلك دليلاً على صدقهم، **قال** ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[يوسف:٨٠]: "أي:

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٣٨).

(٢) رسائل ابن حزم (١/٣٤٧).

تفريطكم في يوسف عليه السلام كان من قبل الموثق، أي: فهو غير مصدقكم فيما تخبرون به من أخذ بنيامين في سرقة الصواع. وفرع عليه كبيرهم أنه يبقى في مصر ليكون بقاؤه علامة عند يعقوب عليه السلام يعرف بها صدقهم في سبب تخلف بنيامين؛ إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبًا لولا خوفه من أبيه، ولا يرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق[1].

ب-قولهم الدال على مدى صدقهم وتثبتهم في الموضوع: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾[يوسف:٨١].

ج-طلبهم سؤال أبيهم أهل مصر وأهل القافلة التي كانت معهم، **قال** تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[يوسف:٨٢]. أي: سلهم: "عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا"[2].

د-قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، " وإنما أمرهم أخوهم الذي أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة في إزالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم؛ لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف"[3].

ومع هذا كله لم يستطع يعقوب دفع ما في نفسه من رسوخ كذبهم وتهمتهم؛ فلذلك لم يصدقهم عليه السلام؛ لماضيهم السابق، فظن بهم هذه المرة السوء" ومستنده في هذا الظن: علمه أن ابنه لا يسرق، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة. فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل. وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٠٤).

(٣) تفسير الخازن (٣/٣٠٧).

تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف عليه السلام "[١].

فقوله في قضية يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف:١٨] جملة وافقت الواقع، وقوله في قضية بنيامين: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف:٨٣] جملة لم توافق الواقع؛ وإنما بناها على ما عرفه منهم من كراهيتهم يوسفَ وأخاه، فبنى قولها على عهده من حالهم.

"**وقال** بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سُحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾"[٢].

٥-رأينا في هذه المشاهد تكذيب المتهم للصادق؛ تخلصًا من التهمة بالكذب على البريء كما فعلت امرأة العزيز مع يوسف، ورأينا تكذيب الصادق آخراً بسبب كذبه أولاً؛ إذ سيرة المرء الماضية الملطخة بالكذب تحمل على تكذيبه بعدها، إلا بقرائن قاطعة تنفي الكذب، وهذه القرائن القاطعة لم تقم لدى يعقوب حتى يصدق أبناءه الذين قد جرحوا فؤاده.

قال الماوردي- وهو يتحدث عن مضرة الكذب على الكذاب-: "ثم إنه إن تحرى الصدق اتهم، وإن جانب الكذبَ كُذِّبَ، حتى لا يُعْتَقَدُ له حديث يُصَدَّقُ، وَلَا كَذِبٌ مُسْتَنْكَرٌ! وقد **قال** الشاعر:

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٠٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٠٤).

إِذَا عُـرِفَ الْكَـذَّابُ بِالْكِـذْبِ لَمْ يَكَـدْ	يُـصَدَّقُ فِي شَيْءٍ وَإِنْ كَـانَ صَـادِقَا
وَمِـنْ آفَـةِ الْكَـذَّابِ نِـسْيَانُ كِذْبِـهِ	وَتَلْقَاهُ ذَا حِفْظٍ إذا كان حاذقا"[1].

٦-يوسف عليه السلام عظيم الصدق كما وصفه صاحبه في السجن عندما أرسله الملك، وقد بدا صدق يوسف في القصة في موضوعين: الأول: صدقه في براءته من المراودة، والثاني: صدقه في تعبير الرؤيا.

٧-يكاد المتهم أن يقول: خذوني؛ ففلتات لسانه واهتزاز مقاله، وحكاية تعابير وجهه تنمي عن كذبه؛ فإخوة يوسف ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾[يوسف:١١]، وقالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧]، فقليل من الفراسة والتدقيق يستطيع بهما صاحبهما فضح الكذاب المتزين بزي الصدق زوراً.

٨-قول إخوة يوسف في قضية بنيامين: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يتضمن قاعدة عظيمة في الشهادة؛ إذ لا يشهد المسلم على أمر بالظن، بل بالعلم القائم على الجزم والإحاطة.

٩-قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ هذا دليل على أنهم جردوه من قميصه؛ لكي يكملوا المشهد الأخير من فصول قصتهم الكاذبة ليصدقهم أبوهم!!!

١٠- لم يقل يعقوب عليه السلام لأبنائه: كذبتم، بل **قال** في الموقفين: "بل سولت".وهذا أدب عظيم.

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص:٣٢٧).

١١-كان أبناء يعقوب على ذكاء كبير في تأييد مواقفهم، وتقصي البحث في حشد الحجج لها؛ ففي موقف الصدق في قضية بنيامين عرفنا احتجاجهم المتعدد، وفي موقف الكذب في قضية يوسف جمعوا نوعي الكذب: الكذب القولي-وذكرنا تلك الأقوال-، والكذب الفعلي-الدموع، والقميص المخضب بالدماء-.

١٢-الكاذب لا يفلح في الوصول إلى تصديق الناس له دائمًا؛ كما رأينا في إخوة يوسف، وامرأة العزيز.

١٣- لقد كان يعقوب واثقًا بحياة يوسف، وبأن الذئب لم يأكله، وبأن إخوته كاذبون؛ ولذلك قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف:٨٣]، وأمرهم بقوله: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾[يوسف:٨٧].

فقد" صرح لهم بشيء مما يعلمه، وكاشفهم بما يحقق كذبهم ادعاء ائتكال الذئب يوسف عليه السلام حين آذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى، فقال: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، فجملة: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ لأن في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ما يثير في أنفسهم ترقب مكاشفته على كذبهم؛ فإن صاحب الكيد كثير الظنون﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[المنافقون: ٤]"[١].

١٤-أكثر المفسرين يذكرون أن إخوة يوسف لما جاءوا بقميصه جاءوا به وهو سليم غير ممزق، فكان مما استدل به يعقوب على كذب دعوى أكل الذئب له، حتى ذكروا أنه قال: "ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا! أكل ابني ولم يمزق عليه

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٤٥).

قميصه!"[1].

لكن هذا القول لم يرتضه بعض المفسرين؛ **قال** ابن عاشور: "ولا شك في أنهم لم يتركوا كيفية من كيفيات تمويه الدم، وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق مما لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنهم أفطن من أن يفوتهم ذلك وهم عصبة لا يعزب عن مجموعهم مثل ذلك.فما قاله بعض أصحاب التفسير من أن يعقوب عليه السلام قال لأبنائه: ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه، فذلك من تظرفات القصص "[2].

١٥-قد يقول قائل: لماذا لم يطالب يعقوب أبناءه بدليل آخر غير القميص؛ كبقية أعضاء من يوسف؛ إذ الذئب لو أكله لأبقى شيئًا من لحم أو عظم أو شعر، فما هذا الذئب الذي جرد يوسف من ثيابه ثم أرسله إلى بطنه إرسالاً واحداً بلحمه وشحمه وعظمه وشعره؟!

أجاب عن ذلك بعض المفسرين؛ **قال** البقاعي: "فكأنه قيل: هل صدقهم؟ فقيل: لا؛ لأن العادة جرت في مثله أنه لا يأكله كله، فلا بد من أن يَبقى منه شيءٌ يعرف معه أنه هو، ولو كان كذلك لأتوا به؛ تبرئة لساحتهم، وليدفنوه في جبانتهم مع بقية أسلافهم، وقد كان قادراً على مطالبتهم بذلك، ولكنه علم أنهم ما قالوا ذلك إلا بعد عزم صادق على أمور لا تطاق، فخاف من أن يفتح البحث من الشرور أكثر مما جاؤوا به من المحذور، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾"[3].

---

(١) البحر المديد (٣/٣٦١)، نظم الدرر (٤/١٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٣٦).

(٣) نظم الدرر (٤/١٧-١٨).

الحُزْن والفَرَح

المطلب الأول: الحزن:

التعريف:

لغة:

(**حزن**) الحاء والزاء والنون أصلٌ واحد، وهو: خشونة الشيء وشِدّةٌ فيه، فمن ذلكَ الحَزْن، وهو ما غلُظ من الأرض، والحُزْن معروف. والحَزن والحُزن: خشونة في الأرض، وخشونة في النفس؛ لما يحصل فيه من الغم، ويضاده الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خشنت بصدره: إذا حزنته، يقال: حزن يحزن، وحزنته وأحزنته.

والحُزْنُ والحَزَنُ: نقيضُ الفرَح، وهو خلافُ السُّرور، والجمعُ أَحْزانٌ، وقد حَزِنَ بالكسر حَزَناً وتحازَنَ وتحَزَّن، ورجل حَزْنانٌ ومِحْزانٌ: شديد الحُزْنِ، وحَزَنَه الأَمرُ يَحْزُنُه حُزْناً وأَحْزَنَه فهو مَحْزونٌ ومُحْزَنٌ وحَزِينٌ. وحزن الرجل حزنًا: اغتم، فَهُوَ حَزِن وحزين[1].

اصطلاحًا:

الحـزن هـو: الغـم الحاصـل لوقـوع مكـروه، أو فـوات محبـوب في المـاضي،

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٥٤)، لسان العرب (١٣/١١١)، المعجم الوسيط (١/١٧١)، مفردات ألفاظ القرآن(١/٢٢٩).

ويضاده الفرح.

وقيل: الْحزن: غم يلْحق من فَوَات نَافِع، أَو حُصُول ضار.

وقيل: الْخَوْف عِلّة المتوقع، والحزن عِلّة الْوَاقِع.

وقيل: هو: انخلاع عن السرور، وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت، أو توجع لممتنع. يريد: أن ما يفوت الإنسان قد يكون مقدوراً له، وقد لا يكون؛ فإن كان مقدوراً توجع لفوته، وإن كان غير مقدور تأسف لامتناعه[1].

نافذة:

إن الحزن ألم نفسي يجتاح سرور النفس فيذهبه أو يضيقه،ويكسو النفس كآبة وشدة تنكسر بها النفس عن أفراحها وارتياحها،وتفتر به عن حركتها ونشاطها.

وهو مرض ينبت في القلب بسبب خارج عن الجسد، وإذا استمر سقيه بدوام المواجع أورث آلامًا وأسقامًا تهد البدن وتؤذي أعضاءه.

وقد نهى الله تعالى عنه في كتابه فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[الحجر:٨٨]. وهذا ليس "بنهي عن تحصيل الحزن؛ فالحزن ليس يحصل بالاختيار، ولكن النهي في الحقيقة إنما هو عن تعاطي ما يورث الحزن واكتسابه، وإلى معنى ذلك أشار الشاعر بقوله:

مَنْ سَرَّهُ ألا يرى ما يَسُوءُهُ فلا يَتَّخِذْ شيئاً يُبالِيْ لهُ فَقدا"[2].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٧٧)، التعريفات (ص:١١٧)، الكليات (ص:٤٢٨)، طريق الهجرتين (ص:٤١٧)، مدارج السالكين (١/٥٠٨).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/٢٢٩).

وحينما كان الحزن كذلك غدا من الأقدار المؤلمة التي يؤجر عليها المسلم إذا صبر عنده ابتغاء وجه الله تعالى؛ **قال** النبي صلى الله عليه و سلم:(ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياه)(١).

وفي قصة يوسف عليه السلام بدا الحزن بصور ومواقف متعددة؛ أحيانًا بألفاظه ومرادفاته، وأحيانًا أخرى بما يحمله الموقف أو المشهد من ذهاب السرور وحلول المكروه.

وستتحدث عن الحزن **في قصة يوسف في النقاط الآتية:**

أولاً: صيغ ورود لفظ الحزن ومرادفاته في قصة يوسف:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الاسمية والفعلية:

ففي صيغة الاسمية **قال** تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]، **وقال** أيضًا: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[يوسف:٨٦].

وفي صيغة الفعلية جاء في قالب الفعل المضارع المؤكد **قال** تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾[يوسف:١٣].

وأما مرادفات الحزن اللفظية التي وردت في هذه القصة فهي: ثلاثة أسماء، وفعل مضارع واحد مجزوم.

فالأسماء هي: البث والأسف والكظم.

---

(١) متفق عليه.

ففي البث **قال** تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[يوسف:٨٦].

والبثُّ هو: الحُزْن، **وقيل**: أشدُّ الحزن وهو الذي لا صبر لصاحبه حتى يبثه ويشكوه[١].

وفي الأسف **قال** تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤].

والأسفُ هو: **الحُزْنُ**، **وقِيل**: أَشَدُّ الْحُزْنِ، أو المبالغة في الحُزْنِ[٢].

وفي الكظم **قال** تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨٤].

وكظيم هنا فيه **ثلاثة أقوال**:

١ -**كظيم**: فعيل بمعنى مفعول، أي: محزون، ومعناه: المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه، المصدور من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه كقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

٢ - **كظيم**: بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره، وجاء على هذه الصيغة للمبالغة وهو الظاهر اللائق بحال يعقوب أي : شديد الكظم كما قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ ولم يشكُ يعقوب إلى أحد، وإنما كان يكتمه في نفسه، ويمسك همه في صدره، فكان يكظمه أي: يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر، وإنما يتجه على تقدير أنه مليء بحزنه، فكأنه كظم حزنه في صدره.

---

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٥/١٦١)، الفائق في غريب الحديث (٣/٥٠)، لسان العرب (٢/١١٤) الإبانة في اللغة العربية (٢/٢٣٣).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/١٣٣٠)، تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/٢٣)، لسان العرب (٩/٥).

٣- **كظيم**: الكظيم: المكروب والمكمود، والكرب والكمد بمعنى الحزن.

وهذا كله متقارب[(١)].

وأما الفعل المضارع **فقال** تعالى: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩].

والابتئاس هو: الاكتئاب والحزن، يقال: ابتأس: اكتأب وحزن، والمُبْتَئِسُ: المِسكينُ الحزين[(٢)].

ثانيًا: مشاهد الحزن في قصة يوسف عليه السلام:

في هذه القصة العظيمة نرى مشاهد للحزن وهي كالآتي:

المشهد الأول: حزن يعقوب عليه السلام:

إني لأقضي نهاري بعدكمْ أسفاً ... وطولَ ليلي بتسهيدٍ وتعذيبِ

جَفنٌ قريح وقلب حشوُه حُرَقٌ ... فمن رأى يوسفاً في حزن

كان يعقوب عليه السلام فرحًا بين أولاده وهم جميعًا أمام ناظريه، مسروراً بأحبهم إليه، يسمع عن الحزن على الأولاد ولا يجده، غير أنه لم يدر أن الحزن الكبير ينتظر اللقاء به، حتى يحل في قلبه ولسانه وعينيه مدة من الزمن، يضيق بحلوله حاله، ويرجو أن لو قرب ارتحاله، ولكن لحكمة قدرها الحكيم الخبير

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/١٠٨)، المعجم الوسيط (٢/٧٨١)، البحر المحيط (٥/٣٣٣)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٥٦)، الكشاف (٢/٤٧٠)، المحرر الوجيز (٣/٢٨٠)، الإبانة في اللغة العربية (٤/١٢٠).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط (١/٣٦)، تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/٤٣٤)، لسان العرب (٦/٢٠).

(٣) ذيل مرآة الزمان (١/٢٢٨).

تطول بيعقوب الأحزان، وتثقل كاهله شدة وطأتها حتى يمن الله عليه بالفرح الذي يمحو ظلام تلك الأحزان الشديدة.

لقد صورت هذه السورة الكريمة الحزنَ وهو جاثم على صدر يعقوب وقد بدت عليه آثاره المؤلمة، وتجدد الحزن السابق بحزن لاحق، حتى غدا يعقوب "**يقال** له: ذو الحزنين[1].

كما نوعت السورة الحديث عن حزن يعقوب بألفاظ متعددة، وصيغ كلمية متنوعة، ولعظم ذلك التصوير الآخذ باللب، والمستولي على الشعور بأثره؛ أصبح حزن يعقوب مضرب المثل في الأحزان، فمَن عظُم حزنُه ذكرَ حزنَ يعقوب؛ كالمريض يذكر في سقمه مرض أيوب، **قال** الشاعر:

لها حُكْم لُقْمَانٍ وَصُورَةُ يُوسُفٍ ... وَنَغْمَةُ دَاوُدٍ وَعِفَّةُ مَرْيم

وَلِيْ حُزْنُ يَعْقوبٍ وَوَحْشَةُ يُونُسٍ ... وآلَامِ أَيُّوبٍ وحَسْرةُ آدَمِ[2].

وقال آخر:

حمامَ الأيك أسعِدْني ... فإني حِلفُ تَبريحِ

وحزني حزنُ يعقوبٍ ... فأبكي الصَبَّ أو نُوحي[3].

وقال آخر:

ويا لكَ من حزنٍ تجدّد عندنا ... به حزنُ يعقوبَ الذي كاد يُقلعُ[4].

(١) المحرر الوجيز (٣/٢٨٦).

(٢) تزيين الأسواق في أخبار العشاق (ص:١٨٧).

(٣) مطالع البدور ومنازل السرور (ص:٣٢).

(٤) ديوان ابن نباتة المصري (ص:١٢٠٧).

وسنأتي الآن للحديث المفصل عن حزن يعقوب في قصة يوسف عليهما السلام:

١-حزنُ يعقوبَ الأولُ:

كان يعقوب يعلم علمًا لا يشوبه شك مدى حقد أبنائه على يوسف، وشدة حسدهم له؛ فلذلك أضحى يخشى عليه منهم، حتى ظل ابنه الحبيب قريبًا منه فلا يأذن له بالذهاب مع إخوته منفردين إلى مكان بعيد عنه.

وكان أبناؤه يدركون ذلك، ولكن بحيلة مكسوة في الظاهر بالحب والإغراء والوعود-مع ما صحب ذلك من قدر الله السابق-؛ استطاع إخوة يوسف أن ينصرفوا به إلى مكان خالٍ ليس فيه عين يعقوب.

وكان أبوهم الكريم حينما طلبوا إرساله معهم قد أبدا لهم عذرين يمنعانه من الاستجابة لهم: عذر يتعلق به وهو حزنه على فراقه، وحزن يتعلق بيوسف وهو الخوف عليه من أكل الذئب له.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[يوسف:١٣].

أي: ذهابكم به يحزنني؛ لأنه يفارقني فلا أراه، والحزن هنا: ألم القلب بفراق المحبوب، والمعنى: يشق علي مفارقتُهُ مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفَرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد اعتذر لهم يعقوب **بشيئين**: **أحدهما** : عاجل في الحال، وهو ما يلحقه من

الحزن لمفارقته، وكان لا يصبر عنه. **والثاني** : خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو بقلة اهتمامهم بحفظه وعنايتهم، فيأكله ويحزن عليه الحزن المؤبد. وخص الذئب؛ لأنه كان السبع الغالب على قطره، أو لصغر يوسف فخاف عليه هذا السبع الحقير، وكان تنبيهاً على خوفه عليه ما هو أعظم افتراساً[(١)].

لكنّ توسلات أولاده وحرصهم الشديد على مطلبهم؛ قد ليّنت عريكته ليمضي فيه وفي يوسفه ما قدره الله تعالى في كتابه الأول قبل أن يخلق السموات والأرض.

لقد مضى أبناء يعقوب بيوسف على جناحي القسوة والحسد حتى أسلموه إلى جب حقدهم الأثيم، وأودعوا أباهم بعده في جب الحزن العظيم.

فقد رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بالخبر المؤلم الذي أكمده بعد سروره، وأروه قميص الحزن ملطخًا بدم يكاد ينطق بأنه ليس دم يوسف، بل متهم، وهو من نسبته إليه بريء.

فاستقبل سمعُ يعقوب خبر الحزن، وامتد نظره إلى قميص الكمد فقابل ذلك كله بالصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى، **قال** عز وجل: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

لقد بقي يعقوب بعد فقد يوسف يقلب صفحات الأيام الخالية متذكراً سروره الكبير وهو يلثم يوسف ويضمه بين يديه، وتتسع دنياه حينما يراه يعدو

(١) ينظر: الوجيز للواحدي (ص:٥٤٠)، تفسير أبي السعود (٤/٢٥٧)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧٣)، البحر المحيط (٥/٢٨٦)، تفسير الخازن (٣/٢٦٧)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/٧٨).

أمام عينيه فرحًا، وينتظر مستقبله المشرق الذي يتوسم فيه أن يكون فيه له شأن عظيم.

وبينا هو في رياض تلك الذكريات السعيدة إذ به ينتبه بغتة فيتذكر جريرة أبنائه فيحزن **حزنين**:

حزنه على مفارقة أبنائه للبر والرحمة والأخلاق الكريمة، فكيف يفعلون هذه الفعلة بأبيهم وأخيهم؟!

ويحزن حزنه الثاني على تفريقهم بينه وبين أحب أبنائه إليه، حتى أمسى تطوف به الأفكار في جنبات البسيطة ويقول في نفسه: يا ليت شعري أين حبيبي يوسف الآن؟ وكيف أحواله: هل هو في أمن أو خوف، في شبع أو جوع، في ري أو ظمأ، في برد أو دفء، أي حضن من أحضان هذه الحياة سيضمه بعد حضني، وأي قلب سيتسع له بعد قلبي، وأي شفاه ستبتسم له ابتسام الحب والرحمة بعد شفتيّ؟

نعم، لقد أمسى يعقوب عليه السلام يطوي في مخيلته تلك الأحوال فينطوي على قلبه حزن عميق لا يجد له سلوة إلا في الصبر الجميل، والثقة التامة بأن فقيده على قيد الحياة، ولكن كبر السن يحول بينه وبين البحث في الآفاق عن يوسفه، فلو أن له قوة أو يأوي إلى وثوق بإنسان لتعقب خطى يوسف،ولكن كما **قال** الأول:

"أَهُــمُّ بــأَمرِ الحــزمِ لَــو أَســتَطِيعُهُ		وقَد حِيلَ بينَ العَيرِ والنَّزوَانِ"[(١)].

٢-حزنُ يعقوبَ الثاني:

اشتدت نسعة السنين المديدة على عنق السرور في نفس يعقوب وهو مازال

(١) مجمع الأمثال (٢/٩٧).

في بوتقة الحزن اليوسفي، ولكن حبال الآمال بلقيا يوسف لم تزل متصلة متينة في نفس يعقوب.

وحينما نزلت بمصر والشام سنونَ الجدبِ بدأ بذر خصب النفوس يُلقى في أرض الحياة قبل أن يصل إلى أنفس أهل الحزن.

فجأ القحط بإخوة يوسف إلى مصر للميرة، وهناك التقوا بيوسف فعرفهم ولم يعرفوه، فحدثوه عن أبيهم وأخيهم الذي تركوه مع أبيهم، فطلب الإتيان به في المرة القادمة، فرجعوا إلى أبيهم فاستأذنوه في أخذه فإذن لهم بعد لأيٍ وميثاق غليظ.

فلما وصلوا مصر احتبس يوسف أخاه بنيامين عنده، ولعل ذلك بوحي من الله تعالى؛ حتى يتم ليعقوب عليه السلام الأجر الكبير على حزنه المترادف.

رجع أبناء يعقوب إلى أبيهم مشتملين بالحزن، فأخبروا والدهم خبر بنيامين.

فأي نبأ هذا الذي طرق سمع يعقوب؟

في هذه اللحظات بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحزن اليعقوبي، ونكأ هذا الحزن الجديد الحزن العتيق المتجدد الذي لم يندمل، فعظم الخطب، واتسع الجرح، وتتام الكرب الأليم.

ونادى منادي الكَرْبِ يا قلبُ قد أتى		جديدُك من حُزنٍ إلى حزن يوسفِ!

فما كان من يعقوب إلا أن يضيف سبب هذا الحزن الحاضر إلى سببه الغابر، ويتسع فؤاده أملاً بعودة أبنائه جميعًا فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

وبعد هذا الجواب المشحون بالحزن من أبنائه الحاضرين على أبنائه الغائبين، والمملوء باليقين برجاء رب العالمين؛ ينفتل الأب المكلوم بالحزن الدفين إلى عزلة يناجي فيها ربه، ويحتسي فيها كؤوس كمده المتراكم، ويهرق دموع الأسف الحارة التي استمر جريانها زمنًا، واشتد لهبها أمداً، فطفقت عيناه تتدفقان العبرات بحرارة حتى انطفأ البصر، وجعل يقول بعد إعراضه عن أبنائه: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨٤].

وذلك أن يعقوب عليه السلام لما بلغه خبر بنيامين تتامَّ حزنه وبلغ جهده، وتهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، وقال: يا شدة حزني على يوسف!

وإنما تأسف على يوسف دون أخويه؛ لأن محبته كانت أشد؛ لإفراط محبته فيه، ولأن مصيبته سبقت عليهما. والحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن، والقرح إذا وقع على القرح كان أوجع، **قال** الشاعر:

فَلَمْ تُنْسِنِي أوفى المصيباتِ بعدَهُ ولكنَّ نكأَ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ.

فما فتأ يبكي يعقوب حتى ابيضَّتْ عيناه من كثرة البكاء؛ فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر. فهو في تلك الحال مغموم مكروب يتردد الحزن في جوفه، ولكن لا يظهر حزنه بجزع أو شكوى[1].

نَحنُ من الدَّهْرِ فِي أَعَاجِيب فنسأل الله صَبرَ أَيُّوبِ
أقفرتِ الأَرْضُ من محاسنها فابكِ عَلَيْهَا بكاءَ يَعْقُوب[2].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٤/٢٦٧)، البحر المديد (٣/٤١٤)، تفسير أبي السعود (٤/٣٠١)، بحر العلوم (٢/٢٠٦)، الوجيز للواحدي (ص:٥٥٧)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/١٥٤).

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص:٥٥).

ولكن ذلك البكاء الطويل، والحزن الكبير لن يردا الغائب المحبوب، ولن يفرجا عن الثاكل المكروب.

فَـمَا يُـدِيمُ سُرورًا مَـا سُرِرتَ بِـهِ ولَا يَـرِدُّ عَليكَ الغَائِبَ الحَـزَنُ[١].

فلما طال انكفاء يعقوب عليه السلام في حضن حزنه الكبير ودمعه الحار الغزير، ورأى أبناؤه أثر ذلك عليه في فقد بصره؛ رقّوا له؛ فخافوا أن يصل به استمرار حاله الكئيبة إلى شدة المرض أو الهلاك فقالوا له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف:٨٥].

فلما سمع يعقوب ذلك منهم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].

يعني: إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي. وهذا معنى توليه عنهم، أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه.

وأصل البث: إثارة الشيء وتفريقه، وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر، **قال** ابن قتيبة: البث: أشد الحزن؛ وذلك لأن الإنسان إذا ستر الحزن وكتمه كان هماً، فإذا ذكره لغيره كان بثاً، فالبث: أشد الحزن، والحزن: الهم، فعلى هذا يكون المعنى: إنما أشكو حزني العظيم، وحزني القليل إلى الله لا إليكم، وأعلم أن الله سيردهم علي، ويقر عيني بالاجتماع بهم[٢].

---

(١) الدر الفريد وبيت القصيد (١١/١٨٦).

(٢) ينظر: الكشاف (٢/٤٧٠)، تفسير الخازن (٣/٣٠٩)، تفسير السعدي(ص:٤٠٤).

ويسدل ستار مشهد الحزن اليعقوبي وهو يفتح من بناء حزنه المطبق نافذة للأمل المطلق بالله رب العالمين، وهنا تنطفئ شمعة الحزن اليعقوبية بشروق فجر البشرى اليوسفية.

المشهد الثاني: حزن يوسف عليه السلام:

لم يقتصر الحزن على الأب الثكلان، بل قاسمه فيه الحبيب المفارَق يوسف عليه السلام، بل إن يوسف لم يتجرع حزنًا واحداً، وإنما أحزانًا متنوعة، على النحو الآتي:

١-حزن يوسف لغدر إخوته به:

لقد انطلق يوسف من عند أبيه الرؤف فرحًا، يتوثب سروراً إلى رياض متعته الموعودة التي سيرتع فيها ويلعب وينشط مع إخوته الذين أبدوا حرصهم على إسعاده بذلك.

خرج ويكاد جذله الكبير يسبق خُطاه القصيرة إلى تلك الأماكن التي سيجد فيها الراحة والفرحة.

غير أن هذه الأحلام السعيدة لم تبق طويلاً في ذهن الابن الصغير يوسف عليه السلام، فما هو إلا وقت يسير غابت فيه أشخاصهم عن نظر أبيهم وسمعه حتى خرجت كمائن الصدور، وبرز الحقد المستور، وقد ظفروا بحاجتهم، ووصلوا إلى مأربهم بعد زمن من الترصد والبحث، وكأنهم بلسان حالهم يقولون: "خَلاَ لَكِ الجوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي"[(١)].

(١) من أبيات لطرفة من العبد وهي: =

وفي تلك الحال نزل بيوسف من الحزن شيء عظيم، كيف يمكن لإخوتي أن يفعلوا بي مكروهًا، أو أن يمسوني بأذى وهم سندي وعضدي، وكيف جرأوا على مخالفة أبي، وماذا سيقولون له إذا رجعوا وقد أسلموني للضر؟

وَإِخْــوَانٍ حَـسِبْتُهُمُ دُرُوعًــا فَكَانُوهَــا، وَلَكِــنْ لِلْأَعــادِي
وَخِلْــتُهُمُ سِــهَامًا صَــائِبَاتٍ فَــصَارُوهَا، وَلَكِــنْ فِي فُــؤَادِي
وَقَــالُوا قَــدْ صَــفَتْ مِنَّــا قُلُــوبٌ لَقَدْ صدَقُوا، وَلَكِنْ مِنْ وِدَادِي[1].

ولعل لسان حاله يقول في تلك الحال التي أظلمت عليه آفاقه من عجبه لغدر إخوانه، وشدة كربه بهم: لو كانت يد الغدر يداً أجنبية لهان الخطب، ولو كانت تلك اليد الخائنة لم تظهر النصح، وتتعهد بالحفظ لصار الحزن أخف؛ فالحزن بشرِّ الخادعين أشد من الحزن بشر المعلنين.

فلم يُمهَل يوسف الصغير الذي وقع بين أشداقٍ تقطر بدم الحنق، ومخالب تلمع ببروق الشر؛ حتى ألقي غيابة الجب.

٢-حزن يوسف لفراق أبيه:

كان الحب العظيم يجمع بين يوسف وأبيه، ويسقيهما من معينه الدفاق معًا،

= يــا لــك مــن قنــبَرَةٍ بمَعْمَــرِ خَلاَ لَكِ الجوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي
وَنَقِّــرِي مَــا شِــئْتِ أن تُنَقِّــرِي قَدْ رَحَلَ الصيادُ عنك فابْشِرِي
وَرُفِــعَ الفَــخُّ فــمَاذَا تَحْــذَرِي لا بُدَّ من صيدك يوماً فاصْبِرِي

مثل يضرب في الحاجة يتمكن منها صاحبها. مجمع الأمثال (١/ ٢٣٩).

(١) ديوان ابن الرومي (ص:١٦٨٦).

فكما أن يعقوب شديد الحب ليوسف فكذلك كان يوسف يبادله الشعور نفسه، فلما جنى إخوته عليه هذه الجناية بالتفريق بينه وبين أبيه حزن لذلك حزنًا عظيمًا، خاصة وهو طفل صغير مازال يحتاج إلى رأفة أبيه وحبه، وهو أيضًا قد أسلم إلى مستقبل مجهول لا يدري أيموت فيه أم يحيا، وإن حيي فأي يد ستقوم عليه؟!

إن يوسف وهو في ذلك النأي البعيد يتجرع من كؤوس الحزن حزنًا على تلك اليد الأبوية الحانية التي كانت ترعاه، وتدفع عنه كل ما يضره ويخشاه، وتفضله في الحب على سائر إخوته، فها هي الآن قد حيل بينها وبين يوسف الذي وجد الحزن عليها، وحن حنينًا إليها.

غير أن هناك أحزانًا مازالت تنتظر يوسف لتعانقه قبل أن يصل إلى مثوى الإكرام.

٣-حزن يوسف لإلقائه في الجب:

ما كان يتصور يوسف عليه السلام أن تبلغ القسوة بإخوته إلى إلقائه في بئر قد يجد فيها الموت أو العناء على أقل تقدير، لكن هذا الشعور قد تبدد حينما وجد يوسف نفسه في أسفل البئر.

كان من حفظ الله تعالى له أنه لم يغرق، ولم يطل بقاؤه هناك، بل وصلت إليه يد الإخراج منه بتسخير الله لها لهذا العمل.

غير أن يوسف- وهو في ذلك المكان المظلم الموحش-قد بقي يقارع الحزن على ما حل به، ولعل أفكاره كانت تسبح به في مجاهل ما ينتظره من المكاره.

وفي بئره المظلمة بقي يستعرض شريط الذكريات، ويحاول تصديق ما فعل

إخوته به وبأبيه، وقد قطعوا على أنفسهم تلك الوعود بحفظه ورده.

غير أن عناية الله تعالى لم تتركه في حزنه ووحشته النفسية والجسدية؛ فقد قطعت عليه حبل أفكاره الحزينة بهذا التطمين الكريم الذي نزل على قلبه فمحا عنه غشاوة الحزن والخوف:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٥].

قال ابن كثير: "قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته، وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق_ تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له-: إنك لا تحزن مما أنت فيه؛ فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع "(١).

٤-حزن يوسف لبيعه رقيقًا:

منّ الله تعالى على يوسف بالخروج من البئر بعد أن قضى فيها مدة يعلمها الله تعالى، لكن اليد التي انتشلته لم تكن يد أمانة ورحمة، وإنما كانت يداً لا تعرف إلا مصلحتها الشخصية.

فلهذا بيع يوسف الكريم ابن الكريم بيع الرقيق، فأصبح بعد سيادته مولى، وبعد عزه المنيف في أسر الرق وذله، وأضحى الطفل المنعم المحاط بهالات الحب الأبوي في يد تاجر عبيد لا يريد من ورائه إلا كسب المال؛ فلذلك سيبيعه لمن يدفع الأكثر، ولا يهمه كيف سيعامل هذا الطفل الكنعاني.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٤).

فأحزن يوسفَ عليه السلام هذا المصير الذي آل إليه بعدما كان في منأى عنه.

وفي هذا المشهد يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[يوسف:١٩-٢٠].

وقبل أن نذكر تفسير هاتين الآيتين لابد أن نذكر اختلاف العلماء في مرجع الضمير في ثلاث كلمات وهي: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ و ﴿وَشَرَوْهُ﴾ و ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ لأن معنى الآيتين ينبني على ذلك.

أ-الخلاف في مرجع الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾:

اختلف العلماء في مرجع ضمير الفعل: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ إلى قولين:

القول الأول: أنه يعود إلى السيارة، وهذا فيه وجهان:

الوجه الأول: وأسرّه واردو الجب بعضهم من بعض، حيث أخفوا ابتياعه عن باقي أصحابهم، وتواصوا أنه بضاعة استبضعهم إياها أهل الماء؛ مخافة أن يشاركوهم فيه؛ لرخصه إذا علموا خبره.

قال الرازي: وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة: التقطناه شاركونا فيه، وإن قلنا: اشتريناه سألونا الشركة، فالأصوب أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر، قاله مجاهد، والسدي، واستظهره أبو حيان(١).

---

(١) ينظر: النكت والعيون (١٧/٣)، زاد المسير (١٩٥/٤)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(٨٥/١٨)، تفسير ابن كثير (٣٧٦/٤)، تفسير البحر المحيط (٢٩١/٥).

الوجه الثاني: أسره السيارة كلهم عن غيرهم، فأخفوا يوسف عليه السلام أي: خبر التقاطه؛ خشية أن يكون من ولدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردى في الجب، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم؛ لأنهم توسموا منه مخائل أبناء البيوت، وكان الشأن أن يعرفوا من كان قريبًا من ذلك الجب ويعلنوا كما هو الشأن في التعريف باللقطة؛ ولذلك كان قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ بأن يوسف عليه السلام أخبرهم بقصته، فأعرضوا عن ذلك طمعًا في أن يبيعوه.وذلك من فقدان الدين بينهم، أو لعدم العمل بالدين.ورجحه ابن عاشور، والواحدي[(١)].

القول الثاني: أنه يعود إلى إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكتموا أُخوّته، وأظهروا مملوكيته، وقطعوه عن القرابة إلى الرق، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع.

وقد كان إخوته بقرب الجب، فلما رأوا الوارد قد أخرجه قالوا: هذا عبدنا قد أوثقناه، فباعوه وأسرّوا بيعه بثمن جعلوه بضاعة لهم، قاله ابن عباس[(٢)].

الترجيح:

ويبدو أن الوجه الأول من القول الأول هو الراجح، وقد رجحه: الطبري، والرازي، والخازن وغيرهم.

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال بالصواب: قولُ من قال:" وأسرَّ وارد

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/٦)، بحر العلوم (٢/١٨٥)، التحرير والتنوير (١٢/٤٠)، الوجيز للواحدي (ص:٥٤١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/٨٥)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧٦)، أحكام القرآن لابن العربي (٥/٥٤)، النكت والعيون (٣/١٧).

القوم المدلي دلوَه ومن معه من أصحابه، من رفقته السيارة، أمرَ يوسف أنهم أشتروه، خيفةً منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضَعَها معنا أهل الماء؛ وذلك أنه عقيب الخبر عنه، فلأن يكون ما وليه من الخبر خبرًا عنه، أشبهُ من أن يكون خبرًا عمَّن هو بالخبر عنه غيرُ متَّصِل "[1].

ب- الخلاف في مرجع الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾:

اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾:

وقبل ذكر الأقوال لابد أن نعلم أن الفعل ﴿وَشَرَوْهُ﴾ من الأضداد تقول: شريت الشيء بمعنى: بعته، وشريته بمعنى اشتريته، **والاشتراء**: افتعال من الشري، وفعله شرى الذي هو بمعنى باع، كما أن اشترى بمعنى ابتاع، فاشترى وابتاع كلاهما مطاوع لفعله المجرد، أشار أهل اللسان إلى أن فاعل هذه المطاوعة هو الذي قبل الفعل والتزمه فدلوا بذلك على أنه آخذ شيئًا لرغبة فيه، ولما كان معنى البيع مقتضيًا آخذين وباذلين كان كل منهما بائعًا ومبتاعًا باختلاف الاعتبار، ففعل "باع" منظور فيه ابتداء إلى معنى البذل، والفعل "ابتاع" منظور فيه ابتداء إلى معنى الأخذ، فإن اعتبره المتكلم آخذاً لما صار بيده عبر عنه بمبتاع ومشترٍ، وإن اعتبره باذلاً لما خرج من يده من العوض عبر عنه ببائع وشارٍ، وبهذا يكون الفعلان جاريين على سنن واحد.

فإن كان هذا الفعل بمعنى باع ففي البائعين ليوسف قولان:

أحدهما: أنهم إخوته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن إخوة يوسف لما

---

(١) تفسير الطبري (٧/١٥).

طرحوا يوسف في الجب ورجعوا، عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم، فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا، فقالوا لهم: فبيعوه منا فباعوه منهم، وهو قول الأكثرين.

والثاني: أنهم السيارة الذين استخرجوه من البئر، قاله الحسن وقتادة.

وإن كان هذا الفعل بمعنى اشتروه فإنهم السيارة[1].

الترجيح:

الذي يبدو لي أن عودة الضمير إلى السيارة أولى؛ لكونهم أقرب مذكور، والله أعلم.

ج- الخلاف في مرجع الضمير في ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾:

اختلف المفسرون في هؤلاء الذين زهدوا في يوسف إلى قولين:

القول الأول: أنهم إخوته، وكان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين، لا يعلمون كرامته على الله، ولا يعرفون منزلته عنده، فهم مع ذلك يحبّون أن يحولوا بينه وبين والده؛ ليخلو لهم وجهه منه، ويقطعوه عن القرب منه؛ لتكون المنافع التي كانت مصروفة إلى يوسف دونهم، مصروفةً إليهم.

فهم زهدوا فيه؛ لأن مقصدهم زوال عينه لا المال منه، وليس مرجع الضمير للسيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه؛ إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب، ورفضه من اليد، وهذه

(١) ينظر: زاد المسير (٤/١٩٦)، التحرير والتنوير (١/٢٩٣-٢٩٤)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٨٦).

كانت حال إخوة يوسف في يوسف، وأما الورّاد فتمسكهم به وتَجَرُهم يمانع زهدهم إلا على تجوز، وهذا قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: أنهم السيارة، لا يرغبون فيها بأيديهم؛ فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس، وسبب ذلك:

١-أنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه، مستعجل في بيعه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن.

٢- أنهم كانوا لا يعرفون قدره فهم لذلك قليل اغتباطهم به.

٣-أنهم خالفوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى.

٤-وعلى القول بأنهم اشتروه من إخوته وقالوا لهم: إنه عبد آبق خائن، فقد زهد فيه السيارة خوفًا من ظهور سيده، فتخلصوا منه بالثمن الزهيد.

٥- ويجوز أن يكون معنى شروه: اشتروه من إخوته- على ما حُكي-، وهم غير راغبين في شرائه؛ خشية ذهاب مالهم؛ لكونه آبقًا.

٦- أنهم علموا أنه حر، فأرادوا التخلص منه بأقل الأثمان؛ خشية ظهور أهله، مثل ما يبيع اللص ما سرقه بأي ثمن.

وممن رجح هذا القول: ابن عاشور[1].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٧٧)، أحكام القرآن لابن العربي (٥/٥٥)، البحر المديد (٣/٣٦٥)، الكشف والبيان (٥/٢٠٥)، المحرر الوجيز (٣/٢٤١)، النكت والعيون (٣/١٩)، الوجيز للواحدي (ص:٥٤١)، بحر العلوم (٢/١٨٦)، تفسير أبي السعود (٤/٢٦١)، البحر المحيط (٥/٢٩٢)، تفسير البيضاوي (٣/٢٨٠)، تفسير الرازي : =

حيث قال: "وضمائر الجمع كلها للسيارة على أصح التفاسير"[1].

الترجيح:

الخلاف في الحقيقة قوي، وليس هناك حجة قاطعة لأي من القولين، إلا حججًا من روايات إسرائيلية في القول الأول، أو قرائن عرفت من واقع إخوة يوسف.

لكن لو نظرنا إلى السياق سنجد أنه يتحدث عن السيارة، وليس هناك ذكر لفظي لإخوة يوسف، فإرجاع الضمير لأقرب مذكور هو الأولى وهم السيارة.

وكما رجحنا سابقًا أن مرجع الضميرين الماضيين يعود إلى السيارة فكذلك نقول هنا؛ لأن توحيد الضمائر وعدم تنافرها وتشتتها أولى.

قال الزركشي: "إذا اجتمعت ضمائر فحيث أمكن عودها لواحد فهو أولى من عودها لمختلف"[2].

وقال السيوطي: "الأصل توافق الضمائر في المرجع؛ حذراً من التشتيت"[3].

معنى الآيتين على الترجيحات السابقة:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ

= مفاتيح الغيب (١٨/٨٧)، تفسير الطبري (١٦/١٥)، زاد المسير (٤/١٩٧).

(١) التحرير والتنوير (١٢/٤١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/٣٥).

(٣) لإتقان في علوم القرآن (٢/٣٣٨).

مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[يوسف:١٩-٢٠].

يقول تعالى مخبرًا عما جرى ليوسف، عليه السلام حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيدًا، فجاءت قافلة يمرون من قبل مدين إلى مصر فنزلوا بقرب البئر، فأرسلوا طالب مائهم قبل وصولهم؛ ليهيئ لهم الماء، فأرسل دلوه في البئر فتعلق به يوسف فخرج، فلما رآه صاحب الحبل فرح واستبشر ليبيعه عبداً فيربح به مالاً.

والمعنى: وجدت في البئر غلاماً- والغلام: مَن سنه بين العشر والعشرين-، فهو لقطة، فيكون عبداً لمن التقطه، وذلك سبب ابتهاجه.فأخفاه الوارد ومن معه عن باقي أصحابهم، وتواصوا أنه بضاعة استبضعهم إياها أهل الماء؛ مخافة أن يشاركوهم فيه؛ لرخصه إذا علموا خبره.

والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حق في استرقاقه، ومن كان حقه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم؛ لأنهم قد علموا خبره، أو كان من حقهم أن يسألوه؛ لأنه كان مستطيعًا أن يخبرهم بخبره.

ثم باع يوسفَ ذلك الواردُ ورفاقه بثمن ناقص قليل هو دراهم معدودة؛ كناية عن كونها قليلة؛ لأن الشيء القليل يسهل عدة، فإذا كثر صار تقديره بالوزن أو الكيل.**ويقال** في الكناية عن الكثرة: لا يعد.

وحال الوارد وأصحابه أنهم لم تكن لهم رغبة فيه، وإنما أرادوا التخلص منه بأي ثمن للأسباب التي ذكرناها في الخلاف.

والزهادة: قلة الرغبة في حصول الشيء الذي من شأنه أن يرغب فيه، أو قلة الرغبة

في عوضه كما هنا، أي: كان السيارة غير راغبين في إغلاء ثمن يوسف عليه السلام[1].

٥- حزن يوسف عليه السلام لفعل امرأة العزيز:

عاش يوسف عليه السلام في بيت العزيز حياة سعيدة مستقرة، كأنه فرد من أفراد تلك الأسرة الناعمة، غير أن من طبيعة الحياة الدنيا تقلب أحوالها، وعدم دوام أفراحها.

فقد كدر صفو تلك الحياة لدى يوسف طمعُ زوجة صاحب ذلك البيت بعفاف يوسف إرادةَ أن تنتهبه منه في ساعة يحضر فيها الشيطان.

خاصة وأن يوسف قد جمع بين قوة الشباب ورونقه، وقد كسي من مباهج الجمال ما أطمع تلك المرأة فيه.

فلما خلت به، وأرادت منه ذلك المراد البعيد المنال من تلك النفس الطاهرة النقية؛ تمنع منها أي تمنع، وحينما لم تنل مطلبها اتهمته أمام زوجها بإرادة السوء بها، ثم عرضته على صديقاتها من نسوة المدينة لتسعتين بهن بعد أن يعذرنها لما رأين من جماله.

ولكن محاولاتها لسرقة عفة الكريم باءت بالاعتصام الشديد بحصن الصيانة.

حينها انتقمت لنفسها فتمالأت مع أصحاب القرار على سجن يوسف فتم لها ما أرادت.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٣٨-٤١)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/١٣)، النكت والعيون (٣/١٨)، بحر العلوم (٢/١٨٤)، تفسير ابن كثير(٤/٣٧٦-٣٧٧)، تفسير الطبري (١٥/١).

ولهذه المواقف التي قامت بها امرأة العزيز من: مراودته، واتهامه، وسجنه، وتكدير تلك العيشة التي نعُم معهم فيها سنوات عدة؛ حضر الحزن يوسفَ لوقوع هذا المكروه به، وفوات محبوبه من البقاء نقي العرض من التهمة، ناعم الحياة في ذلك المنزل، وتحول الاتصال والمحبة والاحترام بينه وبين العزيز وامرأته إلى كراهية ونفور وانفصال.

وليس على الطاهر البريء أشد من تدنيس عرضه، والبهتان عليه؛ وفي حادثة الإفك ما يدلل على هذا، **قال** عائشة رضي الله عنها: (وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي قد بكيت ليلتين ويومًا، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي)[1].

لكنها أقدار الله ينقل بها عبده من محطة إلى أخرى، حتى يصل إلى قمة الفرح العظيمة بعد ذهاب محطات الترح الأليمة.

٦-حزن يوسف عليه السلام لسجنه ظلمًا:

أدخل يوسف عليه السلام إلى السجن بغير سبب يستأهل به دخوله إليه، غير عفته ونزاهته، وحفاظه على فراش صاحبه الذي أكرم مثواه.

فعانى في سجنه الحبس والضيق، وطول البقاء بين تلك الجدران الأربعة التي ضيقت حريته، وكدرت صفو عيشه، وألصقت به قالة السوء وهو مما رموه به بريء براءة الذئب من دمه.

فلهذا وجد يوسف من الحزن لذلك شيئًا عظيمًا، حتى أذن الله له بالفرج

(١) متفق عليه.

الكبير الذي لم يعد فيه إلى بيت العزيز تحت رحمته وإحسانه، بل صار إلى الولاية التي بلغ فيها رتبة العزيز وجاوزها.

المشهد الثالث: حزن امرأة العزيز:

كانت هذه المرأة حريصة على نيل بغيتها من يوسف، ولكنه لم يُنلها طلبتها، وبذلك الامتناع فاتها ما تحب، ووقع عليها ما تكره، فحزنت لذلك حزنًا عظيمًا، وقد كانت في شدة فرحتها يوم اقتربت من نيل منيتها التي لعلها انتظرت فرصتها طويلاً.

فلما وصل الأمر إلى هذه النتيجة المؤلمة لقلب تلك المرأة استولى عليها الحزن، وتحول إلى غضب ولَّد لديها اتهامه بالسوء، وتوعده بالسجن أو العذاب الأليم، غير أن زوجها في أول الأمر غض الطرف عن الموضوع فلم يعنفها، ولم يسجن يوسف، فشجعها ذلك على الإصرار في استمرار المراودة والتهديد، ولكنها رجعت منه بغير جدوى، فتضاعف حزنها، فاشتعل غضبًا عارمًا ليحصل الانتقام من يوسف بإلقائه في السجن.

غير أن امرأة العزيز بهذا الفعل لم تزد على أن قربت يوسف من مجده السامي المنتظر، فكما أن إخوته ألقوه في أولى مراقي هذه الغاية العالية بدافع الانتقام؛ فإن انتقام امرأة العزيز ومن معها أوصلوه إلى مرقاة أخرى، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المشهد الرابع: أحزان إخوة يوسف عليه السلام:

إن من تأمل في هذه القصة المباركة يرى أن أفرادها حصل لهم نصيب من

الأحزان على تفاوت بينهم في ذلك.

فإخوة يوسف أيضًا نالوا من ذلك نصيبًا في عدة مشاهد.

فحديث الحزن في هذه القصة يبدأ من حزنهم يوم رأوا أباهم يفضل يوسف وأخاه في المحبة عليهم، وهذا عدوه ضرراً عليهم فوّت عليهم مصالح من أبيهم، فكان هذا الحزن طريقًا للأعمال السيئة التي جرت بعد ذلك منهم.

وفي مشهد آخر لحزنهم نشاهدهم في مصر - بعد أمد طويل من الحزن الأول- وقد فرحوا بحسن علاقتهم بعزيز مصر الذي أوفى لهم الكيل وأكرمهم في النُّزُل؛ يرجعون إليه ببنيامين من عند أبيهم بعد طلب حثيث وعهد وثيق، فبينا هم قد فرحوا بالميرة وزيادة كيل بعير وقد أوشكوا على العودة؛ إذ بهم يسمعون المنادي يقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف:٧٠]، فلما سمعوا تلك التهمة برأوا أنفسهم، لكن التحقيق اقتضى البحث في الأوعية عن صواع الملك فبحثوا فيها حتى استخرجوه من وعاء بنيامين.

فلما رأى إخوته ذلك هبط عليهم الحزن من كل أفق، وأظلمت أمام فرحتهم كل الطرق، وإنما حزنوا لأن ما حصل سيمنعهم من الميرة، ويشوب علاقتهم لدى الملك.

ولم يقتصر حزنهم على هذا، بل امتد إلى فروع أخرى؛ فوجود الصواع في رحل أخيهم كان سببًا لصدور الحكم في حقه بأن يحبس في سرقته، ويُسْتَرَقّ للمسروق منه، وهنا تذكروا أباهم ومواثيقهم له، فبأي وجه سيرجعون إليه وقد خانوه في يوسف حتى فقده، واليوم سيرجعون إليه بفقد بنيامين؟ فساقتهم خطاهم المثقلة بالأحزان إلى استرحام العزيز

بشيخوخة أبيهم وكبره ليأخذ واحداً منهم بدل أخيهم، فأبى العزيز ذلك.

فرجعوا بعد ذلك إلى أبيهم مخلفين وراءهم أخوين لهم في مصر، غير أنهم حملوا من هناك حزنًا واسعًا كدر عليهم فرحتهم التي كانوا سيعودن بها إلى أبيهم.

فوصلوا إلى أبيهم وأخبروه خبر ما جرى فاشتد الأمر عليه حتى فقد بصره؛ بكاء وحزنًا، فحصل لإخوة يوسف من الحزن بوقوع هذه المكروهات المتتالية شيء عظيم.

المطلب الثاني: الفرح:

التعريف:

لغة:

(**فرح**) الفاء والراء والحاء أصل يدل على خلاف الحُزْن، يقال: فرح بكذا سُر وابتهج، وفَرِحَ يَفرَح فَرَحًا، فهو فَرِح، ومفراح، والمِفراح: نقيض المِحْزان، وهو الكثير الفرح، **قال** الشاعر:

ولستُ بمفراحٍ إذَا الدَّهرُ سرَّني		ولا جازعٍ منْ صرفهِ المتقلِّبِ[(١)]

اصطلاحًا:

الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة.

وقيل: هو: لذة في القلب لنيل المشتهى[(٢)].

وقال الكفوي: **السرُور**: هُوَ لَذَّة فِي الْقلب عِنْد حُصُول نفع أَو توقعه، أَو اندفاع ضَرَر، وَهُوَ والفرح والحبور أُمُور مُتَقَارِبَة[(٣)].

نافذة:

إن الفرح كلمة قليلة المبنى عظيمة المعنى؛ فهي حالة نفسية تعبر عن السعة

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٤٩٩)، المعجم الوسيط (٢/٦٧٩)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٨٢).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٨٢)، التعريفات (ص:٢١٣).

(٣) الكليات (ص:٥٠٨).

والابتهاج، والراحة والاطمئنان التي تغمر أنحاء النفس البشرية، وتُنيلها ما كانت ترجو، أو تصرف عنها ما كانت تخشى.

والفرح تلك الكلمة الناعمة التي تتشنف لسماعها الآذان، ويتسع بما تحتويه الجَنان.

والفرح روضة أنيقة، مكلَّلة بالمشاهد المسرِّة التي يأسر النفوسَ جمالها، ويسبي المرءَ عبيرها ورونقها.

والفرح واحة فيحاء، يتنقل فيها صاحبها فيجد في أرجائها ما يسعده ويبهجه، ويريحه ويعجبه.

والفرح غاية من الغايات الإنسانية، فكل إنسان عاقل يحب أن يكون فرحًا مسروراً، بعيداً عما يكدر نفسَه من الأحزان المِمِضَّة، والغموم المنغِّصة، والهموم المُقلقة.

إن الأفراح قوارب إنقاذ من تلاطم أمواج الحياة بالآلام والمكدرات التي إن لم تغرق راكب الحياة إلى أعماق الموت؛ فإنها توجعه وتفجعه، فتأتي المسرات حينئذ لتنشله من يد الفناء أو العناء، فيصحو على شاطئ السلامة فرحًا مسروراً.

غير أن الناس في هذا المطلب الإنساني يختلفون: فمنهم من يكون فرحه مشروعًا، ومنهم من يكون فرحه ممنوعًا، فمن فرح بعمل طاعة أو نيل غاية دنيوية مباحة؛ فهذا فرح مشروع، ومن فرح بمعصية أو وسائلها فهذا فرح محظور شرعًا.

ولا شك أن من أعظم أنواع الفرح: فرحًا يأتي بعد حزن، خاصة إذا طال زمن انتظاره، وحالت أسباب كثيرة دون الوصول إليه.

وفي هذه القصة المباركة سنشاهد أفراحًا متنوعة توزعت في أفراد هذه القصة الشيقة.

وسنتناول ذلك في المشاهد الآتية:

المشهد الأول: أفراح يعقوب عليه السلام:

عاش يعقوب عليه السلام في فصول هذه القصة مرافقًا للحزن الطويل، وكان حزنه لفقد يوسف أشد وأطول من حزنه على بنيامين، غير أن القصة ذكرت ثلاثة مشاهد من مشاهد الفرح لدى يعقوب عليه السلام:

١-فرحه بحب يوسف عليه السلام:

أحب يعقوب يوسف حبًا عظيمًا، وكان يجد السرور الكبير به، فهو سلوته التي تنسيه العناء، وابتسامته التي يزيح بضيائها دياجي الظلماء.

وما ذاك إلا لصغر يوسف وتحببه إلى أبيه، وبدو مخايل النجابة والفضل على وجهه وأفعاله، والأنبياء هم أفرس الناس وأعلمهم بسيماء الناس ودلائل أعمالهم.

وقد بقي يعقوب على نهار فرحه هذا حتى غابت شمسه في قميص الحزن، ودعوى صولة الذئب المفتراة.

٢-فرحه بقميص يوسف الثاني:

كان يعقوب عليه السلام على يقين بحياة يوسف، غير أنه لا يدري أين مثواه، ولا يعرف عن أحواله التي يعيش فيها شيئًا.

لكن الأمل مازال أمام طمعه باللقاء فسيحًا، حتى جاء ذلك اليوم الذي حملت رياحه ريح يوسف وأبوه قد بلغ من الحزن والكرب غاية بعيدة.

فحينما عرَّف يوسف نفسه لإخوته في مصر أمرهم بأخذ قميصه إلى أبيه ليفرحه به قبل اللقاء، وليمحو بقميص الفرح ذكرى قميص الحزن.

غير أن ريح القميص قد سبقت القميص وحامليه؛ شوقًا إلى إفراح يعقوب، وليتدرج به الفرح من الأدنى للأعلى؛ فريح القميص، فالقميص، فعناق صاحب القميص.

ففي يوم من أيام حزن يعقوب وكلُّه انتظار لأنباء مصر إذ بنسمة طيبة تحمل ريح قميص يوسف الذي مازال في الطريق إلى الوالد الحزين، فتصل إلى أنفه فيستيقظ من حزنه مشدوهًا فيقول لمن حوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤]، فيلومه من حضره على هذه الفرحة البعيدة عن الواقع في نظرهم.

فما هو إلا وقت غير بعيد وإذ بموكب الأفراح يصل من مصر يحمل بشائر تفرح يعقوب، بل تفرح الأسرة كلها.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٩٦].

كَأَنَّ كُلَّ سُؤالٍ في مَسامِعِهِ قَميصُ يوسُفَ في أَجفانِ

وصل البشير فألقى قميص يوسف على وجه أبيه فذهب عماه بشمه بإذن الله، ثم أخبر موكب الأفراح يعقوب بخبر يوسف في مصر وما صار إليه أمره،

(١) شرح ديوان المتنبي (٢/١٦٧)، يعني: إنه يفرح إذا سمع سؤال السائل فرح يعقوب لما رأى قميص يوسف.

فضم يعقوبَ الفرحُ، ونزع عنه الغم والترح، وودّع ألم الماضي واستقبل سرور المستقبل:

بكيـــــتُ حتَّـــــى لم أدَعْ عَـــــبْرَةً إذْ حَملـوا الهـودَجَ فَـوقَ القَلـوصْ
بُكـــاءَ يعقـــوبَ عـــلى يوسُـــفٍ حَتَّـــى شَـفى غُلَّتَـهُ بـالقَميصْ(١).

لقد حمل المبشرون من مصر ليعقوب بشائر لم يتسع لها قلب الفرح لعظمها، وبعد الذهن عن توقعها.

فيعقوب كان يتوقع حياة يوسف، لكنه ما كان يدور في خلده أن يكون هو عزيز مصر، وصاحب ماليتها ومنظم شؤونها الاقتصادية، وممير أولاده في أيام القحط.

وعلى قدر الحزن يكون الفرح فقد خلع يعقوب ثوب أحزانه، ولبس ثياب أفراحه، واستعد ليوم الفرح الكبير.

٣-فرحه بلقاء يوسف وابنيه العالقين في مصر:

طفق يعقوب وأبناؤه يستعدون للقاء الفرح العظيم بعد أن جاءهم وعد: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣]، فأجسادهم في الشام، لكن أذهانهم وأشواقهم قد سبقتهم إلى مصر تستقبل الأبدان المتبقية في أرض كنعان.

فتحرك الجمع المبارك من آل يعقوب إلى مصر، فاستقبلهم يوسف عليه السلام، فيا ليت شعري كم قدر فرحة يعقوب بذلك اللقاء الذي بقي يبحث عنه سنوات طويلة على قوارب الرجاء التي تسبح في مهراق دمعه الغزير، ومتاهات

(١) ديوان ابن عبد ربه (ص:١٤٨).

حزنه الكبير، وتعرج على معراج دعائه الكثير إلى الله تعالى!.

وحينما وصل يعقوب إلى مصر فرح أفراحًا متنوعة: فرح بلقاء يوسف ومقابلته، وما وصل إليه من عز الدنيا بالملك وعز الدين بالنبوة، وفرح بنجاة ولديه، وفرح بالحياة المستقرة التي حل فيها آل يعقوب في مصر، وفرح بعفو يوسف عن إخوانه، وتوَّجت تلك الأفراح اليعقوبية بتحقق رؤيا يوسف فخروا له سجداً، **قال** تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٩٩-١٠٠].

المشهد الثاني: أفراح يوسف عليه السلام:

١-فرحه بالخروج من البئر:

ظل يوسف في الجب منطويًا على حزنه وخوفه، منتظراً يد رحمة تنتشله مما هو فيه، وبينا هو غارق في غمه إذ برشاء يتدلى فعرف أنه حبل النجاة، فتعلق به مسروراً مستبشراً، فخرج من البئر والفرح يحيط به لإنقاذه، ورجاءِ عَوده إلى أبيه، لكن فرحه حينئذ لم يدم طويلاً، وتوقعه لم يصب هدفه؛ فاليد التي أصعدته من البئر ليس يد عطف وحب، بل هي يد تجارية لا تعرف إلا المال والمال فقط، فليس في قلوب أصحابها متسع لرحمة طفل يبحث عن أبيه فيرد إليه.

فترك يوسف فرحه على حافة البئر، واستقبل الفصل الثاني من فصول أحزانه.

٢-فرحه بخروجه من السجن وإعلان براءته:

في السجن حيث ظل يوسف تطوف به الأحزان بين الجدران عدة سنين؛ ويتذكر تلك المواقف السالفة التي امتحن بها، وينتظر اليوم الذي يفرح فيه بخروجه من ضيقه، وبراءته من تهمته؛ إذ برحمة من الله تنزل برؤيا يراها الملك فيقصها على ملئه يروم تعبيرها، فتستمر رحمة الله بيوسف حيث يعجز ملأ الملك عن تأويل رؤياه، ويهيئ الله برحمته أن يكون الفتى الناجي حاضراً في مجلس الملك فيتذكر يوسف ومعرفته التامة بتفسير الرؤى فيخبر الملك عن يوسف، فيلهم الله الملك أن يوافق على إرسال هذا الفتى إلى يوسف.

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف ينسج الله ليوسف ثوب النجاة والفرح بهذه الأسباب المتفرقة، حتى تجتمع فيصلُ ذلك الرسول إلى يوسف فيعبر يوسف رؤيا الملك على أحسن تعبير، فيعود ذلك الرسول فرحًا فيخبر الملك بتأويل رؤياه، فيسر الملك بذلك أيما سرور، فيطلب الإتيان بيوسف وإخراجه من السجن: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾، لكن يوسف- وهو الذي صنعت منه المحن والكروب رجلاً حازمًا حكيمًا- يعرف كيف يستقبل الأفراح بعقل وحكمة لا بطيش وخفة.

فلما جاءه البشير بهذه البشارة فرح بها، ولكنه أراد فرحة تامة لا فرحة منغصة بدنس تهمة تكدر عليه مسراته، وتضع من شأنه بين الناس.

فلذلك طلب من الرسول الرجوع إلى الملك ليحقق مع أولئك النسوة اللاتي ولج السجن بسببهن، وبقي ينتظر نتيجة التحقيق العادل من ذلك الملك العادل.

وفعلاً قام الملك بالتحقيق المطلوب فعُرفت به براءة يوسف مما رُمي به، وأنه

أدخل السجن ظلمًا، فندم الملك على ذلك كما قيل، فأمر بإخراج يوسف من سجنه بريئًا طاهراً قد نزعت عنه تهمة الباطل.

فخرج يوسف مسروراً لمفارقته السجن، ونقاء سمعته من تهمة المراودة.

غير أن يوسف لم ينفصل عن سجنه ليعود إلى بيت العزيز مولى فيه، بل خرج ليكون من خلصاء الملك، وأهل الفضل لديه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

بل صارت إليه وظيفة مهمة نفع بها الخلق، وكانت هي الخطوة الأولى التي وصل عبرها إخوته إليه.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٥-٥٦].

فوصل يوسف عندئذ إلى رأس هرم أفراحه الدنيوية، غير أنه كان ينتظر على قمته فرحًا واحداً وبه تتم فصول فرحه، وتزول عنه أول فصول ترحه.

٣-فرحه بلقاء إخوته ثم بلقاء أبيه:

قام يوسف عليه السلام بمباشرة وظيفته الجديدة أتم قيام، وأحسن فيها غاية الإحسان، فانتشر خبره وخبر الخير الذي يجري على يديه في الأرجاء وذلك في سنوات الجدب، فجاء الله بإخوته إليه لطلب الميرة، فلما رآهم عرفهم ففرح بذلك؛ لأنه سيعرف منهم خبر أبيه، ويسمع منهم ما حل به.

لكنه لم يعرفهم بنفسه وكأن ذلك بوحي من الله؛ حتى تمت آخر فصول البلاء، ثم عرفهم بعد ذلك بنفسه، وطلب مجيء أبيه.

فوصل أبوه وإخوته وجميع آل يعقوب إلى مصر، وهناك تم فرح يوسف واكتمل سروره.

ولنتصور حال يوسف ذلك الفتى الذي انتزع من حضن أبيه كرهًا، وبينهما من علاقة الحب ما قد عرفنا، وكم مر عليه من السنين وهو ينتظر هذه اللحظة التاريخية التي يلتقي فيها بأبيه الحبيب بعد طول غياب، فيشفي حنينه بعد أنينه، ويقرب من حضن أبيه بعد بينه عنه، وتسبل عيناه أدمع الفرح بعد أن هرقت دموع الترح.

كيف كان ذلك اللقاء ويوسف في عز نعمته، وقدرته على إسعاد أسرته، وإزالة غبار الحاجة عنهم؟

إنه لقاء يحيط به الفرح من جميع جوانبه؛ فرح برؤية الأب بعد فراقه، وفرح بعز العفو بعد القدرة على الانتصار للنفس، وفرح بتحقق الرؤيا، وفرح بتوزيع السرور على آل يعقوب أجمعين.

المشهد الثالث: أفراح إخوة يوسف:

لقد مرت في هذه القصة مشاهد يمكن أن يستشف منها أفراح لإخوة يوسف، فمن ذلك:

١ -فرحهم بإذن أبيهم بإرسال يوسف معهم، ثم فرحهم بالتخلص منه في البئر والعودة بدونه.

فكيف لا يفرحون وقد استراحوا ممن فضلَهم في حب أبيهم وإقباله واهتمامه؟ وكيف لا يفرحون وقد أزاحوا من محيطهم من تدخل عليهم الحزن رؤيته، وتتقطع قلوبهم حنقًا عليه!.

٢-فرحهم بإكرام العزيز لهم بإيفائه الكيل وحسن الضيافة والرجوع بالميرة.

٣-فرحهم بوعده استمرارَ الكيل والزيادة لهم إذا جاءوا إليه ببنيامين.

٤-فرحهم بموافقة أبيهم على إرسال بنيامين معهم.

٥-فرحهم بتعريف يوسف نفسه لهم، وعفوه عما بدر منهم في الماضي.

فقد سروا أن يكون أخوهم على هذه الوظيفة العظيمة في مصر التي سيجنون منها مصالح ومنافع، ويدفعون بها مضار ومفاسد، لاسيما وقد توج ذلك بالعفو عنهم.

٦-فرحهم بقول يوسف لهم: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣].

٧-فرحهم باللقاء الأسري العظيم في مصر بيوسف وهم مع أبيهم وجميع أفراد أسرتهم، وقد دخلوا مصر في عز وإكرام، وحلوا فيها منازل التعظيم والاحترام؛ لكونهم آل العزيز.

المشهد الرابع: فرح الوارد بيوسف:

وصل المستقي إلى شَفة البئر، وألقى دلوه لاستقاء الماء، فصعد على دلوه ما هو خير له من الماء، فلما رأى ذلك قال: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾[يوسف:١٩].

"**والمعنى**: أنه فرح وابتهج بالعثور على غلام"(١).

وفرحه هذا فرح تجاري؛ لأنه سيحصِّل من ورائه ربحًا ببيع يوسف رقيقًا.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٣٩).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الحزن والفرح في قصة يوسف عليه السلام:

وبعد أن سرحنا الأطراف، وأنعمنا النظر في مشاهد الأتراح والأفراح في هذا القصة نقف لحظات تدبرية نسجل فيها بعض التأملات:

١ -رأينا في حزن يعقوب ما يدل على شدة ما نزل به، وعظم أثره على قلبه وعينيه، فكيف يكون ذلك من نبي؟

أجاب بعض العلماء عن ذلك: بأن يعقوب عليه السلام لم يصل به حزنه إلى ارتكاب محظور أو ترك مأمور؛ فلم تكن منه شكاية للخلق، ولا جزع من قدر الخالق، وإنما لديه بكاء وألم قلبي، وهذا لا يلام عليه المرء؛ لأنه خارج عن مُكنته؛ ولذلك كان رسولنا عليه الصلاة والسلام يبكي في أحزانه، ويبين أن الله لا يؤاخذ على ذلك، وإنما يؤاخذ على اعتراض اللسان بالقول، أو اعتراض الجوارح بشق الجيوب أو خمش الوجوه.

قال البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨٤]: "وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف؛ فإنه قلّ من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال: القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك- يا إبراهيم- لمحزونون)"[١].

---

(١) تفسير البيضاوي(٣/٣٠٥).



وقال الشربيني: "فإن قيل: هذا إظهار للجزع، وجارٍ مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام، أجيب: بأنه لم يذكر إلا هذه الكلمة، ثم عظم بكاؤه، ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر ما لا ينبغي، ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل لذلك قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته، وقويت محنته صبر وتجرع الغصة، وما أظهر الشكاية به، فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل "[1].

"**قال** أبو الحسن المدائني عن الحسن الجفري: لما مات سعيد- أخو الحسن- حزن عليه الحسن وقال: إنه لأعز أهلي علي، ولأن يكون لي أحب إلي من أن أكون له.فعاتبه بعض إخوانه **فقال** الحسن: يا عبد الله، قد حزن يعقوب على ابنه يوسف فلم يعنفه الله عز وجل بذلك"[2].

٢- لا تبتئس إذا لم يعرف الناس قدرَك وأنت في المحل الأرفع؛ فكم من غالٍ بأيدي من لم يعرف قدره!، وكم من عظيم في أسرة أو بيئة لا تعطيه في ميزان السمو قدراً، فلا تُعنى به؛ حسداً له، أو جهلاً بما عنده، أو احتقاراً له؛ فدع عنك التنقيب عن قيمتك في عيون الناس، وابحث عنها في حسن ما تفعل؛ فيوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم **قال** الله عنه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾!.

٣- كن حريصًا على بث التطمين والإسعاد في النفوس التي طوف في ربوعها

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ١٣٠).

(٢) التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا] (ص:١٥٨).

الحزن؛ فلعل كلمتك تكون ضمادة على جرح فيبرأ، أو سقيا طيبة على زهرة ذابلة فتحيا، فقد **قال** يوسف لأخيه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩].

٤- يلاحظ أن حديث القصة عن جانب الحزن كان أطول من حديثها عن جانب الفرح؛ فكم بقي يعقوب ويوسف في حزنهما! فلما وصلا إلى تمام الفرح طويت القصة، وأسدل الستار عما جرى في أيام الفرح: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

وهذا يبين أن عمر الحزن في هذه الحياة طويل، ومن تتبع هذا في ردهات التاريخ وجد مصداق ذلك، كما أن العبر والعظات -وهي من مرادات القصة القرآنية- لا تتكون إلا تحت سحب الأحزان، وتحت آفاق الآلام.

٥- أحزن سمعَ يعقوب قولُ أبنائه: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧]، وأحزن عينيه رؤية الدم على القميص: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[يوسف:١٨]، فاستولى عليه الحزن، فأراد يوسف أن يسعد سمع أبيه وبصره فأرسل البشير بالقميص ليرتد بصر أبيه، ويتسع فرحًا بعد الحزن ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وأخبر ذلك البشير بمكان يوسف وحسن حاله فأسعد سمعه، وزادهم فرحة عامة: "﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣]، فما أعظم حكمة يوسف في معرفة قوانين الإسعاد، ودساتير الفرح للنفوس الحزينة!.

٦- في تقدير الأحزان منافع جمة، ودروس عظيمة؛ فالحزن يبعث العاقل على إذكاء الفكرة، وقدح الذهن في البحث عن المخارج من المضايق، مع ما فيه من رد الإنسان إلى باب ربه، وحينما تغيب الأحزان من حياة الإنسان-افتراضًا-ويبقى في حضن السرور فإنه يموت ذهنيًا وشعوريًا وربما إيمانيًا. **قال** الفيلسوف الصيني القديم مينسيوس: "الحزن والمشاكل يبعثان الحياة، والرخاء والسرور يبعثان الموت".

الأمانةُ والخيانة

المطلب الأول: الأمانة:

التعريف:

لغة:

الأمانة: مصدر أمن، يقال: أمن أمانة وأمنة: اطمأن، وهي ضد الخيانة، ومعناها: سُكون القلب، واسْتَأْمَنني فلانٌ فآمَنْتُه أُومِنُهُ، ومُؤْتَمَنُ القوم: الذي يثِقون إليه، ويتخذونه أَمِيناً حافظاً، تقول: اؤْتُمِنَ الرجل فهو مُؤْتَمَن[1].

اصطلاحًا:

الأمانة هي: كل مَا يؤتمن عَلَيْهِ كأموال وَحُرَم وأسرار.

وقيل: كل مَا افْترض على الْعباد فَهُوَ أَمَانَة كَصَلَاة وَزَكَاة وَصِيَام وَأَدَاء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الْأَسْرَار.

وقيل: هي كل حق لزمك أداؤه وحفظه[2].

نافذة:

إن الأمانة وصف كريم، وعمل عظيم من أعمال الإيمان، لا تقوم بحفظه إلا النفوس الكريمة ولا يؤديه كما ينبغي إلا ذوو الأفعال المستقيمة.

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٣٣)، المعجم الوسيط (١/ ٢٨)، لسان العرب (١٣/ ٢١).

(٢) الكليات (ص:١٧٦، ١٨٧)، فيض القدير (١/ ٢٢٣).

فـ"حفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فإذا نقص الإيمان نقصت الأمانة في الناس، وإذا زاد زادت"[1].

وكلما ابتعد الناس عن الإيمان خفَّت الأمانة فيهم، وظهرت الخيانات بينهم، كما أن مجتمع الاستقامة والطاعة والقرب من الدين الحق ينمو فيه الأمناء، فيكثر الخير بسببهم، وبذهابهم يحصل ضد ذلك.

عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً، (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن)[2].

ومع مرور الزمان وتناقص الإيمان يضعف أهل الأمانة، ويصبحون بين الناس قِلّة، لكن الإيمان الصادق يدعو صاحبه- مهما تغيرت الأزمان، وتعددت وسائل إضعاف الأمانة –إلى أن يتخذ الأمانة منهاج حياة، ومسار نجاة، وأن يكون قائماً بحقوق الله، حفيظاً لحقوق الخلق، باحثاً عن السبل التي تعينه على تحقيق هذه الغاية السامية والمطلب الرفيع، متجنباً كل سبب يحول بينه وبين ذلك.

قال رسول الله: (...ثلاث لا يُغلُّ عليهن صدر مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم"[3].

---

(١) فيض القدير (١/٢٢٣).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان، وهو صحيح.

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر[1].

وقال الحسن البصري: "لا تستقيم أمانة رجل حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه"[2].

وفي قصة يوسف عليه السلام حديث عن هذا المبدأ العظيم، فيه دعوة صريحة إلى التمسك بهذا الخلق النبيل الذي يجتمع تحت مظلته أداء حقوق الخالق، وحقوق المخلوقين.

وسنتحدث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الأمانة ومرادفاته في قصة يوسف:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الاسمية والفعلية:

ففي صيغة الاسمية جاء في قالب الصفة المشبهة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

وفي صيغة الفعلية جاء في قالب الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[يوسف:٦٤].وفي قالب الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ...﴾[يوسف:٦٤]، وفي قوله: ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾[يوسف:١١]. " أيْ: أيُّ شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه؟!»[3].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٣٨١).

(٢) الآداب الشرعية (١/٤٩).

(٣) فتح القدير (٣/١٢).

وورد من مرادفات الأمانة في هذه القصة لفظ: الحفظ، الذي يعني: الحراسة والصيانة، وقد جاء بصيغة الاسمية في قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢، ٦٣].

ثانيًا: مشاهد الأمانة في قصة يوسف عليه السلام:

المشهد الأول: أمانة يوسف عليه السلام:

من صفات النبي الكريم يوسف عليه السلام: الأمانة، وقد ظهر ذلك في قصته في ثلاثة أنواع من الأمانة:

أ-الأمانة في كتمان السر:

فحفظ السر معدود في الأمانات، بل من أوكدها -كما تقدم في التعريف للأمانة-، و"كتمان السر خلق مركب من أداء الأمانة والوقار؛ فإن إخراج السر من فضول الكلام، وليس بوَقور من تكلم بالفضول، وأيضًا فكما أن من استودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعه فقد خفر الأمانة، كذلك من استودع سراً فأخرجه إلى غير صاحبه فقد خفر الأمانة"(١).

وقد ظهرت أمانة يوسف عليه السلام في هذا النوع من الأمانات في هذه القصة في **موضعين**:

الأول: كتمان أمر رؤياه عن إخوته:

فقد **قال** له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يوسف:٥].

(١) تهذيب الأخلاق (٢٥).

"وظاهر الآية أن يوسف- عليه السلام- لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه"(١).

الثاني: كتمان أمر امرأة العزيز:

فقد **قال** له العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[يوسف:٢٩]. " أي: اكتمه، ولا تحدث به"(٢).

أو " اضرب عن هذا الأمر صفحًا، فلا تذكره لأحد"(٣).

وقد فعل يوسف عليه السلام ذلك، وإنما تحدثت به المرأة.

ب-الأمانة في حفظ الحرمات:

للعرض عند الإنسان العاقل له مكانة عظيمة، تراق النفوس رخيصة في سبيل بقائه مصوناً من الأذى والخدش.

فزوجة الإنسان تصان بغيرته عليها، وحراستها من كل ما يدنس الشرف.

ويوسف عليه السلام حين تربى في بيت العزيز كان العزيز قد ائتمنه على كل ما في بيته من زوجته وماله وغير ذلك، فكان يوسف عليه السلام عند حسن ظنه به.

وقد برهن يوسف على أمانته في بيت العزيز بتمنعه الكبير عن مراودة المرأة؛ حفظًا لأمانته، وصيانة لحق زوجها الذي أكرم مثواه.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) لتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ١٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٤).

هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

والمعنى: إن سيدي أحسن إقامتي وتربيتي، إذ قال لكِ: أكرمي مثواي، فلا أخونه بالفاحشة في أهله وهتك حرمته؛ إذ لا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسانِ بهذه الخيانة القبيحة.وكانوا يطلقون "الرب" على السيد والكبير.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول: إنه لا يدرك البقاء، ولا ينجح من ظلم، ففعل ما ليس له فعله.وهذا الذي تدعوني إليه من الفجور ظلم وخيانة لسيدي الذي ائتمنني على منزله[(١)].

ج-الأمانة في البيع:

فقد بدا ذلك من يوسف في إيفائه الكيل وعدم بخسه، **قال** تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[يوسف:٥٩].

وقد كان هذا الوفاء في كيله مع الناس جميعًا وليس مع إخوته فحسب، " والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء؛ لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل"[(٢)].

د-الأمانة في العلم:

وقد ظهر ذلك منه في عدم كتمانه تعبير رؤيا الملك؛ انتصاراً لنفسه لما فعلوا به

---

(١) ينظر: البحر المديد (٣/٣٦٩)، الوجيز للواحدي (ص:٥٤٢)، بحر العلوم (٢/٢١١)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧٩)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/٩١)، تفسير الطبري (١٦/٣٣).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/٢٨٨).

من الظلم، ولم يؤخر ذلك عن رسول الملك الذي لم يبلغ خبره إلى الملك فبقي بسبب ذلك في السجن بضع سنين؛ فلذلك أدى أمانة العلم في تبليغه بتعبيره للرؤيا؛ إذ من الأمانة في العلم: عدم كتمان العلم عن المحتاجين إليه.

ويعظم أمر هذه الأمانة حين يُسأل العالم فيكتم العلم عن سائله، **قال** -عليه الصلاة والسلام-: (من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار)[1].

هـ-الأمانة في العمل والوظيفة:

فقد قام يوسف عليه السلام بما أوكل إليه من وظيفة خزائن مصر قيامًا عظيمًا؛ حيث أحسن تدبير المال إيراداً وصرفًا، في سنوات الخصب وسنوات الجدب وما بعد ذلك، وحفظ ذلك المال عن أيدي الخيانة، فنتج عن ذلك نفع عظيم للناس في أيام ولايته على تلك الوظيفة.

وقد أثنى الملك على يوسف بالأمانة وهي تشير إلى توفرها فيه للعمل الذي سيوكله إليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

"وهذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال؛ لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة؛ إذا بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير، والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يؤثر الأفعال ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

أهلها. وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته، وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير؛ فلذلك أجابه بقوله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾"[1].

فعقب يوسف ذلك بذكر توفر ركني العمل الناجح فيه وهما: العلم والأمانة ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]. يعني: "حفيظ لما استودعتني، عليم بِسِني الجَدْب"[2]. أو "حافظ لما استودعتني، عالم بما أوليتني"[3].

فذكر: "أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصرَ بما يتولاه"[4].

والحفظ والعلم" صفتان تعمان وجوه المعرفة والضبط للخزائن"[5].

فقد سأل يوسف عليه السلام الملك: "أن يوليه خزائن المملكة؛ ليحفظ الأموال، ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها، وإبلاغها لمحالها.

وعلل طلبه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع "إن" في صدر الجملة؛ فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بلهَ كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه؛ ليعلم الملك أن

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٥).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٥٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٥).

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٢٣).

مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما؛ لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة "[(١)].

المشهد الثاني: أمانة بنيامين بكتمان السر:

لما وصل بنيامين إلى يوسف خلا به، وأحسن مثواه، وعرفه بنفسه وأزال عنه الحزن.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩].

وأخبره بما سيقوم به من الحيلة؛ من أجل أن يبقيه عنده، وقد وفى ببنيامين بهذه الأمانة؛ ولهذا لما استخرجوا الصواع من رحله بقي صامتًا، ولم يحدث بما جرى بينه وبين يوسف عليه السلام.

قال ابن عاشور: "وعدم التعرض لقول صدر من بنيامين يدافع به عن نفسه يدل على أنه لازم السكوت؛ لأنه كان مطلعًا على مراد يوسف عليه السلام من استبقائه عنده، كما تقدم في قوله: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾[يوسف: ٦٩]"[(٢)].

وقال ابن كثير: "يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠٦).

والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعَرّفه أنه أخوه، وقال له: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، مُعزّزًا مكرمًا معظما"[١].

المشهد الثالث: أمانة إخوة يوسف:

رغم ما فعل إخوة يوسف من خيانة أبيهم في يوسف، إلا أن هناك مشاهد تتحدث عن أمانتهم، وهي:

١-حفظ بنيامين:

فإنهم لما اشترط عليهم العزيز الإتيان ببنيامين من أجل أن يكيل لهم مرة أخرى؛ عرضوا الأمر على أبيهم وتعهدوا له بحفظه وقالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:٦٣].

فذهبوا وحصل أخذ بنيامين بقضية صواع الملك، وقد ظهر في هذه المرة أنهم لم يخونوا أباهم في بنيامين **من وجوه**:

أ-الحفاظ عليه من أي سوء يأتي من قبلهم، خلافًا لما فعلوا في يوسف.

ب-مراجعتهم للعزيز واسترحامه؛ ليرد عليهم أخاهم حتى يردوه إلى أبيهم، ولو بأخذ واحد منهم بدلاً عنه، حتى قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٠).

ج-بقاء كبيرهم في مصر ليعلم أبوهم به صدقهم في الحفظ والأمانة، وعدم التفريط عن قصد فيما جرى لبنيامين، حتى قال: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[يوسف:٨١].

د-عودتهم للبحث عنه وعن يوسف بأمر أبيهم لهم.

٢-إيصال رسالة العزيز إلى أبيهم كما هي:

فقد أوصلوا إلى والدهم رسالة العزيز لطلب بنيامين من غير أن يحرفوها أو يكذبوا فيها أو يكتموها، وهذا من أمانتهم مع العزيز.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف:٦٥].

قال الماوردي: "وفي هذا القول منهم وفاءٌ ليوسف فيما بذلوه من مراودة في اجتذاب أخيهم؛ لأنهم قد راودوه من سائر جهات المراودة ترغيباً واستنزالاً واستعطافاً وتسهيلاً"[(١)].

٣- الذهاب بقميص يوسف وإلقاؤه على وجه يعقوب:

فقد حمل البشير منهم أمانة قميص يوسف، ونفذوا به ما أمرهم يوسف، والأمر بهذه الأمانة من يوسف في قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾[يوسف:٩٣].

---

(١) النكت والعيون (٥٨/٣).

وتنفيذ الأمانة منهم في قوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾[يوسف:٩٦].

المشهد الرابع: أمانة رسول الملك:

فقد أرسل الملك الفتى الناجي برؤياه إلى يوسف ليعبرها، فجاء ذلك الفتى وقصها على يوسف كما سمعها من الملك بلا زيادة ولا نقصان.

وهذا من الأمانة، وهو أمر مهم في تعبير الرؤى حيث يجب نقلها وقصها كما هي عليه من غير زيادة ولا نقص؛ لأن ذلك له أثر في التعبير.

فالملك قال: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[يوسف:٤٣].

والرسول قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٤٦].

وهذا من الأمانة في الرسائل، وفيه ظهور هذه الصفة في رسول الملك.

قال الرازي: "ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونِعم ما فعل؛ فإن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم"[١].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/١١٩).

المطلب الثاني: الخيانة:

التعريف:

لغة:

(**خون**) الخاء والواو والنون أصلٌ واحد، وهو التنقص. يقال: خانَه يخُونه خَوْناً، وذلك نُقصانُ الوَفاء. ويقال: تخوَّنَني فلانٌ حَقِّي، أي: تنقَّصَني، وتخون صار خائنًا والشيء تنقصه، وخان الشيء خونًا وخيانة ومخانة نقصه يقال: خان الحق وخان العهد وفيه والأمانة لم يؤدها أو بعضها، وخان فلانًا غدر به وخان في النصيحة لم يخلص فيها، **والخيانة**: مخالفة الحق بنقض العهد في السر. **ونقيض الخيانة**: الأمانة [1].

" فالأصل لهذه الكلمة [الخيانة] -كما ذكر ابن فارس التنقص، قلت: وهذا التنقص يختلف موضوعه باختلاف متعلقه؛ فقد يكون هذا التنقص جحوداً للحق، وتركاً له، وقد يكون التنقص بالتفريط لما يلزم الإنسانَ حفظُه، وقد يكون بالتعدي على حقوق الآخرين والسطو على ما يجب عليه صيانته، وقد يكون بغير ذلك "[2].

اصطلاحًا:

الخيانة: التفريط في الأمانة[3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢٣١)، المعجم الوسيط (١/ ٢٦٣)، مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٣٣٤).

(٢) فقه الأمانة (٢٧).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٢٩).

وقيل: "الخيانة تعني: تضييع ما وُكِل إلى الإنسان حفظُه والقيام بحقه: بتركه أو جحوده أو التفريط فيه، أو عدم القيام بشروطه، في حق الخالق وحق المخلوق"[1]. وهذا التعريف أجمع وأمنع.

نافذة:

إن الخيانة عمل مشين، وعدوان على حق الخالق أو حق المخلوق، ووقوع في سخط الله، ومخالفة أمره، ومشاقة رسوله ﷺ.

وهي صفة من صفات المنافقين، وطريق إلى هدم الثقة في نفوس الناس، وسبيل إلى فساد المجتمعات، فيفوت بذلك كثير من مصالح الناس ويحصل عليها بها أضرار عديدة.

ولا يتصف بهذا الخلق الرذل إلا من عري من لباس الإيمان، وتباعد عن الأخلاق الحميدة، واستعبده هواه، وقادته شهوته الجامحة إلى ما لا يبالي بسوء عاقبته.

ولهذا استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخلق السيء فقال: (وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئست البطانة)[2].

وكما ذكرت الأمانة في قصة يوسف عليه السلام فكذلك ذكرت مقابلها وهو الخيانة، وسنتحدث عن ذلك فيما يأتي:

---

(١) فقه الأمانة (٢٨).

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

أولاً: صيغ ورود لفظ الخيانة في قصة يوسف:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الاسمية والفعلية في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

ثانيًا: من هو القائل: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)؟

اختلف العلماء في ذلك إلى قولين:

القول الأول: أنه من قول امرأة العزيز.

والمعنى: إني وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره، لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته، أي: لم أقل فيه وهو في السجن خلاف الحق.

وكان هذا من قول المرأة؛ لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك.

والذي يدل على صحته: أن يوسف عليه السلام ما كان حاضراً في ذلك المجلس حتى يقال: لما ذكرت المرأة قولها: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾، ففي تلك الحالة يقول يوسف: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، بل يحتاج فيه إلى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن، ويذكر له تلك الحكاية، ثم إن يوسف يقول ابتداء: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنبيين ما جاء ألبتة في نثر ولا نظم، فعلمنا أن هذا من تمام كلام المرأة.

وهذا القول هو الأقوى والأظهر والأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة

ومعاني الكلام.

ومن ذهب إلى أنه من كلام يوسف يحتاج إلى تكلف ربط بينه وبين ما قبله، ولا دليل يدل على أنه من كلام يوسف.

ومعنى الآية على هذا القول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولم يجر منِّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ ليعلم أني بريئة.

أو: هذا قولي وإقراري وتوبتي؛ ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته والذب عنه، وأرميه بذنب هو منه بريء، أي: لم أرمه بما يقدح فيه في مغيبه. والخيانة: هي تهمته بمحاولة السوء معها كذبًا؛ لأن الكذب ضد أمانة القول بالحق.

وقد تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه؛ إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه، وحالة المغيب أمكن لمزيد الخيانة أن يخون فيها من حالة الحضرة؛ لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجة.

وهذه الجملة: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ...﴾ في موقع العلة لما تضمنته جملة ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف عليه السلام بما كانت رمته به، فالإشارة بذلك إلى الإقرار المستفاد من جملة ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾ أي: ذلك الإقرار ليعلم يوسف عليه السلام أني لم أخنه.

وقولها: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ عطف على ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وهو علة ثانية لإصداعها بالحق، أي: ولأن الله لا يهدي كيد الخائنين؛ فإني لما أقدمت على

الكيد والمكر لا جرم افتضحت، وأنه لما كان بريئاً عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه.

والله لا ينفذ كيد الخائنين ولا يسدده.فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي: أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع.

وكل خائن لابد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولابد أن يتبين أمره، وأن الله لا يسدّد صنيع من خان الأمانات، ولا يرشد فعالهم في خيانتهموها.

وهذا من تمام الاعتذار؛ فقد قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت ذلك، أي: قولي هذا وإقراري ببراءته ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته.

وهذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهراً عن جميع العيوب.

القول الثاني: أنه من قول يوسف عليه السلام بعد أن علم بظهور صدقه.

فهذه المقالة من يوسف هي متصلة بقوله للرسول: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير فالإشارة بقوله: ﴿ذلِكَ﴾ على هذا التأويل هي إلى بقائه في السجن، والتماسه البراءة أي: هذا ليعلم سيدي أني لم أخنه.

قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة

عليه ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[النمل: ٣٤]، وهذا كلام بلقيس، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وأيضًا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾[آل عمران: ٩] كلام الداعي ثم قال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

ومعنى الآية على هذا القول: أي: لم أخنه في زوجته في غيبته، بل تعففت عنها، وهذا الفعل الذي فعلتُه من ردّي رسول الملك إليه، وتركي إجابته والخروج إليه، ومسألتي إيّاه أن يسأل النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن عن شأنهن إذ قطعن أيديهن، إنما فعلته ليعلم أني لم أخنه في زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾، يقول: لم أركب منها فاحشةً في حال غيبته عني، وإذا لم يركب ذلك بمغيبه، فهو في حال مشهده إياه أحرى أن يكون بعيدًا من ركوبه.﴿وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ لعل المراد منه: أني لو كنت خائناً لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة، وحيث خلصني منها ظهر أني كنت مبرأ عما نسبوني إليه.

الترجيح:

ويبدو أن القول الأول هو الراجح، وقد رجحه عدد من العلماء وأهل التفسير، منهم: ابن تيمية، وابن القيم، ومن المفسرين: ابن كثير، وأبو حيان، وابن عاشور، وغيرهم.

قال ابن القيم: "والصواب معهم-يعني: أصحاب القول الأول- لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لا

يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾[يوسف:٥١-٥٣].ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف؛ لئلا يوقع في اللبس؛ فإن غايته أن يحتمل الأمرين فالكلام الأول أولى به قطعًا.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ والسياق صريح في ذلك؛ فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠].فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق فقال النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[يوسف:٥١].وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].**فإن قيل**: لكن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف:٥٢]. الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام؛ أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣]، وهذا من تمام معرفته بربه ونفسه؛ فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها؛ فإنها أمارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها؛ فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه، وهو قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[يوسف:٥١]. وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الصَّادِقِينَ﴾.فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، فهذا هو المذكور أولاً بعينه، فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه ويضمر فيه قول لا دليل عليه....فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر.فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظًا ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك؛ فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال:﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩]"[(١)].

ثالثًا: مشاهد الخيانة التي ذكرتها قصة يوسف:

المشهد الأول: خيانة إخوة يوسف:

لقد حمل الحسدُ الكبير إخوةَ يوسف على استئذان أبيهم في إرسال يوسف معهم، وغرضهم الظاهر إدخال السرور عليه باللعب والنشاط، ومرادهم الباطن التفريق بينه وبين أبيه بإلقائه في الجب.

ولما كان أبوهم يعرف مدى حنقهم عليه لم يأذن بذلك أول مرة، وهم

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٩٤-٣٩٥)، البحر المحيط (٥/٣١٦)، روضة المحبين (ص:٣١٩-٣٢١)، التحرير والتنوير (١٢/٧٨)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٢)، المحرر الوجيز (٣/٢٦٣)، النكت والعيون..(٣/٤٧)، تفسير السعدي (ص:٤٠٠)، مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٨)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢٣-١٢٤)، تفسير الطبري (١٦/١٤٠-١٤١).

يعرفون هذا؛ ولذلك: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[يوسف:١١].

" أي: أي شيء لك لا تأمنا أي: لا تجعلنا أمناء على يوسف، مع أنك أبونا ونحن بنوك، وهو أخونا؟!"(١).

وقد ذكروا هنا " سبب الأمن وهو النصح أي: لمَ لا تأمنا عليه وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة؛ ولهذا قُرنا في قوله: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٨]"(٢).

وقال ابن عاشور: "ولعل يعقوب عليه السلام كان لا يأذن ليوسف عليه السلام بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفًا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه، ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه، فنزلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان"(٣).

ولكن مع إلحاحهم وكثرة توسلاتهم، وتعهدهم بالحفظ لأخيهم سلّم لهم أبوهم الأمانة على أن يحرسوها ويردوها.

غير أن فرط حنقهم غلب عليهم حتى ضاع معه كل شيء يحفظ أمانة والدهم.

فألقوا تلك الأمانة الغالية في جب خَونهم، وعادوا إلى أبيهم بدموع التماسيح

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٥٧).
(٢) البحر المحيط (٥/٢٨٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/٢٢٧).

وعلى أيديهم قميص الخيانة، فأخبروه خبر وديعته التي ضيعوها، مع أنهم قد وعدوا بأنهم سيحفظونها حيث قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢].

فما أسوأ خيانتهم لأبيهم؛ حيث تركوه حبيس حزنه ورهين بكائه الطويل!

ولما أرادوا -بعد سنين- استئذانه في إرسال بنيامين معهم كان يعقوب قد وعى درس الخيانة الأول فقال -مذكراً لهم بجريرتهم السابقة-: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

"يعني: كيف آمنكم على ولدي بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف، وضمنتم لي حفظه، وقلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فما فعلتم، فلما لم يحصل الأمان والحفظ هنالك فكيف يحصل هاهنا؟!"[١].

"**يقول**: لا آمنكم على بنيامين إلا كأمني على يوسف، يريد: أنه لم ينفعه ذلك الأمن، وأنهم خانوه، فهو وإن أمنهم في هذا خاف خيانتهم أيضًا"[٢].

المشهد الثاني: خيانة امرأة العزيز بمراودة يوسف:

للزوج حقوق على زوجته عليها أن تؤديها إليه، ومن أعظم هذه الحقوق: طهارة الفراش من التدنس بفعل أجنبي، قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/٥٣٩).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/٦٢١).

حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[النساء:٣٤].

"أي: تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله"[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن)[٢].

وهذا الحق يحفظ العرض من السوء، والذرية من الاختلاط النسبي، مع كون الخيانة معصية لله ورسوله وفضيحة للقرابة والمجتمع.

وقد قص الله علينا في هذه القصة خبر امرأة العزيز ومحاولاتها الملحة لاستدراج يوسف عليه السلام، ولكن الله عصمه وحماه بالعفاف: قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

في تلك اللحظات التي سيطرت الرغبة الجامحة على عيني تلك المرأة وعقلها لم تعد حينئذ تتذكر حق زوجها ولا عواقب فعلها، ولم تعد ترى ما يزجرها عن مرادها الخائن، فبدأت سلوك طريق الخيانة الزوجية، غير أن الله سلم من بلوغها غايتها بوجود حصن العفاف الذي نصبه يوسف عليه السلام حائلاً بينها وبين مطلوبها المحظور.

إن خبر تلك الخيانة التي لم تُستوف فصولها لم يبق حبيس غرفة المراودة، بل

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٩٣).

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وصل إلى خارجها، حتى كان أول من يستقبله زوجها، لكن ذلك الزوج لم يعاقبها على هذه المحاولة الخائنة، فشجعها ذلك على الإصرار في الاستمرار في مراودتها اليائسة حتى يتم لها آخر فصل من خيانتها.

فبدأ الخبر يشيع خارج قصرها إلى بيوت المدينة، حتى لامتها النساء على ذلك الضلال المبين، فجمعتهن لتعلن فيهن خيانتها من غير غضاضة، وتتوعد يوسف بالعقاب إن لم يطاوعها على الفحش، ولكن الله تعالى حال بينها وبين ما تشتهي من عفاف الطاهر الكريم.

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الأمانة والخيانة في قصة يوسف:

١-ما عمله يوسف عليه السلام من حفظ أمانة سيده في أهله وعدم خيانته فيهم؛ عمل عظيم يدل على صفات عظيمة توفرت في يوسف؛ **منها**: ١-إكرامه من أكرمه، وعدم نسيان جميل من أحسن إليه. ٢- عظمة العفة والصبر اللذين اتصف بهما رغم تعدد دواعي الفتنة. ٣-تغليب جانب العقل والإيمان على جانب الهوى وشهوة النفس. ٤-الحزم المتين؛ إذ لم يلن جنابه لتوسلات المرأة واستعطافها وتضرعها بين يدي عفافه. ٥-قوته في مدافعة العواطف والشهوات. ٦-غلبة التفكير بعواقب معصية الله وخيانةِ العزيز على عواقب غضب تلك المرأة.

٢-سلوك الدفاع عن النفس عند التهمة بأحسن الطرق حينما يكون المتِّهم ذا فضل على المتَّهم؛ فإن فعل السوء الحاضر لا ينسي-لدى الكريم-الإحسان الماضي؛ فإن يوسف عليه السلام قال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[يوسف:٢٦].

"أي طالبتني للمواتاة، لا أني أردت بها سوءاً كما قالت، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند إليه من الخيانة، وعدم معرفة حق السيد، ودفع ما عرضته له من الأمرين الأمرّين، وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها"(١).

٣-على المرأة التي تحت زوج ذي مكانة في المجتمع أن تحذر خيانته بأي صورة، ولو لم تصل إلى درجة الفاحشة؛ فإن عيون الناس على جدران ذلك البيت

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٦٨).

الشريف، وألسنتهم ستتناقل الخبر، فتزيد ما فيه أضعافه، أو تحرفه عن مساره الذي كان عليه.

٤-إن يوسف عليه السلام لما قال له الملك تلك الكلمة الدالة على بلوغه مكانة سامية لديه؛ لم يستغلها في تلبية شهوات نفسه ومقاصد شخصه، بل اتخذ تلك المكانة منطلقًا لنفع الناس والدعوة إلى الله تعالى. فكم من خير تحقق على يد يوسف لما كان من خلصاء الملك! وهكذا يصنع الكرام الصالحون إذا حظوا بمنزلة لدى ذي سلطان.

٥-إن الوظيفة التي ترتبط بها مصالح عامة للناس إذا تولاها الأمناء جرى على أيديهم فيها نفع عظيم، ومتى تولاها الخائنون حصل بهم ضرر كبير على المجتمع كله.

٦-انظر حزم يوسف، ورباطة جأشه، وعدم انجراره وراء العواطف، الملك يدعوه إليه-قبل البراءة العلنية- ولكن يأبى الخروج من سجنه حتى تبرأ ساحته في العلن.

٧-لقد اختار يوسف تلك الوظيفة لكي ينفع الناس ولم يختر وظيفة لتدر عليه الأموال.

٨-لقد كان قيام يوسف بتلك الوظيفة في تلك اللحظة التاريخية من تاريخ مصر رحمة من الله بالناس فهو الذي نظم شؤون الاقتصاد في تلك الأزمة الغذائية، وراعى حاجة الناس ومسغبتهم.

٩-إن مهمة يوسف التي اضطلع بها مهمة كبيرة جداً؛ إنها مهمة إطعام

شعب كامل، بل شعوب تجاوره حتى خرج بهم من الأزمة، إنه الفكر الاقتصادي المنير النقي من المصالح الشخصية التي يقتات أهلها من عناء الناس وسغبهم وجشعهم التي خلفتها وراءها المجاعات.

١٠-على الرجل القادر على المهمات العظيمة التي يرى أنه سينفع بها أكثر من غيره؛ أن يتصدر لها، ويعرض نفسه ويزكيها عند أهلها؛ من أجل نفع غيره لا نفع نفسه.

١١-إن يوسف حينما تولى الوظيفة لم تكن تعني لديه وظيفة يستريح فيها، ويلقي عن كاهله ثقل السنين الخاليات، ويعيش في حضن النعمة وادعًا ناعمًا، ليس الأمر كذلك، بل لقي في هذه الوظيفة من العناء الجسدي والذهني حظًا وافراً؛ لأنها مهمة دولة وشعب، ونجح في هذه المهمة أيما نجاح، حتى خرج بالناس من صحراء القحط إلى رياض الخصب.

١٢-إن يوسف لم يحصر خيره في بوتقة الوطنية، ويقل: خيرنا لأهلنا، بل عم خيره في تلك السنوات القاحلة أهل مصر ومن حولها من بلاد الشام، فقسم بين الناس الغذاء كما تقاسمهم البلاء.

١٣-ما أجمل أن يكون للداعي سلطان ومال يستعين بهما في دعوته، وهذان الأمران مما مكن لدعوة يوسف في مصر.

١٤-إن الأمانة عمل صالح ينتج نتائج حسنة على صاحبه، وعلى من تتصل بهم أمانته؛ فأمانة يوسف كانت سبب نجاته وثقة الناس به، وانتفاعهم بجميل فعله في أشد الأوقات، وهذا يدعو المسلم إلى التحلي بها في كل أحواله، فإن كانت

مُرّة الأوائل، فإنها حلوة العواقب دائمًا.

١٥-إن إخوة يوسف قد ضيعوا الأمانة مع يوسف، وحفظوها مع بنيامين، والسبب: إما للميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم، وإما شفقة به، وإما لأن الحقد الكبير إنما كان على يوسف، وإما لأن أحوالهم حسنت، ونياتهم صفت.

١٦-لقد أنتجت الخيانة أضراراً كبيرة على أصحابها وعلى غيرهم؛ فكم نتج من فعل إخوة يوسف به من آثار سيئة على أنفسهم، وعلى أبيهم، وعلى أخيهم! وكم أثمرت مراودة امرأة العزيز من ضرر على يوسف، وسمعة سيئة لتلك المرأة في ذلك الوقت!

ولهذا بين الله تعالى في هذه القصة أن الخيانة ظلم، وأن صاحبها غير موفق؛ فقال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]، وقال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف:٥٢].

الحيل المذمومة والحيل المحمودة

تعريف الحيل لغة واصطلاحًا:

لغة:

الحَوْل والحَيْل والحِوَل والحِيلة والحَوِيل والمَحالة والاحتيال والتَّحَوُّل والتَّحَيُّل؛ كل ذلك الحِذْقُ وجَوْدَةُ النظر. والحِيَلُ والحِوَل: جمع حِيلة، ورجل حُوَلٌ وحُوَلة مثل هُمَزَة وحُولة وحُوَّل وحَوَالِيٌّ وحُوَالِيٌّ وحوَلْوَل؛ مُحْتال شديد الاحتيال، واحْتَالَ: طلب الشيء بالحيلة.

والحِيلَة: من الحول لكن قلب واوه ياء، وهي من التحول؛ لأن بها يتحول من حال إلى حال بنوع تدبير ولطف.

والحيلة: أخْذ الأمور بالتَّلَطُّف، والقُدْرةُ على دِقَّةِ التَّصرُّفِ في تدبير الأمور، وتقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود.

وهي أيضًا: ما يتوصل به إلى حالةٍ ما في خفية.

وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث، وقد تستعمل فيما فيه حكمة[١].

مما سبق نلاحظ أن الحيلة فيها: تحول، دقة ولطف، حذق، جودة نظر، خفية،

---

(١) ينظر: المخصص. لابن سيده (١/٢٥٤)، المصباح المنير (١/١٥٧)، المعجم الوسيط (١/٢٠٩)، تاج العروس من جواهر القاموس (٢٨/٣٦٨)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٢٧٧)، التعريفات (ص:١٢٧)، لسان العرب (١١/١٨٤)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٠٣).

وانقسامها إلى حيلة مشروعة وهي التي فيها حكمة، وحيلة ممنوعة وهي التي فيها خبث.

ومن خلال ذلك يمكن أن نعرف الحيلة المحمودة والحيلة المذمومة تعريفًا اصطلاحيًا.

اصطلاحًا:

فالحيلة المحمودة هي: التوصل بطريق خفي مشروع إلى غاية مباحة.

والحيلة المذمومة هي: التوصل بطريق خفي محرم إلى غاية محظورة من ترك واجب، أو اقتراف محرم.

نافذة:

إن الوصول إلى الغايات المرجوة قد لا يسهل بالطرق الظاهرة دائمًا، بل يحتاج إلى سبل فيه حذق وخفاء، وذلك يرجع إلى معرفة الإنسان وحكمته وخبرته، أو قدرته على استمالة مخاطبه وتليين عريكته بكلام مؤثر، أو أعمال مقنعة، وهذا هو طريق الحيلة التي تعد وسيلة من وسائل الظفر بالمطالب، والتخلص من المعاطب.

لكن هذا الطريق -أعني طريق الحيل- لا يحمد دائمًا ولا يذم دائمًا، بل منه المحمود ومنه المذموم، **قال** الشاطبي: "لا يمكن إقامة دليل في الشريعة على إبطال كل حيلة، كما أنه لا يقوم دليل على تصحيح كل حيلة؛ فإنما يبطل منها ما كان مضاداً لقصد الشارع خاصة، وهو الذي يتفق عليه جميع أهل الإسلام، ويقع الاختلاف في المسائل التي تتعارض فيها الأدلة"[(١)].

---

(١) الموافقات(٦/ ٤٠).

فلهذا هناك حيل ينبغي سلوك سبيلها ألا وهي التي لا محظور فيها، بل قد يتعين ذلك؛ فعن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكل تمر خيبر هكذا؟)، قال: لا، والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا)[١].

ففي هذا النص أرشد النبي صلى الله عليه وسلم" إلى الحيلة على التخلص من الربا بتوسط العقد الآخر...وهل الحيل إلا معاريض في الفعل على وزان المعاريض في القول، وإذا كان في المعاريض مندوحة عن الكذب ففي معاريض الفعل مندوحة عن المحرمات، وتخلص من المضايق.

وقد لقى النبي صلى الله عليه وسلم طائفة من المشركين وهو في نفر من أصحابه فقال المشركون ممن أنتم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نحن من ماء) فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: أحياء اليمن كثير، فلعلهم منهم، وانصرفوا "[٢].

وهناك حيل لا يجوز عملها لما فيها من مخالفة الشريعة؛ كحيل اليهود في التمرد على الشرائع المخالفة لأهوائهم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عام الفتح وهو بمكة: (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام). فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها

(١) متفق عليه.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٢٢-٢٢٣).

السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: (لا هو حرام).ثم **قال** رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: (قاتل الله اليهود؛ إن الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه)[1].

قال القاضي عياض: "في هذا الحديث إبطال الحيل، والحجة على من قال بها في هذا إسقاط حدود الشرع"[2].

وقد تحدث العلماء عن حكم الحيلة وبينوا منها ما يجوز وما لا يجوز:

قال ابن حجر في ضابط الحيل: " إن كانت للفرار من الحرام والتباعد من الإثم فحسن، وإن كانت لإبطال حق مسلم فلا، بل هي إثم وعدوان "[3].

وفصل ابن القيم هذه المسألة تفصيلاً نافعًا في كتابه العظيم " إعلام الموقعين"، ومما ذكره هناك قوله: "فالحيلة جنس تحته التوصل إلى فعل الواجب، وترك المحرم، وتخليص الحق، ونصر المظلوم، وقهر الظالم، وعقوبة المعتدي. وتحته التوصل إلى استحلال المحرم، وإبطال الحقوق، وإسقاط الواجبات. ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)[4]؛ غلب استعمال الحيل في عرف الفقهاء على النوع المذموم.وكما يذم الناس أرباب الحيل فهم يذمون أيضًا العاجز الذي لا حيلة عنده؛ لعجزه وجهله بطرق تحصيل مصالحه؛ فالأول ماكر مخادع، والثاني عاجز

(١) متفق عليه.

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم - للقاضي عياض (٥/ ١٣٤).

(٣) فتح الباري(١٢/ ٣٢٦).

(٤) رواه ابن بطة، وإسناده جيد.

مفرط، والممدوح غيرهما وهو من له خبرة بطرق الخير والشر خفيها وظاهرها، فيحسن التوصل إلى مقاصده المحمودة التي يحبها الله ورسوله بأنواع الحيل، ويعرف طرق الشر الظاهرة والخفية التي يتوصل بها إلى خداعه والمكر به، فيحترز منها ولا يفعلها، ولا يدل عليها. وهذه كانت حال سادات الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم كانوا أبر الناس قلوبًا، وأعلم الخلق بطرق الشر ووجوه الخداع، وأتقى لله من أن يرتكبوا منها شيئًا، أو يدخلوه في الدين؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لست بخِبٍّ، ولا يخدعني الخِب". وكان حذيفة أعلم الناس بالشر والفتن، وكان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكان هو يسأله عن الشر.

والقلب السليم ليس هو الجاهل بالشر الذي لا يعرفه، بل الذي يعرفه ولا يريده، بل يريد الخير والبر، والنبي صلى الله عليه وسلم قد سمى الحرب خدعة. ولا ريب في انقسام الخداع إلى ما يحبه الله ورسوله، وإلى ما يبغضه وينهى عنه، وكذلك المكر ينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم، فالحيلة والمكر والخديعة تنقسم إلى محمود ومذموم، فالحيل المحرمة منها ما هو كفر، ومنها ما هو كبيرة، ومنها ما هو صغيرة. وغير المحرمة منها ما هو مكروه، ومنها ما هو جائز، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو واجب"(١).

وبعد.. فقد وجدنا في قصة يوسف عليه السلام مشاهد في النوعين من الحيل نستعرضها فيما يلي:

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٢٧٨-٢٧٩).

المطلب الأول: الحيل المذمومة:

في هذه القصة من الحيل المذمومة:

١-حيل إخوة يوسف:

فمن حيلهم، كما ذكرتها القصة:

أ-حيلتهم في إخراج يوسف من عند أبيه:

كان إخوة يوسف عليه السلام يدركون تمام الإدراك أن أباهم لن يفرط في يوسف، فيخرج به إخوته حيث شاءوا، فأتمروا في جلسة خاصة على إبعاد يوسف عن أبيه، واتفقوا فيها على حيلة لتنفيذ غايتهم الذميمة؛ إذ لا يمكن أن يحصلوا على بغيتهم من أبيهم إلا بحيلة دقيقة قد درسوا بعناية أولها وآخرها؛ من أجل نجاحها.

ومن غير وازع ديني أو أخلاقي أو فطري أقدموا على إعداد الخطة المحكمة مع ما فيها من خطايا وعقوق وسارعوا إلى تنفيذها.

وقد كانت حيلتهم لاستخراج يوسف من عرين أبيه: أن يذهبوا إلى أبيهم، ويظهروا الحرص الشديد على إرسال يوسف معهم من أجل أن يلعب ويفرح، ويعدوا والدهم بحفظه ونصحه ورعايته.
وقد نجحوا في هذه الحيلة، وفازوا ببغيتهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ

وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[يوسف:١١-١٤].

إن إخوة يوسف" لما تقرر في أذهانهم التفريق بين يوسف وأبيه، أعملوا الحيلة على يعقوب وتلطفوا في إخراجه معهم، وذكروا نصحهم له وما في إرساله معهم من انشراح صدره بالارتعاء واللعب؛ إذ هو مما يشرح الصبيان، وذكروا حفظهم له مما يسوؤه.وفي قولهم: ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا﴾ دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمن وهو النصح أي: لم لا تأمنا عليه وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة؟!"[١].

"وفي هذا القول الذي تواطأوا عليه عند أبيهم عبرة من تواطؤ أهل الغرض الواحد على التحيل لنصب الأحابيل لتحصيل غرض دنيء، وكيف ابتدأوا بالاستفهام عن عدم أمنه إياهم على أخيهم، وإظهار أنهم نصحاء له، وحققوا ذلك بالجملة الاسمية وبحرف التوكيد، ثم أظهروا أنهم ما حرصوا إلا على فائدة أخيهم وأنهم حافظون له وأكدوا ذلك أيضاً"[٢].

ب-حيلتهم في الاعتذار لأبيهم:

تم لإخوة يوسف النجاح بالجزء الأول من حيلة التخلص من يوسف، فتبقى معهم الجزء الثاني منها، وقد اتفقوا على مكونات حيلة الاعتذار التي تجعل أباهم لا يتهمهم بفعل شر بيوسف، فكانت حيلة الاعتذار هي الآتي:

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٠).

(الرجوع إلى البيت في وقت متأخر+ صبغ الوجوه بطلاء الحزن+ عصر العيون حتى تتدفق بالدمع+ اتهام الذئب بأكل يوسف- وهو ما كان يحذره أبوهم على يوسف- + تجريد يوسف من قميصه وتدميته بدم سخلة، الإعلان بالصدق قولاً).

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٦-١٨].

"وإنما جاؤوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة؛ ولذا قيل: لا تطلب الحاجة في الليل؛ فإنّ الحياء في العينين، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار"(١).

قال ابن عاشور: "وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي.وإنما اصطنعوا البكاء؛ تمويهًا على أبيهم؛ لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه،...وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل، ولا تَنوط بها حُكما، وإنما يُناط الحكم بالبينة.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء- وكانت مبطلة- فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف عليه السلام أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن

(١) البحر المحيط (٥/٢٨٨-٢٨٩).

يقضي إلا بالحق. **قال** ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعًا. ومن الخلق من لا يقدر على ذلك ومنهم من يقدر.

قلت: ومن الأمثال «دموع الفاجر بيديه» وهذه عبرة في هذه العبرة"[1].

"وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما **قال** حكيم:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ	تبيَّن من بكى ممن تباكى"[2].

لكن يعقوب عليه السلام قد أدرك حيلتهم - فلم تخف عليه - بقرائن ودلائل قادته إلى ذلك؛ فلهذا "لم يصدقهم لما ظهر له منهم من قوة التهمة، وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه"[3].

فقد" كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم، وكان عالماً بأنه حي؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[4].

"وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تلّطفٌ عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه -لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا"[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٣٦).
(٢) تفسير القرطبي (٩/١٤٥).
(٣) تفسير القرطبي (٩/١٤٨).
(٤) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/٨٢).
(٥) تفسير ابن كثير (٤/٣٧٥).

فلقد "أدرك يعقوب عليه السلام من قسمات وجوههم، ومن دلائل حالهم، ومن نداء قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبروا له مكيدة ما، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له؛ ولذا جابهم بقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً.... ﴾"[1].

وقوله: بل" حرف الإضراب إبطال لدعواهم أن الذئب أكله فقد صرح لهم بكذبهم "[2].

٢-حيل امرأة العزيز:

فمن حيلها:

أ-حيلتها في نفي التهمة عنها:

فقد أمعنت امرأة العزيز في رغبتها من يوسف، وحاولت في استنزاله من حصن عفته بالكلام مرة بعد مرة، ولكنه يأبى مع كل ذلك، حتى إذا خاف أن تقترب منه هرب منها، فتعلقت بقميصه من ورائه حتى قدّته إرادةَ إعادته إليها، فصادف ذلك دخول زوجها فسارعت بحيلة خاطفة لنفي التهمة عنها بإلقائها على يوسف.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥].

فلما" رأت الفضيحة عكست القضية، وادعت أن يوسف راودها عن نفسها،

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ٣٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٦).

فذكرت جزاء كل من فعل ذلك على العموم، ولم تصرح بذكر يوسف؛ لدخوله في العموم، وبناء على أن الذنب ثابت عليه بدعواها"(١).

" هذا قولها لزوجها؛ لتدفع الريبة عن نفسها بإلقائها على يوسف"(٢).

فزوجها لما وصل" ابتدرته بالكلام؛ إمعانًا في البهتان، بحيث لم تتلعثم، تخيل له أنها على الحق، وأفرغت الكلام في قالب كلي؛ ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها.ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف عليه السلام مانعة له من عقابه، فأفرغت كلامها في قالب كلي.وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وأن تخيف يوسف عليه السلام من كيدها؛ لئلا يمتنع منها مرة أخرى"(٣).

فلما رأى الزوج الحقيقة بشهادة الشاهد عرف أن ما فعلته زوجته حيلة " إيهاماً أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقاماً لنفسها لما امتنع منها"(٤)، **قال** تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٨].

فقوله: ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ " أي: من جنس حيلتكن ومكركن- أيتها النساء- لا من غيركن عن الإفادة وتدبير العقوبة، وإن لم يمكن تجريده عن الإضافة إليها، إلا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن إفادة ظاهرة فتأمل.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١٦/٢).

(٢) النكت والعيون (٢٧/٣).

(٣) التحرير والتنوير (٥٠/١٢).

(٤) البحر المديد (٣٧٢/٣).

وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق.

فَلَا تَحسِبَنْ هندًا لَهَا الغَدرُ وَحدَهَا   سَجيَّةُ نَفسٍ كُلُّ غَانيةٍ هِندُ "[1].

قال الزمخشري: "لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف؛ إذ لم يؤاتها؛ جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، والغضب على يوسف، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها، وكرهًا لما أيست من مؤاتاته طوعاً؛ ألا ترى إلى قولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾"[2].

ب- حيلتها في دعوة النساء:

خرج خبر المراودة عن القصر إلى نساء في المدينة- ولعلهن كن ذات صداقة بتلك المرأة- فأنكرن عليها مراودتها فتاها، هذا في الظاهر، وغرضهن في الباطن أن يرين يوسف-كما سيأتي-، فقابلت حيلتهن بحيلة عظيمة؛ حيث أظهرت لهن الإكرام والمحبة بدعوتهن إلى مأدبة طعام هيأتها لهن، هذا هدفها في الظاهر، وهدفها في الباطن أن يعذرنها في حبها وما نتج عنه، ولأجل أن يساعدنها في مرادها منه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٦٩).

(٢) الكشاف(٢/٤٣٢).

فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣١-٣٢].

قال المفسرون: إن امرأة العزيز لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها، فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد: أنهن حززن أيديهن بها.

وإنما دفعت ذلك إليهن في الظاهر معونة على الأكل، وفي الباطن ليظهر من دهشتهن ما يكون شاهداً عليهن. وكان يوسف للمرأة كالعبد لها فلم تمكنه أن يخرج إلا بأمرها. وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل[1].

وكان في ضمن هذه الحيلة من امرأة العزيز حيلة أخرى وهي: أن امرأة العزيز لم تضع يوسف في مكان ثم تدخل النسوة عليه، وإنما عكست القضية؛ فقد أدخلتهن وأعطتهن طعامًا وسكاكين، وفي فجأة من الأمر قالت له: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ابرز لهن، لم يكن عقيب ترتيب أمورهن؛ ليتم غرضها من استغفالهن؛ فلذلك حصل لهن من الدهشة بحسنه ما أنساهن ما في أيديهن، فكانت هذه الحيلة أبلغ لديها من إدخالهن عليه.

(١) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٠١)، تفسير ابن كثير (٤/٢٨٥)، النكت والعيون (٣/٣٢)، تفسير أبي السعود (٤/٢٧٢).

جاء في الصحيحين عن عائشة قالت: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيتي قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق؛ إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر، قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثًا. فقال: (ليصل بالناس أبو بكر؛ فإنكن صواحب يوسف).

وفي رواية: قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فُمرْ عمر فليصل للناس. فقالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر، فليصل للناس ففعلت حفصة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:(مه! إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل للناس).

فقوله عليه الصلاة والسلام: (صواحب يوسف) معناه: "أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحد وهي عائشة فقط، كما أن (صواحب) صيغة جمع، والمراد زليخا فقط، ووجه المشابهة بينهما في ذلك: أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت: "لقد راجعته، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً""[1].

(١) فتح الباري(٢/١٥٣).

وقيل: "أي: في ترادهن وتظاهرهن والإغراء والإلحاح؛ كتظاهر امرأة العزيز ونسائها على يوسف عليه السلام؛ ليصرفنه عن رأيه في الاستعصام"(١).

وقيل: "أي: إنكن مثل صواحبه في التظاهر على ما تردن، وكثرة الإلحاح فيما تملن إليه، وذلك لأن عائشة وحفصة بالغتا في المعاودة إليه في كونه أسيفًا لا يستطيع ذلك"(٢).

٣-حيلة نسوة المدينة لرؤية يوسف:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٣٠].

لما بلغ نساءَ المدينة قصةُ امرأة العزيز مع يوسف أردن أن يعرفن هذا الفتى الذي قد وصل حبه شغاف قلب سيدته، وأنه لا يمكن أن يبلغ إلى تلك الدرجة إلا لسبب عظيم، فاحتلن لرؤيته بهذه المقالة، والنساء لديهن حب الاستشراف، ولا تستقر نفوسهن حتى يرين ما سمعن عنه مما يعجبهن.

وإنما كان قيلهنّ ما قلن من ذلك، وتحدُّثهن بما تحدَّثن به من شأنها وشأن يوسف، مكرًا منهن بامرأة العزيز ليغضبنها حتى تعرض عليهن يوسف، فيفزن بمشاهدته ليبين عذرها، أو يحق لومها. ومكرهن هو: اغتيابهن إياها، وسوء مقالتهن فيها أنها عشقت يوسف. وسمي الاغتياب مكراً؛ لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره، وقيل: إنما سمى قولهن ذلك مكراً؛ لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف، وكان وُصِف لهن حسنه وجماله، **قال** ابن اسحاق: إنما قلن

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٦/ ٤٧١).

(٢) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٥/ ٥١).

ذلك مكراً بها لِتُرِيَهُنَّ يوسف، وكان يوصف لهنّ حسنُه وجماله.

فقصدن بذلك استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام، والنظر إلى وجهه؛ لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

وقولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾، قلن: إنا لنرى امرأة العزيز في مراودتها فتاها عن نفسه، وغلبة حبه عليها، لفي خطأ من الفعل، وجَوْر عن قصد السبيل ﴿مُبِينٍ﴾، لمن تأمله وعلمه أنه ضلال، وخطأ غير صواب ولا سداد.

وكم من كلام لا يراد به ظاهره، وإنما يتوصل به إلى غيره[1].

قال ابن القيم: "فإن قيل: فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به وسمعت به امرأة العزيز...

قيل: أشار إليه بقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٣٠]. **وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:**

أحدها: قولهن: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ ولم يسمينها باسمها، بل ذكرنها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦/٦٨)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٠١)، روح المعاني (١٢/٢٢٧)، تفسير الخازن (٣/٢٧٩)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٠١)، تفسير أبي السعود (٤/٢٧١) تفسير البغوي (٤/٢٣٧)، تفسير ابن كثير (٤/٢٨٥).

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراوِدة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا أنه أعف منها، وأبر وأوفى، حيث كانت هي المراوِدة الطالبة وهو الممتنع؛ عفافًا وكرمًا وحياء، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفًا، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكَلَّ؛ فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فنسبن الاستقباح إليهن، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضًا على الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحًا، كما يساعد الرجال بعضهم بعضًا على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها ولا في طلبها، أما العشق فقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وأما الطلب المفرط فقولهن: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾

والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة.

فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكراً أبلغ منه؛ فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت إليهن فجمعتهن، وخبأت يوسف عليه السلام عنهن، وقيل: إنها جمّلته وألبسته أحسن ما تقدر عليه، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله وأجملهم قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهي، وفي أيديهن مُدى يقطعن بها ما يأكلنه، فدهشن حتى قطعن أيديهن وهن لا يشعرن، وقد قيل: إنهن أَبَنَّ أيديهن، والظاهر خلاف ذلك، وإنما تقطيعهن أيديهن جرحها وشقها بالمدى؛ لدهشهن بما رأين. فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه في النساء غاية في المكر"[١].

وبعدما رأت النسوة يوسف عليه السلام على ذلك الجمال الحسي الظاهر، والجمال المعنوي الباهر صرن عونًا لامرأة العزيز عليه، وقد ذكر المفسرون أقوالاً لهن في ذلك ضربنا عنها صفحًا.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١١٥-١١٧).



المطلب الثاني: الحيل المحمودة:

أسلفنا في المطلب الأول ذكر الحيل المذمومة، وفي هذا المطلب نذكر ما يقابل ذلك من الحيل المحمودة في هذه القصة المباركة:

وفي هذه القصة من الحيل المحمودة الآتي:

أولاً: حيلة يعقوب عليه السلام في دفع الشر عن أبنائه:

فإنه -عليه السلام- لما أرسلهم إلى مصر احتال في دفع الشر عنهم حين **قال** لهم: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].

أي: قال يعقوب لبنيه: لا تدخلوا مصر من طريق واحد، وادخلوها من أبواب متفرقة، وذكر أن قوله ذلك لهم: حذرًا من العين عليهم؛ إذ كانت العين حقًّا، وكانوا أولي جمال وكمال، وأبناء رجل واحد يجتمعون في الحسن الظاهر والجمال البارع. فخاف عليهم إذا دخلوا من طريق واحد وهم ولد رجل واحدٍ العينَ، فأمرهم أن يفترقوا، روي معنى ذلك: عن قتادة وابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والسدي، والضحاك والحسن وابن إسحاق[1].

ثانيًا: حيل يوسف عليه السلام:

فمن تلك الحيل التي ذكرتها القصة:

---

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام الحوفي - سورة يوسف (ص:٢٥٩)، التفسير البسيط (١٢/١٧٢).

أ-حيلته -عليه السلام-في تلافي المجاعة في مصر:

فإن يوسف عليه السلام لما عبر الرؤيا فعرف منها مجيء سبع سنوات مخصبة تتلوها سبع سنوات مجدبة؛ دبر حيلة اقتصادية بارعة لتلافي شدة المؤونة، **فكانت هذه الحيلة:**

١-أن يستمروا في الزراعة سبع سنين متتابعة.

٢-أن يقسموا ما حصدوه إلى قسمين: أن يأكلوا أقله، وهو حد كفايتهم، ويدخروا أكثره، وقد أرشدهم إلى الطريقة الصحيحة لادخاره، والتي تبقيه عدة سنوات، وهي: أن يترك الحَب في سنبله فلا يداس؛ لأن ذلك أحفظ له من الفساد، ليبقى الحب قوتًا للناس في سنوات الجدب، والسنبل علفًا للدواب.

٣-توزيع ذلك المدخر على قدر حاجة الناس في السنوات المجدبات.

ثم زادهم بشرى بعودة الخصب بعد مضي سنوات الجدب.

قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

قوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ هذا رأي أرشدهم يوسف إليه وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين، فعلمهم حيلة يبقى بها من السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهي أن يتركوه في سنبله غير مدروس؛ فإن الحبة إذا بقيت في غشائها حفظت من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه: الحب لغذاء

الناس، والتبن لغذاء البهائم والدواب[1].

ب-حيله-عليه السلام-في أمر أخيه بنيامين:

فقد حصل في هذه القضية عدة حيل:

١-حيلته للإتيان ببنيامين إليه:

فقد سلك -عليه السلام- لتحقيق هذه الحيلة طريقين: الأول: طريق الترغيب؛ وذلك بحسن ضيافتهم، وإيفاء الكيل لهم، ووضع دراهمهم التي اشتروا بها الطعام في رحالهم دون أن يشعروا" كل هذا كان رغبة من يوسف في إحضار أخيه الشقيق، فجعل رد الدراهم وسيلة لذلك؛ لأنهم إذا وجدوها تحرجوا من أخذها فرجعوا بها. وجاءوا بأخيهم معهم، وهو مطلب يوسف عليه السلام حققه الله"[2].

والثاني: طريق الترهيب؛ وذلك بمنع الكيل لهم إذا لم يأتوا به.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف:٥٩-٦٢].

فقوله: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ترغيب لهم في العودة إليه، وقد علم أنهم مضطرون إلى العودة إليه؛ لعدم كفاية الميرة التي امتاروها

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢١)، تفسير المنار (١٢/٢٦٣).

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٢/٦٢٦).

لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم، كما دل عليه قولهم بعد: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]، **والبضاعة**: المال أو المتاع المعد للتجارة.والمراد بها هنا: الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام كما في التوراة[١].

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم[٢].

قال الطبري: فإن قال قائل: ولأيّةِ علة أمرَ يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم؟

قيل: يحتمل ذلك **أوجهًا**:

أحدها: أن يكون خَشي أن لا يكون عند أبيه دراهم؛ إذ كانت السَّنة سنة جَدْب وقَحْط، فيُضِرُّ أخذ ذلك منهم به، وأحبّ أن يرجع إليه.

أو: أرادَ أن يتسع بها أبوه وإخوته، مع قلّة حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب ردّه؛ تكرمًا وتفضُّلاً.

والثالث: وهو أن يكون أراد بذلك أن لا يخلفوه الوعد في الرجوع، إذا وجدوا في رحالهم ثمن طعام قد قبضوه وملَكهُ عليهم غيرهم، عوضًا من طعامه، ويتحرّجوا من إمساكهم ثمن طعام قد قبضوه حتى يؤدُّوه على صاحبه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٥-٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٩).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٥٧-١٥٨).

فإن قيل: كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟

قيل عن هذا **أربعة أجوبة**:

أحدها: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك؛ ابتلاء ليعقوب ليُعظم له الثواب، فاتّبع أمره فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف.

الثالث: لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

والرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته لميله إليه(١).

قال ابن القيم: قال شيخنا رضي الله عنه: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها وليس من جنسها: قصة يوسف حين كاد الله له في أخذ اخيه كما قص ذلك تعالى في كتابه؛ فإن فيه ضروبًا من الحيل الحسنة:

أحدها قوله: لفتيانه: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فإنه تسبب بذلك إلى رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورِق يرجعون بها، **ومنها**: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم، **ومنها**: أنه رأى لومًا أخذ الثمن منهم، ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم إلى العود، **ومنها**: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى العود ليردوها إليه.

فهذا المحتال به عمل صالح، والمقصود رجوعهم، ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح، وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضًا منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراده الله بهم من الخير في

(١) النكت والعيون (٣/ ٥٥).



البلاء.."[1].

٢-حيلته بجعل السقاية في رحل بنيامين:

لما أكرم يوسف إخوته بحسن الضيافة، وجهزهم بما يكفيهم وأهليهم من الطعام؛ أمر بعض غلمانه بدس الإناء- الذي يكال به الطعام أو يشرب فيه الملك- في رحل بنيامين؛ من أجل إبقاء أخيه لديه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف:٧٠].

" وقصد بجعله في رحل أخيه: أن يحتال على إمساكه معه؛ إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق له"[2].

قال ابن القيم: "..."الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك، والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩]. **وفيه قولان: أحدهما**: أنه عرفه أنه يوسف، ووطنّه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم. **والثاني**: أنه لم يصرح له بأنه يوسف، وإنما أراد: إني مكان أخيك المفقود، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٢٤٦-٢٤٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٦).

ومن قال: هذا قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع، وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره لما قال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحتمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك؛ فإني لا أفارقك، قال: فإني أدس صواعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة؛ ليتهيأ لي ردك، قال: فافعل. وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الاخ ورضاه.

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين -كما **قال** ابن القيم-:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وإن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليه وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقًا، وهو من الكلام المرموز. ولهذا يسمى خونه الدواوين لصوصًا.

والثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف، **قال** القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رحل أخيه، ثم **قال** بعض الموكلين- وقد فقدوه ولم يدر من أخذه-: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك من غير أمر يوسف لهم بذلك، أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا، وعنى: أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع، فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي. وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون

الكلام صدقًا، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معًا: تعريضًا وتصريحاً.وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف:٧٩]. ولم يقل: إلا من سرق، وهو أخصر لفظًا وتحريًا للصدق؛ فإن الأخ لم يكن سارقًا بوجه، وكان المتاع عنده حقًا، فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها...وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق، **قال** شيخنا رضي الله عنه: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾[يوسف:٦٦]. وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته؛ فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به؛ ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف قصد القصاص منهم بذلك"[(١)].

وقال الرازي: "والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم؛ لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها، وما كان هناك أحد إلا هم؛ غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها"[(٢)].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٢٤٧-٢٥١).

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٤٣).

٣-حيلته بتحكيم شريعة يعقوب دون شريعة الملك:

بعد أن جعل الصواع في رحل بنيامين نادى المنادي: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۞ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ۞ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ۞ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۞ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ۞ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[يوسف:٧٠-٧٥].

فالسارق جزاؤه أن يسلَّم بسرقته إلى المسروق منه فيسترقّه سنة، وكان ذلك سُنَّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر: أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق-كما قيل-، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فرد الحكم إليهم؛ ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم. وهذا كان قصد يوسف عليه السلام.

والمعنى: أن من وجد في رحله الصواع فهو جزاء السرقة، أي: ذاته هي جزاء السرقة، فتكون ذاته عوضًا عن هذه الجريمة، أي: أن يصير رقيقًا لصاحب الصواع؛ ليتم معنى الجزاء بذات أخرى. وهذا معلوم من السياق؛ إذ ليس المراد إتلاف ذات السارق؛ لأن السرقة لا تبلغ عقوبتها حد القتل(١).

٤-حيلته بالبدء بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين:

قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[يوسف:٧٦].

والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يوجد في وعائه هو المقصود

(١) تفسير البغوي (٤/٢٦١)، البحر المديد (٣/٤٠٧)، التحرير والتنوير (١٢/٩٨).

من أول الأمر، ففعل ذلك لتزول الريبة من قلوبهم لو بدأ بوعاء أخيه، ولنفي التهمة، وتمكين الحيلة، وإبقاء ظهورها حتى بلغ وعاءه[1].

مسألة: كلام أهل العلم في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ(٢) مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦]:

تحدث كثير من أهل العلم من المفسرين وغيرهم عند هذه الآية عن الحيل المحمودة، فمن **ذلك**:

قال الرازي: "واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات، وأعلى الدرجات؛ لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ وأيضًا وصف إبراهيم عليه السلام بقوله:

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٩٩)، الكشف والبيان (٥/٢٤١)، النكت والعيون(٣/٦٣)، البحر المحيط (٥/٣٢٨).

(٢) الكيد هنا صفة من صفات الله الخبرية تثبت في مقابل من كاده أو كاد أولياءه، فهي من صفات المقابلة، قال إبراهيم الحربي: "والكيد من الله خلافه من الناس، كما المكر منه خلافه من الناس"، غريب الحديث لإبراهيم الحربي (١/٩٤). وقال شيخ الإسلام-وهو يتحدث عن صفات: المكر والاستهزاء والكيد: "مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلمًا له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلاً كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف:٥]". مجموع الفتاوى (٧/١١١). وقال المناوي في تعريف الكيد: "إرادة مضرة الغير حقيقة، وهو من الأخلاق: الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق" التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٦١٤).

وقال ابن عاشور: "والكيد: فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي. والكيد: هنا هو إلهام يوسف - عليه السلام - لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه، وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المصمت. وأسند الكيد إلى الله لأنه ملهمه فهو مسببه. وجعل الكيد لأجل يوسف - عليه السلام - لأنه لفائدته" التحرير والتنوير (١٢/٩٩).

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء﴾[الأنعام: ٨٣] عند إيراده ذكر دلائل التوحيد، والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب، ووصف هٰهنا يوسف أيضًا بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة، وكم بين المرتبتين من التفاوت"(١).

وقال ابن كثير: "﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة"(٢).

وقال الزمخشري: "هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[ص:٤٤].ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام: (هي أختي)(٣)، لتسلم من يد الكافر.وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة، فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا"(٤).

وقال ابن العربي: "قوله : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل؛ إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً"(٥).

وقال ابن القيم: "لا يجوز في شرعنا بالاتفاق أن يُحبس رجل بريء ويعتقل

---

(١) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب.(١٨/١٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير/دار طيبة (٤/٤٠١).
(٣) جزء من حديث متفق عليه.
(٤) الكشاف (٢/٤٦٤).
(٥) أحكام القرآن لابن العربي (٥/٩٥).

للانتقام من غيره من غير أن يكون له جرم، ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف فلا بد أن يكون بوحي من الله؛ ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي ابراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيع له على هذا التقدير وحيًا خاصًا كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمتَه في حق المبتلى: امتحانُه وابتلاؤه؛ لينال درجة الصبر على حكم الله والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه. وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦]. فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]. وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[النمل:٥٠]، وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[آل عمران:٥٤]، نفس الألم الواصل إلى المعاقب. والمقصود أن إلهام الله لهم هذا الكلام كيد كاده ليوسف خارج عن قدرته؛ إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: لا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرق؛ فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب ثبوت السرقة، وقد كان يوسف عادلاً لا يأخذهم بغير حجة، وقد كان يمكنهم أن يقولوا: يفعل به ما يفعل بالسراق في دينكم، وقد كان في دين ملك مصر -كما قاله أهل التفسير-: أن يضرب السارق ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم؛ ولهذا **قال** تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر ؛ إذ لم يكن في دينه طريق له إلى أخذه، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي:

لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلاً على بابه، أي: إلا أن يشاء الله ذلك فيهيئ له سببًا يؤخذ به في دين الملك من الأسباب التي كان الرجل يعتقل بها، فإذا كان المراد من الكيد فعلاً من الله بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أموراً يحصل بها مقصوده من الانتقام من الظالم؛ كان هذا خارجًا عن الحيل الفقهية؛ فإن كلامنا في الحيل التي يفعلها العبد لا فيما يفعله الله تعالى، بل في قصة يوسف تنبيه على بطلان الحيل، وأن من كاد كيداً محرمًا فإن الله يكيده ويعامله بنقيض قصده وبمثل عمله، وهذه سنة الله في أرباب الحيل المحرمة أنه لا يبارك لهم فيما نالوه بهذه الحيل، ويهيئ لهم كيداً على يد من يشاء من خلقه، يجزون به من جنس كيدهم وحيلهم. وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة. وفيها دليل على أن وجود المسروق بيد السارق كافٍ في إقامة الحد عليه، بل هو بمنزل إقراره، وهو أقوى من البينة، وغاية البينة أن يستفاد منها ظن، وأما وجود المسروق بيد السارق فيستفاد منه اليقين، وبهذا جاءت السنة في وجوب الحد بالحبل والرائحة في الخمر، كما اتفق عليه الصحابة، والاحتجاج بقصة يوسف على هذا أحسن وأوضح من الاحتجاج بها على الحيل. وفيها تنبيه على أن العلم الخفي الذي يتوصل به إلى المقاصد الحسنة مما يرفع الله به درجات العبد؛ لقوله بعد ذلك: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾، **قال** زيد بن أسلم وغيره: بالعلم. وقد أخبر تعالى عن رفعه درجات أهل العلم في ثلاثة مواضع من كتابه: أحدها: قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾[الأنعام:٨٣]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بعلم الحجة. **وقال** في قصة يوسف: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ

أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾، فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بالعلم الخفي الذي يتوصل به صاحبه إلى المقاصد المحمودة، **وقال**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:١١].فأخبر أنه يرفع درجات أهل العلم والإيمان"(١).

وقال ابن القيم أيضًا: "وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كِيدَ غير مرة:

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه، ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت أنه راودها عن نفسها، ثم أودع السجن، ثم إن النسوة كدنه حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه، **وقال** له يعقوب: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.**وقال** الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٨]. **وقال** تعالى في حق النسوة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾[يوسف:٣٤]. **وقال** الرسول: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠]. فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله؛ بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وكاد

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٢٥١-٢٥٢).

له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه، حتى شهدن ببراءته وعفته، وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين. فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغيًا وعدوانا"(١).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٥٢).



المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الحيل المحمودة والحيل المذمومة في قصة يوسف:

١-إن كان ذكر الإحسان حيلة إلى غرض مشروع، وليس لتحقير المحسن إليه ولا للإعجاب بالنفس فلا يعد منًّا؛ فيوسف حينما أراد استقدام بنيامين أغرى إخوته بذكر إحسانه حيث قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩].

٢-أسلوب التحفيز والتشجيع على فعل جميل؛ حيلة جليلة، ووسيلة نبيلة يلجأ إليها المربون الفطناء، والقادة الحكماء، **قال** تعالى: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾. فقد جعل المنادي لمن يأتي بالصواع حمل بعير وهذا يسمى في الفقه الإسلامي: جعالة[(١)]، هي التزام جعل أو أجر معين لمن يقوم بعمل معين، بدون تحديد أمد معين[(٢)].

وقوله: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ هذا يسمى كفالة أو ضمانًا، وكل هذا من التحفيز.

٣-إذا رزق الله المسلم ذكاء وفطنة، ودقة وحكمة في تدبير الأمور، والخروج من المضائق؛ فليستعمل ذلك في الحيل المحمودة التي تنفع العباد، ولا يستعمل تلك المعرفة في الحيل المذمومة التي تلحق الضرر بهم.

٤-ليكن المسلم فطنًا في التعامل مع الناس، حذراً من الاستغفال؛ فقد يستدرج إلى ما يضره بحيلة وصلت إليه على غِرَّة.وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر

(١) **الجِعَالَةُ**" بكسر الجيم وبعضهم يحكي التثليث. المصباح المنير- العصرية (ص:٥٧).
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته (٤/٤٣٧).

بن الخطاب فقال : كان والله أفضل من أن يَخدع، وأعقل من أن يُخدع[1].

ومن هذا ننبه الآباء والأمهات على استعمال الحزم ودقة النظر في طلبات الأبناء والبنات فليزنوهن وزنًا حكيمًا؛ فالعواطف إذا كانت خلف كل طلب فقد توصل إلى حزن كحزن يعقوب.

٥- غالبًا ما يكون في الحيل المحرمة ذنوب متعددة؛ ككذبٍ وتعدٍّ على دماء الناس وأموالهم ومشاعرهم.

٦- للحيل المحمودة آثار حسنة، وفي بعضها مصالح -لا تعد منافعها- في الناس.

٧-لقد بدت امرأة العزيز امرأة فطنة لها قدرة فائقة على الحيلة، وسرعة بديهة في الخروج من المآزق، وجودة ذهن كبيرة في حسن التصرف في وجوه الكلام، واختيار الأساليب الرفيعة في التعبير.

٨- الاجتماع كمال وقوة، والتفرق نقص وضعف، ولكن يعقوب عليه السلام أراد أن يبدو أولاده متفرقين حيلة منه لدفع العين عنهم، كما قال المفسرون، وهذا يمهد لقاعدة في دفع الإصابة بالعين وهي إبداء بعض وجوه النقص لدى ذي المحاسن والكمال يستعيذ بها من شر العيون، فقد روي أن عثمان رأى صبيًا مليحًا فقال: "دسموا نونته؛ كيلا تصيبه العين". ومعنى دسموا: أي: سودوا، والنونة: الثقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير[2].

وقد أشار إلى هذا المراد بعض الشعراء:

قَدْ قُلْتُ حِينَ تكامَلَتْ وَغَدَتْ أفْعالُهُ زَيْنًا مِنَ الزَّيْنِ

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص:١٣).

(٢) شرح السنة.للإمام البغوي(١٢/١٦٦).

مـــا كـــان أحـــوجَ ذا الكـــمالِ إلى ... عيـــبٍ يُوَقِّيـــهِ مـــنَ العَـــيْنِ[1].

وقال آخر:

كَـأنّ الـرّدَى عـادٍ عَـلى كُـلّ مَاجِـدٍ ... إذا لَمْ يُعَـــوِّذْ مَجْـــدَهُ بِعُيُـــوبِ[2].

وقال آخر:

يَـــا كَامِـــلَ الآدَابِ مُنْفَـــرِدَ العُـــلا ... وَالمَكْرُمَـــاتِ وَيَـــا كَثِـــيْرَ الحَاسِـــدِ

شَـخَصَ الأنَـامُ إِلَى كَمَالِـك فَاسْـتَعِذْ ... مِـنْ شَرّ أَعيُـنهِمُ بعَيْـبٍ وَاحِـدِ[3].

٩-تأمل في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، فالكيد المحمود لا يكون إلا في مقابل كيد مذموم، فما الكيد الذي كاد الله ليوسف؟

أجاب عن ذلك ابن القيم فقال: "والمقصود أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:٨٨]. فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد.وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له هم وأبوه وخالته في مقابلة كيدهم له؛ حذراً من وقوع ذلك؛ فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب

---

(١) ديوان كشاجم (ص:٤٦٠).

(٢) خزانة الأدب (١/١٩٥).

(٣) الدر الفريد وبيت القصيد (٧/١٤).

خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك كما رآه في منامه، وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل: يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم؛ خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه، فكاده الله سبحانه بأن أخرج له هذا المولود ورباه في بيته، وفي حجره حتى وقع به منه ما كان يحذره كما قيل:

وإذا خشيتَ من الأمور مقدَّراً   وفررتَ منه فنحوَه تتوجّهُ"[1].

(١) إغاثة اللهفان (١١٧/٢).

الجزع والصبر

المطلب الأول: الجزع:

التعريف:

لغة:

الجزَع-محركة-: نَقِيض الصّبر، وهو انقطاعُ المُنَّة عن حَمْل ما نزل، يقال: جَزِعَ بالكسر يَجْزَعُ جَزَعاً فهو جازع وجَزِعٌ وجَزُعٌ وجَزُوعٌ وقيل: إِذا كثر منه الجَزَعُ فهو جَزُوعٌ وجُزاعٌ، وأَجزعه غيرُه: حمله عليه، قَالَ أَعْشَى باهلَة:

فَـإِنْ جَزِعْنـا فـإِنَّ الـشرَّ أَجْزَعَنـا   وإِنْ صَـبَرْنا فإِنّـا مَعْـشَرٌ صُـبُرُ

والجزع: أبلغ من الحزن؛ فإن الحزن عام، **والجزع** هو: حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه، وأصل الجزع: قطع الحبل من نصفه، يقال: جزعته فانجزع، ولتصور الانقطاع منه قيل: جزع الوادي: لمنقَطِعِه[1].

اصطلاحًا:

الجزع هو: حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه[2].

نافذة:

للنفس صفات إيجابية تقابلها صفات سلبية، فمن تلك الصفات السلبية:

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/٤٥٣)، المعجم الوسيط (١/١٢١)، لسان العرب (٨/٤٧)، مفردات ألفاظ القرآن (١/١٨١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/١٨١).

الجزع.

و هذه الصفة تكشف عن نفس ضعيفة لا يستطيع صاحبها كبح جماح نزقها، ولا حسن التصرف في مشاعرها وانفعالاتها.

ولا ريب أن المرء إذا سيطر عليه هذا الخلق ولم يقدر على حسن التصرف فيه؛ فإنه سيوصله إلى غايات لا تحمد عقباها.

ففي لحظة هذا الضعف النفسي يتجاوز بعض الناس حدود الشرائع، وتخومَ الأخلاق الحسنة، وربما استمر به الأمر حتى يخرج عن حد المعقول.

وحينما يؤوب إليه رشده، ويحضره صوابه يتملكه الندم والحسرة، وهو يرى جنيات جزعه.

إن للجزع مرادفات تحكي مضمونه، فمنها: الاستعجال والطيش، وقلة الصبر أو عدمه، وليس له مجال واحد ينحصر فيه، بل له مجالات عديدة، ولكن يمكن أن تعود إلى الجزع في أقدار الله ضجراً وردّاً، والجزع في الطاعات مللاً وكرهاً، والجزع في المعاصي حبًا وميلاً.

وفي قصة يوسف عليه السلام سنرى مشهدين من مشاهد الجزع الأول: جزع من الأقدار المؤلمة، والثاني جزع في المعاصي.

المشهد الأول: جزع إخوة يوسف:

إن الأبناء بطبيعتهم يميلون إلى الحرص على حب آبائهم لهم؛ لما يترتب على ذلك من المنافع، والسلامة من المضار.

لكن حينما يجدون واحداً فيهم أقرب إلى قلب أبيهم منهم؛ فإنهم يضيقون ذرعًا؛ خشية من فوات المصالح المعنوية والحسية.

هكذا آل أمر أبناء يعقوب عندما فضل حب يوسف على حبهم لدى والدهم الكريم، فجزعوا من ذلك أيما جزع، فعيل صبرهم، ونفد تحملهم لهذه النازلة عليهم.

فلذلك لبوا نداء الحسد والجزع، فسارعوا إلى سلوك سبيل الإيذاء بإلقاء يوسف في البئر؛ للتفريق بينه وبين أبيهم ليخلو لهم حب أبيهم، وما كانوا يدرون أن بقاء يوسف يبقي لهم مساحة حب في ذلك القلب الكريم، فلما أبعدوه عن عيني أبيهم ازداد اتساعًا في حبه ليوسف، وضيق مساحة الحب التي كانت لهم.

ولو عقلوا ورشدوا حينئذ لصبروا، وتحملوا مرارة المفاضلة، وسيعقب صبرهم ذهابَ وغَرِ صدورهم، واستقامةَ أخلاقهم التي سترفعهم إلى أفق حب يوسف، فيكونون في الحب مثله أو يفضلون عليه.

غير أن الجزع عاجلهم و" رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً "(١).

المشهد الثاني: جزع امرأة العزيز:

شب يوسف في بيت العزيز بين أحضان الترف الذي زاده ألقًا إلى ألقه، ورونقًا إلى رونقه، وكانت امرأة العزيز ترقب ذلك الجمال الفاتن الذي يتقلب بريقه أمام ناظريها فيسبيها ويغريها بفطرة الأنوثة المفتونة.

في ذلك القصر المشيد المنعم أهله تزداد أمواج الرغبة هيجانًا؛ إذ كل أسباب

(١) مجمع الأمثال (١/ ٢٩٤).

التهييج حاضرة، وقوانين المحافظة الصارمة غائبة عن كل من حول الكريم ابن الكريم.

فحينما اشتدت العواصف في العواطف الأنثوية لم تستطع تلك المرأة أمامها صبراً، فركبت في تلك الرياح العاتية مركبَ الجزع حتى وصلت إلى مراودة يوسف عن نفسه، وكانت تظن أنه سيلبي طلبتها؛ لكونه فتاها وهي مولاته، وكونه مطلوبًا وهي طالبة، ولأنه عزب غير متأهل، وهي امرأة حسناء فاتنة.

لكن جزعها واجهه صبرُ يوسف العتي الذي رده خاسئًا وهو حسير، يكاد يتميز من الغيظ.

فلجأ يوسف العفة إلى الهروب من تلك الشهوة الهائجة فصادفا العزيز، فلم تتمالك المرأة التي فاتها مرادها من تهمة يوسف.

إن الحب القلبي قد لا يستطيع الإنسان صرف جيوشه عن احتلال قلبه، فقوة صولتها تسقط جميع دفاعات الفؤاد، خاصة مع الطمع والصورة الجميلة.

غير أن كرام المحبين لا يفسدون حبهم بالفحش، ولا يطلبون لحبهم العذري العفيف منازل يقضون فيها على تلك العلاقة النفسية التي إذا خرجت إلى سوق القرف قضت عليه بالتلف.

قال الشاعر:

إذا كان حظُّ المرء ممن يحبُّه ... حرامًا فحظي ما يحلُّ ويجملُ

حديثٌ كماءِ المُزنِ بينَ فصولِه ... عتابٌ به حسنُ الحديث يُفصّلُ

وما العشقُ إلا عفةٌ ونزاهة وأُنسُ قلوبٍ أُنسهنَّ التغزَّلُ
وإني لأستحيي الحبيبَ مِن التي تريبُ وأُدعى للجميل فأحملُ[1].

لكن امرأة العزيز لم يكن لديها من الصبر الكافي ما كان يصون تلك المشاعر نحو يوسف رهن قلبها، فساقها جزعها إلى إفساد ذلك الحب المخبوء بتلك المراودة الفاضحة، ففوّتت على نفسها نيل مرادها، وبغّضت نفسها إلى قلب يوسف الذي كان بينه وبين سيدته وزوجها جسور من الود الطاهر، والاحترام الظاهر.

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٨٧).

المطلب الثاني: الصبر:

التعريف:

لغة:

(صبر) الصاد والباء والراء أصل يدل على الحَبْس، يقال: صَبَرْتُ نفسي على ذلك الأمر، أي: حَبَسْتُها. قال الشاعر:

فَصَبَرْت عارفةً لذلك حُرَّةً ترسُو إذا نَفْسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ

وصبر صبراً تجلّد ولم يجزع، وانتظر في هدوء واطمئنان، ويقال: صبر على الأمر احتمله ولم يجزع، وعنه حبس نفسه عنه، ونفسه حبسها وضبطها، وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه.

والصبر: الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف.

والصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانًا، ويضاده المذل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً، ونبه عليه بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:١٧٧]. ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾[الحج:٣٥]. ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥][(١)].

---

(١) المعجم الوسيط (١/٥٠٥)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٢٩)، لسان العرب (٤/٤٣٧)، مفردات ألفاظ القرآن(١/٥٦٥).

اصطلاحاً:

الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه.

وقيل: الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله.

وقيل: هو قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية.

وقيل: تجرع مرارة الامتناع من المشتهى إلى الوقت الذي ينبغي فيه تعاطيه[1].

نافذة:

إن الصبر عبادة من العبادات العظيمة، وسمة من سمات النفوس الكريمة، وهو نعت عزيز يدل على قوة في النفس، وقدرتها على مواجهة الصعاب والشهوات بصمود وفعل حسن.

ولتنوع الأمور التي تحتاج إلى صبر فإن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام تنتظم تلك الأمور المتفرقة:

صبر على طاعة الله بمجاهدة النفس على لزومها، وصبر عن معصية الله بمدافعة الهوى والشهوات من أن توقع فيها، وصبر على أقدار الله بحبس النفس عن التسخط فيها.

وللصبر أهمية كبيرة، وفضل عظيم، وثمرات حسنة، تحدث عن ذلك القرآن

(١) مفردات ألفاظ القرآن(١/ ٥٦٥)، التعريفات (ص:١٧٢)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٤٤٧).

الكريم في عشرات المواضع، وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث عديدة حاثًا عليه، ومثنيًا على أهله، ومبينًا جزاء أهله عند الله تعالى يوم القيامة.

وفي قصة يوسف عليه السلام مشاهد للصبر بين يعقوب وحبيبه يوسف عليهما السلام، نتحدث عنها في الآتي:

المشهد الأول: صبر يعقوب عليه السلام:

سلّم يعقوب عليه السلام حبيبه إلى أبنائه رجاء أن يجد معهم الراحة في اللعب والنشاط، وبقي منتظراً عودة يوسفه مبتسمًا سعيداً بتلك الرحلة الأخوية، لكن الأمر عند العودة لم يكن حسب توقعاته الجميلة.

فقد عاد أبناؤه -بعد أن نفذوا خطتهم الغادرة- بإخبار أبيهم بفقد ولده بين أنياب الذئب ومخالبه. فكان ذلك النبأ العظيم محزنًا ليعقوب حزنًا عظيمًا.

لكنه لما كان قلبه معموراً بالإيمان، مقابلاً أقضية الله بالتسليم والإذعان فإنه قد أعلن موقفه إزاء هذا الحدث الجلل قائلاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

والمعنى: أن من الجميل أن أصبر، أو أنه أَمر نفسَه بصبر جميل.

وقد احتمل ما أمر به نفسه من الصبر: الصبر على مقابلتهم على فعلهم، فيكون هذا الصبر عفواً عن مؤاخذتهم، أو أنه أمر نفسه بالصبر على ما ابتُلي به من فقد يوسف.

والصبر الجميل هو: الذي لا شكوى فيه ولا جزع، **قال** الثوري: من الصبر

أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكِ نفسك.

والجمال: حسن الشيء في صفات محاسن صنفه، فجمال الصبر أحسن أحواله، وهو أن لا يقارنه شيء يقلل خصائص ماهيته.

وتقدير جملة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: فصبري على ما فعلتم بي في أمر يوسف أو نالني منكم صبرٌ جميل، أو فهو صبر جميل، أو فشأني أو فأمري صبر جميل، أو صبر جميل أولى بي.

وقد عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ عطف على جملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يراد به: الاستعانة أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمل الصبر على ذلك، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف - عليه السلام - على الخلاص مما أحاط به[1].

قال الرازي: "قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يدل على أن الصبر على قسمين: منه ما قد يكون جميلاً، وما قد يكون غير جميل؛ فالصبر الجميل هو: أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك، ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية.

والوجه الثاني: أنه يعلم أن منزل هذا البلاء حكيم لا يجهل، وعالم لا يغفل، عليم لا ينسى، رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك فكان كل ما صدر عنه حكمة وصواباً فعند ذلك يسكت ولا يعترض.

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ٨٤).

والوجه الثالث: أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق فاستغراقه في شهود نور المبتلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء؛ ولذلك قيل: المحبة التامة لا تزداد بالوفاء، ولا تنقص بالجفاء؛ لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ، وموصل النصيب لا يكون محبوباً بالذات، بل بالعرض. فهذا هو الصبر الجميل. أما إذا كان الصبر لا لأجل الرضا بقضاء الحق سبحانه، بل كان لسائر الأغراض فذلك الصبر لا يكون جميلاً.

والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات: أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسناً، وإلا فلا، ...ولما ذكر يعقوب قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى؛ لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فما لم تحضر إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]"[١].

وبعد سنوات جاء يعقوبَ أبناؤه ليطلبوا سلوته الأخيرة إلى مصر، فتم ذلك بعد تمنع وكراهية، فحبس يوسف بنيامين لديه، فعاد إخوته بالنبأ المفزع لأبيهم فكان موقفه الصبر والاحتساب أيضًا، **قال** تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٢١٣)، تفسير القرطبي (٩/٢٤٦)، التحرير والتنوير (١٢/٣٧)، النكت والعيون (٣/١٦)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧٥)، تفسير البغوي (٤/٢٢٣)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٨٣).

أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

غير أن وجعه هذه المرة بعث الوجع السابق، فاشتد حزنه وبكاؤه، حتى ذهب بصره، **قال** تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨٤].

وما زال الحزن والبكاء يطوي جوانب نفسه، وهو يكتم شكواه، ويتجرع آلام بلواه، حتى خيف عليه **فقال** القائل: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف:٨٥].

فرد عليهم بأن ما كان منه لا ينافي الصبر؛ لأنه لا يشكو ذلك إلى البشر، وإنما إلى رب البشر، وأنه لا تخشى عاقبة حاله التي توقعوها؛ لأنه يعلم ما لا يعلمون من أمر يوسف، **قال** تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].

وهكذا بقي يعقوب عليه السلام صبوراً على فقد أبنائه الغائبين، وعلى عقوق أبنائه الحاضرين، حتى أعقبه صبره الجميل خيري الدنيا والآخرة.

المشهد الثاني: صبر يوسف عليه السلام:

هنا تسكب العبرات؛ حزنًا على يوسف وهو يتنقل من عناء إلى آخر، وتتداوله المحن كلما ذهب أولاها رد عليه أخراها.

غير أن الصبر كان رفيقه في كل مراحل البلاء، فإذا كان صبر يعقوب قد انحصر في قضية واحدة، وعلى نوع واحد من أنواع الصبر وهو الصبر على الأقدار المرة؛ فإن صبر يوسف قد توزع في قضايا كثيرة، حتى استوعب أنواع الصبر الثلاثة.

وهذه مشاهد صبره عليه السلام:

١-صبره على كيد إخوته وأذاهم:

فقد بدأ عناء يوسف من إخوته وهو مازال عند أبيه بملاحظته حسدهم له، ورؤيته نتائج ذلك الحسد في تعاملهم معه.

ثم تنامى بغضهم حتى بدا في تلك المؤامرة التي انتهت بإلقائه في الجب، وهو في هذا البلاء مرابط على حصن الصبر الجميل، ينتظر فرج الله تعالى.

ولم ينته أذى إخوته له حتى وهم بين يديه في مصر قبل أن يعرفوه، فقد اتهموه بالسرقة زوراً وبهتانًا، فقابل ذلك بكظم غيظه، وجميل حلمه، من غير أن ينتقم لنفسه، **قال** تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:٧٧].

٢-صبره على فراق أبيه:

إن فراق الأحباب شديد على النفوس الكبيرة، فكيف بالنفوس الصغيرة، وهو وجع تدوم آلامه، وتبقى ذكرياته مذكيات للجراح.

قال ابن حزم: "وما انتفعت بعيش، ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة، وإنه لشجى يعتادني، وولوع همٍّ ما ينفك يطرقني، ولقد نغّص تذكري ما مضى كلَّ عيش أستأنفه، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا"(١).

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم (ص:١٢٥).

وقال الشاعر:

لَـوْلا مُفارَقَـةُ الأحبابِ مـا وَجَـدَتْ ... لهَـا المَنَايَـا إلى أرْوَاحِنَـا سُـبُلا[1].

لقد فارق يوسف أباه وهما في قمة الحب المتبادل، والتعلق المشترك، كما أن يوسف أيضًا كان في مرحلة صغره، وهي مرحلة تحتاج إلى القرب من الأبوة، والافتقار إلى رعايتها.

فجاء التفريق بينه وبين أبيه في هذه الحال، فكان ذلك على النفس أشد لوعة، وعلى القلب أعظم حرقة، وعلى العين أدرَّ دمعاً، وعلى العيش أشدَّ كدَراً.

وفي هذه المصيبة الشديدة على القلب الصغير كان يوسف صابراً محتسبًا، رغم شدة ظمئه، وعظم شوقه إلى لقيا أبيه الحبيب. ولسانه حاله يقول:

يقولـون ثَكـلى ومـن لم يـذقْ ... فـراقَ الأحبّـة لم يَثكُـلِ

لقـد جرّعتنـي ليـالي الفـراق ... كؤوسـاً أمـرَّ مـن الحنظـلِ

فيـا ليلـةَ الوصـلِ عـودي لنـا ... كـما كنـتِ في الـزمن الأَوَلِ[2].

قال ابن الجوزي: "فإن قيل: كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكًا؟

ذكر المفسرون عن ذلك **ثلاثة أجوبة:**

أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى، وهو الأظهر.

والثاني: لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله شدة فاقتهم.

(١) ديوان المتنبي (ص:١٢٤).

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر (٣/ ٥٤).

والثالث: أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرج نفسه إلى كمال السرور.

والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى؛ ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء.

وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيما، ولا يقدر على دفع سببه"[١].

٣-صبره على مراودة امرأة العزيز:

إن هذا النوع من الصبر اليوسفي أشد من سابقَيه؛ فإن هذا النوع هو صبر عن معصية الله تعالى، والدواعي إليها شديدة، والبلاء " بمخالفة دواعي النفس والطبع من أشد البلاء؛ فإنه لا يصبر عليه إلا الصديقون.وأما البلاء الذي يجري على العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها فالصبر عليه لا يتوقف على الإيمان، بل يصبر عليه البر والفاجر، لا سيما إذا علم أنه لا معول له إلا الصبر، فإنه إن لم يصبر اختيارا، صبر اضطرارا"[٢].

ولا يصبر عن المعاصي إلا قوي الإيمان" فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر "[٣].

فحينما راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام - وقد توفرت في مراودتها جميع صفات الفتنة-تدرع يوسف الصديق بدرع الصبر العظيم حتى سلم من فتنتها، مع أن طلبها كان شديداً، وحاجتها كانت عظيمة.وحالها:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٦٥-٤٦٦).

(٢) طريق الهجرتين (ص:٣٤٩).

(٣) طريق الهجرتين (ص:٤١٣).

أرى مـــاءً وليْ ظمـــأ شـــديدٌ ولكـــنْ لا ســـبيلَ إلى الـــورودِ!

فدونها وما تشتهي رماح مشرعة من العفة والصبر، والنزاهة اليوسفية.

قال ابن القيم: "ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق بما فعل به إخوته من الأذى، والإلقاء في الجب، وبيعه بيع العبيد، والتفريق بينه وبين أبيه، وابتلائه بمراودة المرأة- وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها- وهي الداعية إلى ذلك؛ فرق عظيم، لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء؛ فإن الشباب داعٍ إلى الشهوة، والشاب قد يستحي من أهله ومعارفه من قضاء وطره، فإذا صار في دار الغربة زال ذلك الاستحياء والاحتشام، وإذا كان عزبًا كان أشد لشهوته، وإذا كانت المرأة هي الطالبة كان أشد، وإذا كانت جميلة كان أعظم، فإن كانت ذات منصب كان أقوى في الشهوة، فإن كان ذلك في دارها وتحت حكمها، بحيث لا يخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ، فإن استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل، كان أقوى أيضًا للطلب، فإن كان الرجل كمملوكها وهي كالحاكمة عليه الآمرة الناهية كان أبلغ في الداعي، فإذا كانت المرأة شديدة العشق والمحبة للرجل، قد امتلأ قلبها من حبه، فهذا الابتلاء الذي صبر معه، مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين.ولا ريب أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول"(١).

٤-صبره على مرارة الرق:

كان يوسف عليه السلام في بيت أبيه باذخ الشرف، سامي المنزلة، مستظلاً

(١) طريق الهجرتين (ص:٣٤٩).

تحت ظلال الحرية الوارفة، فصار بعد ذلك إلى عناء الرِّق، وغصص الحياة، تحت سيادة غيره، فغدا مسلوب الحرية، لا يملك من أمره شيئًا بعد العز المنيف.

ولكنه واجه هذا البلاء الجديد بصبر شديد، وتفاؤل يعمر جوانحه باستنشاق رائحة الحرية، بشروق شمسها الجميل عما قريب.

٥-صبره على ضيق السجن:

ألقي يوسف الصديق في السجن ظلمًا، فألفى فيه المكاره الحسية؛ كالضيق والعناء وتقييد التصرف، والمكاره المعنوية؛ كولوجه بغير ذنب، وقلقه من سوء سمعته بين الناس وهو الطاهر العفيف.

فبقي بين هذه المكاره يذوق طعم الشدائد، غير أنه ازداد به مع طول المدة صبراً وجلداً وثباتًا، " فلبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه؛ فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولهذا قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]. ولو لم يصبر ويتق، بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس "(١).

فغدا السجن امتحانًا عرف فيه عظمة صبره، وقوة رباطة جأشه، وقد قيل: "إنّ السّجن محكّ العقول، وتجربة المأمول، به يمتحن الصّبر من الأحرار، ويكشف مكنون العقل والوقار "(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٥).

(٢) أنس المسجون وراحة المحزون (ص:١٢٦).

وصدق فيه قول القائل:

إِذَا سِيْمَ ضرًّا زَادَ صَبْرًا كَأَنَّمَا هُوَ المِسْكُ مَا بَيْنَ الصَّلَايَةِ وَالفِهْرِ
لأَنَّ فَتِيْتَ المِسْكِ يَزْدَادُ طِيْبُهُ عَلَى السَّحْقِ وَالحَرّ اصْطِبَارًا عَلَى

ومما يدل على علو كعبه في الصبر: أنه لما جاءته دعوة الملك بالإذن بالخروج لم يستعجل في الإجابة، بل تريث حتى تبرأ ساحته، **قال** تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

فالذي " فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل، **وبيانه من وجوه:**

الأول: أنه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة، وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه.

الثاني: أن الإنسان الذي بقي في السجن سنين إذا طلبه الملك، وأمر بإخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات، وذلك يصير سبباً لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذباً وبهتاناً.

الثالث: أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل

---

(١) أنس المسجون وراحة المحزون (ص:١١٥).

أيضًا على شدة طهارته؛ إذ لو كان ملوثاً بوجه ما لكان خائفاً أن يذكر ما سبق "[1].

ولهذا أثنى نبينا صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه السلام بهذا الصبر الجميل، وتركِ الاستعجال في الإجابة فقال: (ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي)[2].

وعند أحمد والطبراني بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف: ٥٠]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر).

و"هذا ليس إخباراً عن نبينا عليه السلام بتضجره، وقلة صبره، بل فيه دلالة على مدح صبر يوسف، وترك الاستعجال بالخروج؛ ليزول عن قلب الملك ما كان متهمًا به من الفاحشة، ولا ينظر اليه بعين مشكوكة"[3].

وقال النووي: "وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي)، فهو ثناء على يوسف عليه السلام، وبيان لصبره وتأنيه. والمراد بالداعي: رسول الملك الذي أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠]. فلم يخرج يوسف صلى الله عليه وسلم مبادراً إلى الراحة، ومفارقة السجن الطويل، بل تثبت وتوقر، وراسل الملك في كشف أمره

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢١).

(٢) متفق عليه.

(٣) روح البيان (٤/٢٧١).

الذي سجن بسببه، ولتظهر براءته عند الملك وغيره، ويلقاه مع اعتقاده براءته مما نسب إليه، ولا خجل من يوسف ولا غيره، فبين نبينا صلى الله عليه وسلم فضيلة يوسف في هذا وقوة نفسه في الخير وكمال صبره وحسن نظره، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ما قاله تواضعًا وإيثاراً للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يوسف صلى الله عليه وسلم، والله أعلم "(١).

وقال ابن حجر: "وإنما قاله صلى الله عليه وسلم تواضعًا، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير، بل يزيده رفعة وجلالاً"(٢).

٦-صبره على أداء وظيفته:

تولى يوسف عليه السلام بعد خروجه من السجن وظيفة خزائن مصر في وقت استثنائي يحتاج لمثله علمًا وأمانة، فصبر على أداء حق تلك الوظيفة من رعاية حق الله فيها، ورعاية حاجات الناس، وتحمل عناء القيام بها، والصبر على الناس المتارين أيام السبع الشداد، حتى إنه لم يسلم من شتم إخوته له قبل معرفته، وذلك عندما رموه بالسرقة في الماضي، فلم يرد عليهم بهتانهم تصبراً وحلمًا.

عاقبة الصبر:

الصبر أوّله مرٌّ مذاقته		لكنَّ آخره أحلى من العسلِ(٣).

في هذه القصة المباركة مرت بنا مشاهد الصبر للنبيين الكريمين: يعقوب

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٨٥).
(٢) فتح الباري (٦/ ٤١٣).
(٣) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار (ص:٢١٢).

وابنه يوسف عليهما السلام، ولا ريب أن الصبر له عاقبة حسنة، وثمرات يانعة.

فيعقوب عليه السلام أنتج صبره الجميل نيل الأجر الجزيل، واللقاء بيوسف، واجتماع آل يعقوب تحت ظلال العز والحب في مصر يوسف.

وأما يوسف عليه السلام فقد ظفر بمنح ربه على جميل صبره في عاجل دنياه وآجلها.

فخرج من آخر محطة بلائه إلى عز الملك، وشرف الحرية، وعناق النعيم، ولقاء أبيه وأسرته، واجتماعهم على مائدة الحب، وتحقق رؤياه السالفة، فما أعظم جوائز الصبر الجميل!

أيّها الإنسانُ صبرا إنّ بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حُرّا لم يكن بالأمس حرّا
لزِمَ الصّبر فأمسى مالكًا خيراً وشرّا[1].

وعن نتائج صبر يوسف تحدثت الآيات في القصة: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢].

وهذه الآية كالتي قبلها-وهي: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١]-، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف، وثمرات مجاهداته، وعجائب صنع الله تعالى في مراداته؛ إذ طوى له المنح في تلك المحن، وذخر له السيادة في تلك العبودية.

(١) أنس المسجون وراحة المحزون (ص:١١٩).

ومعنى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: زمان اشتداد جسمه وقوته"[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦].

قال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين كصبره في البئر، وصبره في السجن، وصبره في الرق، وصبره عما دعته إليه المرأة[2].

فقوله "سبحان: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بيان لسنة الله- تعالى- في خلقه، من كونه –سبحانه- لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أي: ومثل هذا التمكين العظيم. مكنا ليوسف في أرض مصر، بعد أن مكث في سجنها بضع سنين، لا لذنب اقترفه، وإنما لاستعصامه بأمر الله"[3].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

فقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾أي: بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتق الله، ويصبر على المصائب، وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الصابرين في بلائه، القائمين بطاعته[4].

قال ابن عاشور: "وجملة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ تعليل لجملة﴿مَنَّ اللَّهُ

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/١٦٣).

(٢) الكشف والبيان (٥/٢٣٣).

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/٣٨١).

(٤) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٠٤)، تفسير القرطبي (٩/٢٥٦).

عَلَيْنَا﴾ فيوسف عليه السلام اتقى الله وصبر، وبنيامين صبر ولم يعص الله، فكان تقيًا، أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر؛ تعريضًا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم.

وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله، وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم، فعدل عنه إلى المحسنين؛ للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه"[(١)].

قال ابن عجيبة: "فإن يعقوب عليه السلام، لما استعمل الصبر الجميل جمع الله شمله بولده، مع ما أعد له من الثواب الجزيل، ويوسف عليه السلام لما صبر على ما أصابه من المحن عوضه العز الدائم بترادف المنن"[(٢)].

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٩).

(٢) البحر المديد (٣/ ٣٦٣).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الجزع والصبر في قصة يوسف عليه السلام:

١-النفس الإنسانية إذا لم يقدها صاحبها بالصبر الجميل إلى شواطئ السلامة فإن أمواج الضعف الإنساني ستجرفها إلى مهاوي الردى؛ فقليل الصبر لن يستطيع مواجهة رغبات النفس الجامحة.

٢-بين الجزع والصبر مرحلة امتحان من فاز فيها بلغ رتبة الصبر التي ترقيه إلى آفاق الخيرات، ومن أخفق فيها هبط إلى حمأة الجزع، وهي الكفيلة بإرساله إلى دركات الندامة.

٣-للصبر قمم شماء لا يبلغها إلا من ذاق مرارات الصعود، وبشر نفسه المجهدة بجميل الوعود، فصدقته ولم تنظر إلى إغراءات الفتور، وجواذب النفس وهي تصده عن متابعة الارتقاء على معارج الصبر إلى تلك الغاية السامية.

٤-الله تعالى يمحص عبده الصالح بالأحداث المؤلمة؛ ليهيئه للأمور العظيمة، فمن كان يرى من نفسه صلاحًا فلا يستغرب من هدايا الابتلاءات.

٥-إن الحياة مع ملازمة التقوى والعز تجني لصاحبها من الثمرات ما لا تجنيه الاستجابة للشهوات، والذل للبشر، فيوسف لو استجاب للمرأة لبقي رقيقًا في بيت العزيز، ولا يعلم ماذا تكون حاله بعد ذلك لو مات سيده، ولو خرج من السجن حينما قال الملك: ﴿ائتوني به﴾ لخرج والتهمة مازالت تليقها الألسنة، ولم يصر إلى المنزلة التي صار إليها عند الملك بعد أن علم الملك علمه وحزمه وشرف نفسه.

٦- ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ هذه هي شهادة تخرج ظفر بها يوسف من دراسة سنوات الامتحان والصبر، وهو الوسام الدنيوي الذي ربحه من سني بلائه الطويل. وبهذه العبارة الملكية محا الملك ماضي يوسف: الرقيق، المتهم، المسجون.

٧-من الصبر: أن يوسف لم يعرف نفسه لإخوته قبل أن يلقنهم عبراً واعظة، ودروسًا مفيدة؛ لما جنوه في حقه وحق أبيه، وكل ذلك بأمر الله.

٨-الناس للناس، كل يحتاج إلى الآخر، فالملك احتاج إلى يوسف في رؤياه، ويوسف احتاج إلى الملك في تبرئة ساحته وإخراجه من السجن بعد سنوات الصبر.

٩-للصبر أهمية كبيرة في مقارعة ظروف الحياة وتقلبات أحوالها، كما له دوره الكبير في إصلاح النفس، وتهذيب الشخصية.

١٠-إن صمود يوسف أمام تيارات الفتن المتنوعة يدعو إلى الاقتداء، وترسُّم خطاه في سبيل الاهتداء.

١١-لقد علَّم طولُ السجن يوسف عليه السلام دروسًا عظيمة، من أعظمها درس الصبر؛ فحينما دخل السجن قال للفتى الناجي: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، ولكن عندما طال لبثه فقال الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾[يوسف:٥٤].لم يستعجل في الخروج، بل حمله صبره على التريث حتى تبرأ ساحته من التهمة ثم يخرج، وهكذا تم الأمر، فقال لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

١٢- صار يوسف بعد أبيه إلى سجن واسع هو بُعده عنه، ثم صار بعده إلى سجن أضيق منه وهو سجن الرق، ثم صار إلى سجن أضيق من السجنين الأولين وهو سجن الملك، ومن ذلك السجن تحرر من سجونه الثلاثة، فحينما تضاعف الضيق انفرجت كل المضايق.

العَدْل والظُّلم

المطلب الأول: العدل:

التعريف:

لغة:

(**عدل**) العين والدال واللام أصل صحيح يدل على استواء، والعَدْل: الحكم بالاستواء، وما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم، وهو في الأَصل مصدر سُمِّي به فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ وهو أَبلغ منه؛ لأَنه جُعِلَ المُسَمَّى نفسُه عَدْلاً، والعَدْل من النَّاس: المرضيّ المستوِي الطّريقة، والعَدْل: نقيض الجَوْر، والحُكْم بالحق، تقول: عَدَل في رعيته، وهو يَقْضي بالحق ويَعْدِلُ، وهو حَكَمٌ عادِلٌ ذو مَعْدَلة في حكمه، ويومٌ معتدل، إذا تساوَى حالا حرِّه وبَرْدِه، ويقال: عدل في أمره عدلاً وعدالة ومعدلة: استقام، وعدل في حكمه حكم بالعدل، والعدل: الإنصاف وهو إعطاء المرء ما له وأخذ ما عليه[1].

اصطلاحاً:

العدل: عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط[2].

ويمكن أن يقال في تعريف العدل: إنه وضع الشيء في موضعه.خلافًا

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٢٤٦-٢٤٧)، المعجم الوسيط (٢/٥٨٨)، لسان العرب (١١/٤٣٠).

(٢) التعريفات (ص:١٩١).

لتعريف مقابله وهو الظلم كما سيأتي معنا.

نافذة:

إن الله تعالى هو " الحكم، العدل الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم **مثقال** ذرة، ولا يحمِّل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره "(١).

ولما كان ربنا سبحانه عدلاً فإنه يحب العدل بين عباده؛ فلذلك أمرهم بالعدل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠].

بل إنه جل وعلا أمر بالعدل حتى مع الأعداء، فلا تستوجب عداوتهم ظلمهم في ميزان الحق، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٨].

إن للعدل مجالات كثيرة، فلا يحصر العدل في جانب واحد، فمن العدل: القيام بتوحيد الله وطاعته؛ إذ الشرك به ومعصيته ظلم، ومن العدل: العدل في معاملة الناس، ومن ذلك: العدل معهم في القول بشهادة أو غيرها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[الأنعام:١٥٢].

والعدل في الحكم لهم أو عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا

(١) تفسير السعدي (ص:٩٤٨).

الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء:٥٨].

وليس بخافٍ أن العدل مبدأ عظيم من مبادئ صلاح شؤون الناس، واستقرار حياتهم، فمتى ساد العدل بينهم في الحقوق فما أحسن عيشهم، وأسعد حياتهم! إذ" العدل فيها هو قوام العالمين لا تصلح الدنيا والآخرة إلا به"(١).

وفي الآخرة يكون الجزاء العظيم لأهل العدل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا)(٢).

وسنتحدث في هذا المطلب عن أمرين: الأول: مشاهد من العدل في قصة يوسف عليه السلام، والثاني: حكم طلب الولاية وتولية من طلبها.

أ- مشاهد من العدل في قصة يوسف عليه السلام:

أولاً: عدل يعقوب عليه السلام:

نبي الله إسرائيل عليه السلام من خيار الأنبياء الذين أثنى الله عليهم، وبلا ريب أنه كان قائمًا بجميع ما أمره الله تعالى به، منتهيًا عن كل ما نهاه عنه، ومن ذلك العدل في جميع شؤونه؛ فإن العدل صفة حميدة اتفقت الشرائع على مدحها وذم ما يضادها.

وقد كان يعقوب عادلاً في حق ربه، وعادلاً بين أولاده، فليس لديه ظلم لأحد منهم.

---

(١) السياسة الشرعية (ص:٢١١).

(٢) رواه مسلم.

وأما قولهم المعترض: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٨].

فهو من لفظه واضح الموضوع؛ فإن ميل يعقوب إلى يوسف وأخيه إنما هو بالحب، وليس بغيره، ومحبة القلب ليست تحت سلطان الإنسان؛ إذ يعسر عليه أو يستحيل أن يبعد عن قلبه من هجم حبه عليه.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "اللّٰهم قلبي فلا أملكه، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل"(١).

ولذلك أمر الله تعالى الزوج بالعدل بين زوجاته فيما كان تحت قدرته وهو الأمور الظاهرة من نفقة ومبيت وغير ذلك، وعذره فيما خرج عن مكنته وهو الأمور الباطنة كحب القلب، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:١٢٩].

و"هذا العدل الذي ذكر تعالى هنا أنه لا يستطاع هو العدل في المحبة، والميل الطبيعي؛ لأنه ليس تحت قدرة البشر، بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع"(٢).

وقد "نبه تعالى على انتفاء استطاعة العدل بين النساء والتسويةِ حتى لا يقع ميل البتة، ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، وفي ذلك عذر للرجال فيما يقع من

(١) المحرر الوجيز (٢/١٤٢).

(٢) أضواء البيان (١/٣١٧).



التفاوت في الميل القلبي، والتعهد والنظر والتأنيس والمفاكهة ؛ فإن التسوية في ذلك محال خارج عن حد الاستطاعة، وعلق انتفاء الاستطاعة في التسوية على تقدير وجود الحرص من الإنسان على ذلك"(١).

فـ"أمر النساء يغالب النفس؛ لأن الله جعل حسن المرأة وخلقها مؤثراً أشد التأثير، فرب امرأة لبيبة خفيفة الروح، وأخرى ثقيلة حمقاء، فتفاوتهن في ذلك، وخلو بعضهن منه يؤثر لا محالة تفاوتًا في محبة الزوج بعض أزواجه، ولو كان حريصًا على إظهار العدل بينهن؛ فلذلك قال: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾"(٢).

فإذا كان هذا في أمر النساء اللاتي قد يصدر منهن ما يُغضب، فكيف بيوسف الصغير الذي رأى منه أبوه كل ما يحب.

فكيف يستطيع يعقوب أن لا يحب يوسف وقد كمله الله بكل جميل في باطنه وظاهره، وعلم من خلال رؤياه بما يكون له في المستقبل من الخير العظيم، والنفع العميم الذي سيجريه الله لآل يعقوب وغيرهم.

إن يعقوب عليه السلام لو كان عادلاً عن العدل لفعل بالجناة ما يستأهلون من العقاب، ولو كان جائراً معهم لما التمس لهم العذر في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦].

ولو كان كارهًا لهم لما أمرهم بقوله: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[يوسف:٦٧].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٣٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٩).

بلى، إنه كان يحبهم أجمعين، غير أن حب يوسف غالب، فماذا يصنع يعقوب في شيء ليس في يده دفعه؟

وتفاوت الحب للأولاد أمر معلوم لدى الآباء والأمهات، ولا يدرك ذلك من لم يذق طعم الأبوّة، أما من كان له أولاد فإنه يجد في نفسه زيادة حب لبعضهم لأمر يستدعي ذلك، وهو معذور فيما فعل، ولا يدخل ذلك تحت مظلة العدل، إنما العدل في الأمور الظاهرة كالإعطاء والمنع وزيادة العناية ونحو ذلك.

وقد وهم من قال: إنه يجب على الأب العدل بين الأولاد في المحبة القلبية، وأشار بذلك إلى خطأ يعقوب فيما فعل، وهذا من قائله خطأ مبين، ولو كان الأمر كذلك للام الله يعقوب على ذلك، بل إن يعقوب عليه السلام كان على علم بحنق أبنائه على هذا التفضيل في الحب" وما كان يعقوب بالذي يخفي عليه هذا، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه.ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟ كلا "[(١)].

ثانيًا: عدل يوسف عليه السلام:

وليوسف في هذه القصة مشاهد من العدل:

أ-عدله مع العزيز:

فإنه قد تجنب ظلم سيده بخيانته في أهله، حتى قال يوم المراودة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

(١) تفسير المنار (١٢/٢١٦).

يعني: لا ينبغي لي أن أخونه؛ فإني إن فعلت هذا في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون، يعني: الخائنين أو الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، والزنى ظلم على الزاني والمزنيّ بأهله، أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه.

وهذه موعظة جامعة، وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجًا وأحصنها[1].

قال الرافعي: "**فقال** يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف: ٢٣]. وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة؛ إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم. ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها، ولم يَفْثَأ تلك الحدة؛ فإن حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن، في مكان، في رجل. فهي فكرة محتبسة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضًا؛ ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها. وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾[يوسف: ٢٤] كأنما يومئ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه، وتعلقت به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم!"[2].

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ١٥)، البحر المديد (٣/ ٣٦٩)، تفسير البغوي (٤/ ٢٢٨)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ٩١)، التحرير والتنوير (١٢/ ٤٧).

(٢) وحي القلم (١/ ٩٦).

ب-عدله مع إخوته:

فحينما وفد عليه إخوته في المرة الأولى للميرة عرفهم وهم لم يعرفوه، لكنه لم يعاملهم بموجب ظلمهم له فيمنع عنهم الطعام، أو ينقص عنهم على ما يعطي غيرهم منه، أو يعاقبهم أو يحبسهم.

بل عاملهم كما يعامل غيرهم، وأعطاهم ما يعطي سواهم، بل إنه زادهم على العدل المعاملة بالإحسان.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[يوسف:٥٩].

قال ابن إسحاق: "وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد قد آسى بينهم، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيرًا واحدًا، ولا يحمل للرجل الواحد بعيرين؛ تقسيطًا بين الناس، وتوسيعًا عليهم، فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس، يلتمسون الميرة من مصر" (١).

"وتخصيصُ الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه، وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولحقح ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء؛ لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل، وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم

(١) تفسير الطبري (١٦/١٥٣).

في ذلك بما شاء"[1].

وهذا قبل أن يعرفوه، فلما حصل اللقاء والمعرفة أنزلهم منازل الرضا والتكريم، ولم يعاقبهم على ظلمهم السالف.

ج-عدله في ولايته:

خرج يوسف عليه السلام من السجن بعد أن عرف الجميع علمه وأمانته وعفته، فلما دخل على الملك كان قد نزل من قلبه منزلاً عظيمًا لصفاته الجميلة، وشيمه النبيلة، فرأى الملك أنه قد حصل على كنز ثمين يعينه على شؤون مملكته، فأخبر يوسف بعلو مكانته عنده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

"**قال** ابن عباس: يريد مكنتك في ملكي، وجعلت سلطانك فيه كسلطاني، وائتمنتك فيه"[2].

فلما وجد رغبة الملك فيه اختار الوظيفة التي يستطيع بها إقامة العدل ونفع الناس في السنين الأربع عشرة القادمة فإنها سنوات تحتاج إلى مثله؛ فلذلك قال للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].

فـ"لما فهم يوسف من الملك أنه يريد تصريفه والاستعانة به قال له ذلك، وإنما طلب منه الولاية رغبة منه في العدل، وإقامة الحق والإحسان"[3].

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٨٨).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٢/٦١٨).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٣).

وقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾أي: "أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما **قال** ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدنيا"(١).

وبعد أن عرض يوسف نفسه لتولي خزائن الأرض ولاه الملك إياها، فقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦].

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما مكنا ليوسف في قلب الملك من المودة والاعتقاد الصالح وفي قلوب جميع الناس، ومثل ما سأل من التمكين ﴿مَكَّنَّا﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: مطلقاً، لا سيما أرض مصر بتولية ملكها إياه عليها ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ أي: يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء، بعد الحبس والضيق ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ بإنجاح جميع مقاصده؛ لدخولها كلها تحت سلطانه، فمكنا له فيها بعد العبودة والإسار، وبعد الإلقاء في الجبّ؛ لتبقى أنفس أهل المملكة وما ولاها على يده، فيحوز الأجر وجميل الذِّكْر، مع ما يزيد به من علو الشأن وفخامة القدر، فكأنه قيل: لِمَ كان هذا؟ فقال: **لأمرين**:

أحدهما: أن لنا الأمر كله ﴿نُصِيبُ﴾ على وجه الاختصاص ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ بما لنا من العظمة ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ من مستحق فيما ترون وغيره، لا نسأل عما نفعل،

(١) الكشاف (٢/٤٥٥).

وقد شئنا إصابة يوسف بهذا. والثاني: أنه محسن يعبد الله﴿و﴾ نحن ﴿لا نُضِيعُ﴾ بوجه ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العريقين في تلك الصفة، وإن كان لنا أن نفعل غير ذلك.

والمعنى: ولا نبطل جزاء عمل من أحسن فأطاع ربه، وعمل بما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، كما لم نبطل جزاء عمل يوسف؛ إذ أحسن فأطاع الله(١).

وهذا التمكين الثاني ليوسف، وقد جاء عقب إنجائه من السجن، فصار به على ملك مصر، وأما التمكين الأول فقد جاء عقب إنجائه من البئر ومن أيدي الذين باعوه، فصار به إلى كرم المثوى في بيت العزيز، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١].

يعني: "وكما مكنا محبته في قلب العزيز، أو كما مكناه في منزله أو كما أنجيناه، وعطفنا عليه العزيز مكنا له فيها، ولنعلمه من تأويل الأحاديث، ليتصرف فيها بالعدل، ولنعلمه أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل، ويدبر أمور الناس، ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها، أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها، ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنيه. والله غالب على أمره لا يرده شيء، ولا ينازعه فيما يشاء، أو على أمر يوسف إن أراد به إخوته شيئًا، وأراد الله غيره فلم يمكن إلا ما أراده. ولكن أكثر الناس

(١) تفسير الطبري (١٦/١٥١)، نظم الدرر (٤/٦٠).

لا يعلمون أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه"[1].

إن يوسف عليه السلام" لما استوزره الملك أقام العدل، واجتهد في تكثير الزراعات، وضبط الغلات"[2]، وأحسن جمع إيراداتها وصرفها على الناس بالعدل، حتى مرت السنوات الشهباء من دون أن تحصل مجاعة تهلك أهل مصر ومن حولها.

وفي أيام ولايته ورد عليه إخوته مرتين، وفي المرة الثانية حبس أخاه بنيامين عنده بوحي من الله تعالى في قضية الصواع، فلما ناداهم المنادي بالسرقة نفوها عن أنفسهم، فقيل لهم حينئذ: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾[يوسف:٧٤]، قالوا - حسب شريعة يعقوب-: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[يوسف:٧٥].

يعني: السارقين، فسمى السرقة ظلمًا، والمعنى: "أي: كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه"[3].

فلما أُخذ بنيامين بالصواع جاء إخوته يستشفعون إلى يوسف بترك واحد منهم بدلاً عنه لشيخوخة أبيه وكبره، فقال يوسف العادل: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾[يوسف:٧٩].

"**والمعنى**: الامتناع من ذلك، أي: نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا

(١) تفسير البيضاوي (٣/ ٢٨٠).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/٢٩٦).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٤).

حق لنا في أخذه، أي: أن يعصمنا من الظلم؛ لأن أخذ من وجد المتاع عنده صار حقًا عليه بحكمه على نفسه؛ لأن التحكيم له قوة الشريعة.وأما أخذ غيره فلا يسوغ؛ إذ ليس لأحد أن يسترق نفسه بغير حكم؛ ولذلك علل الامتناع من ذلك بأنه لو فعله لكان ذلك ظلماً"[(١)].

ثالثًا: عدل الشاهد في الحكم:

وصل العزيز إلى بيته على مشهد هروب يوسف من زوجة العزيز، فبادرت المرأة سيدها باتهام يوسف عليه السلام، فرد يوسف التهمة عن نفسه، وهيأ الله له حكمًا من أهل المرأة قضى بينهما بحكم عادل، قام على القرينة، والحكم بالقرائن طريق من الطرق الصحيحة التي يحكم بها القاضي أو الحاكم[(٢)].

فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٦-٢٨].

يعني: " فحكم بعض أهلها، وإن لم يكن محايداً، وقد حكم بالعدل، فقرر أنه ﴿إِن كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من أمامه ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِن الْكَاذِبِينَ﴾؛ لأنها هي التي جذبته؛ لكيلا يفر من الاتهام، ويكون هو الذي راودها، وحاول، ثم لما رفضت أراد الفرار، فجذبته لكيلا يهرب، وإذا كان قميصه قطع من دُبُر أي: الوراء فمؤدى ذلك أنه أراد الفرار مما دعته إليه، وأرادت استبقاءه لغايتها،

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠٤).

(٢) ينظر: كتاب الطرق الحكمية، لابن القيم.

وقد ثبت أن قميصه قدَّ من دُبُر أي: من الوراء"[1].

قال ابن القيم: "...ومن ذلك قول الشاهد الذي ذكر الله شهادته، ولم ينكر عليه ولم يعبه، بل حكاها مقررا لها [ثم ذكر الآيات]...فتوصل بقد القميص إلى معرفة الصادق منهما من الكاذب، وهذا لوَثٌ[2] في أحد المتنازعين يبين به أولاهما بالحق"[3].

وقال الشنقيطي: "يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين، وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف؛ يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ لأن أولاد يعقوب لما جعلوا يوسف في غيابة الجب، جعلوا على قميصه دم سخلة؛ ليكون وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في دعواهم أنه أكله الذئب.

ولا شك أن الدم قرينة على افتراس الذئب له، ولكن يعقوب أبطل قرينتهم هذه بقرينة أقوى منها، وهي عدم شق القميص، فقال: سبحان الله! متى كان

---

(١) زهرة التفاسير (٧/٣٨١٧).

(٢) **اللوث**: البيّنة.

(٣) الطرق الحكمية (ص:٧).

الذئب حليماً كيِّساً يقتل يوسف ولا يشق قميصه!.ولذا صرح بتكذيبه لهم في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن "(١).

رابعًا: عدل الملك:

رغم أن هذا الملك له مشهد ظلم - سيأتي معنا-، ولكن وجدنا له ثلاثة من مشاهد العدل في هذه القصة:

الأول: استجابته ليوسف للقضاء في ظُلامته:

فإن الملك لما جاءه رسوله بتعبير رؤياه من قبل يوسف أعجبه ذلك، فأمر بإخراج يوسف من السجن، فأبى يوسف ذلك حتى تظهر براءته فرفع مظلمته إلى الملك ليطهر عرضه النقي من التهمة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

قال الرازي: "اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من **اللطائف**:

أولها: أن معنى الآية: فسل الملك يأن يسأل ما شأن تلك النسوة، وما حالهن؛ ليعلم براءتي عن تلك التهمة، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة؛ لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل.

وثانيها: أنه لم يذكر سيدته مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن الطويل، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة.

---

(١) أضواء البيان (٢/٢١٥-٢١٦).

وثالثها: أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبنه إلى عمل قبيح، وفعل شنيع عند الملك، فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل "[1].

فاستجاب الملك لذلك، وأمر بإحضار النسوة المعنيات.

الثاني: التحقيق مع النساء قبل إصدار الحكم:

وذلك أن الملك كان على يقين من صدق يوسف وبراءته بعد أن عرف علمه وأمانته، ووصفِ ساقيه له بالصفات الجميلة، لكن الملك لم يقض بعلمه ذلك[2]، ولم يشرع في لوم النساء عندما جمعهن، ولا عاقبهن قبل أن يتحقق من الأمر؛ فلذلك سألهن سؤال متثبت قاضٍ، فقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾[يوسف:٥١]. **والمعنى**: "أي: شيء كانت قصتكن؟ فهو استدعاء منه أن يعلمنه القصة"[3].

وهذا "سؤال الملك قد تضمن تنزيه يوسف لما تخيله من صدقه؛ لطفاً من الله تعالى به؛ حتى لا تسرع واحدة منهن إلى التكذيب عليه"[4].

الثالث: إخراج يوسف من السجن وتوليته على خزائن الأرض:

فقد أخرج يوسف عليه السلام من السجن لأمرين: علمه وأمانته، ظهور براءة ساحته من التهمة، ثم توج عدله بتوليته عملاً عظيمًا من أعمال المملكة.

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٢٢).

(٢) وقد تقرر عند أهل العلم–على القول الراجح–: أن القاضي لا يقضي بعلمه. ينظر: بحوث ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر (١٥/ ٣١).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٢٦٢).

(٤) النكت والعيون(٣/ ٤٦).

وهذا مشهد عدل من ذلك الملك؛ إذ تولية الأكفاء، واصطفاؤهم من أعظم مظاهر العدل في الحكم، وتولية غير الأكفاء من مظاهر الجور والظلم.

خامسًا: عدل إخوة يوسف:

فإنهم لما رجعوا إلى أبيهم بعد حبس بنيامين في مصر بالصواع الذي بدا لهم في ظاهر الأمر أنه سرقه؛ لوجوده في وعائه؛ أخبروا أباهم بما جرى حسب ما ظهر لهم، فقالوا: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ [يوسف:٨١].

يعني: "قولنا لك: إن ابنك إنما هو شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ أي: لا نعلم الغيب هل ذلك حق في نفس الأمر أم لا؛ إذ يمكن أن يدس الصواع في رحله من غير علمه"(١).

وهذا الذي قالوه هو عدل في الشهادة، وقد قال الله تعالى في هذه الصورة من الشهادة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[الأنعام:١٥٢].

قال ابن عاشور: "﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ هذا جامع كل المعاملات بين الناس بواسطة الكلام وهي الشهادة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصلح بين الناس، والأخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمؤجرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكل ذلك داخل فيما يصدر عن القول، والعدل في ذلك أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٢/٢٩).

الحقوق: بإبطالها، أو إخفائها...وأما الشهادة والقضاء فأمر العدل فيهما ظاهر "[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء:١٣٥].

ب- حكم طلب الولاية وتولية من طلبها:

في هذه القصة المباركة ذكر الله تعالى أن يوسف عليه السلام طلب من ملك زمانه في مصر أن يوليه ولاية خزائن الأرض- وزيراً للمالية بالمصطلح العصري أو ما أشبه ذلك- فهل في هذا قدوة لنا مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها)[2]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (إنا لا نولي على هذا العمل من سأله، ولا من حرص عليه)؟[3]، ثم كيف يتولى يوسف ولاية لملك كافر؟، وماذا قال العلماء عن دلالة هذه الآية على طلب الولاية؟

والجواب عن هذه الأسئلة فيما يأتي:

الجواب عن الأول:

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٢٤).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

ذكر العلماء عدة أجوبة عن ذلك:

١-**قال** ابن تيمية: "فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه"(١).

وقال أيضًا: "ثم الولاية وإن كانت جائزة أو مستحبة، أو واجبة فقد يكون في حق الرجل المعين غيرها أوجب أو أحب، فيقدم حينئذ خير الخيرين وجوبًا تارة، واستحبابًا أخرى، ومن هذا الباب تولي يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض".

وقال أيضًا: "وأما سؤال الولاية فقد ذمه النبي صلى الله عليه وسلم، وأما سؤال يوسف قوله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ فلأنه كان طريقًا إلى أن يدعوهم إلى الله، ويعدل بين الناس، ويرفع عنهم الظلم، ويفعل من الخير ما لم يكونوا يفعلونه، مع أنهم لم يكونوا يعرفون حاله، وقد علم بتأويل الرؤيا ما يؤول إليه حال الناس، ففي هذه الأحوال ونحوها ما يوجب الفرق بين مثل هذه الحال وبين ما نهى عنه.

وأيضًا: فليست هذه إمارة محضة إنما هي أمانة، وقد يقال: هذا شرع من قبلنا"(٢).

٢-**وقال** أبو العباس القرطبي: "وهذا كله محمول على ما إذا كان هنالك جماعة ممن يقوم بها، ويصلح لها، فأما لو لم يكن هنالك ممن يصلح لها إلا واحد لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها، ويسأل على ذلك، ويخبر بصفاته التي

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٦).



يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك؛ كما **قال** يوسف عليه السلام : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]"[١].

٣-**وقال** ابن العربي: "وعن ذلك أربعة **أجوبة**:

الأول: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.ولا قال: إني مليح جميل، إنما قال: إني حفيظ عليم، فسألها بالحفظ والعلم لا بالحسب والجمال.

الثاني: سأل ذلك ليوصل إلى الفقراء حظوظهم لا لحظ نفسه.

الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه، فأراد التعريف بنفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[النجم:٣٢].

الرابع: أنه رأى ذلك فرضًا متعينًا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره[٢].

٤-**وقال** ابن عاشور: "وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك؛ لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، فلا يعارض هذا ما جاء في حديث عبد الرحمن بن سمرة...؛ لأن عبد الرحمن بن سمرة لم يكن منفرداً بالفضل من بين أمثاله، ولا راجحًا على جميعهم"[٣].

٥-**وقال** أبو حيان: "وإنما طلب يوسف هذه الولاية ليتوصل إلى إمضاء

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/٣٩٩).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٥/٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٨٢). بتصرف.

حكم الله، وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد.ولعلمه أن غيره لا يقوم مقامه في ذلك"(١).

٦-**وقال** الرازي: "الأصل في أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجباً عليه **لوجوه**:

الأول: أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

والثاني: وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك، ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان هذا الطريق واجباً عليه"(٢).

٧-**وقال** ابن عطية: "وطلبة يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام؛ لرغبته في أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه

---

(١) البحر المحيط (٥/٣١٨).

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٢٨-١٢٠).

المستشير من الأنصار عن أن يتأمر على اثنين..الحديث بكماله، فجائز للفاضل أن يعمل، وأن يطلب العمل إذا رأى أن لا عوض منه، وجائز أيضًا للمرء أن يثني على نفسه بالحق إذا جُهل أمره"[1].

٨-**وقال** القرطبي المفسر: " **فالجواب**:

أولاً: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه؛ فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى أن لا يطلب؛ لقول عليه السلام لعبد الرحمن: (لا تسأل الإمارة). [وأيضًا] فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها، وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله عليه السلام: (وُكِل إليها)، ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها، ثم إن ابتلي بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: (أعين عليها)....

الرابع: أنه رأى ذلك فرضًا متعينًا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم"[2].

---

(١) المحرر الوجيز (٣/٢٦٥).

(٢) تفسير القرطبي (٩/٢١٦-٢١٧).

والجواب عن الثاني-وهو: كيف يتولى يوسف ولاية لملك كافر-:

فقد **قال** ابن العربي: "لم يكن سؤال ولاية، إنما كان سؤال تخلٍّ وترك، لينتقل إليه؛ فإن الله لو شاء لمكنه منها بالقتل والموت والغلبة، والظهور والسلطان والقهر، لكن الله أجرى سنته على ما ذكر في الأنبياء والأمم، فبعضهم عاملهم الأنبياء بالقهر والسلطان والاستعلاء، وبعضهم عاملهم الأنبياء بالسياسة والابتلاء، يدل على ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦]"(١).

وقال ابن تيمية: "وكان هو [الملك] وقومه كفاراً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾[غافر:٣٤]الآية وقال تعالى عنه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٣٩-٤٠]، ومعلوم أنه مع كفرهم لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد وهو ما يراه من دين الله؛ فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]"(٢).

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٥/ ٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٦).

وقال ابن جزي: " ويستدل بذلك على أنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر إذا علم أنه يصلح بعض الأحوال "(١).

وقال أبو حيان: "فإنْ كان الملك قد أسلم- كما روى مجاهد- فلا كلام، وإن كان كافراً ولا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكينه، فللمتولي أن يستظهر به.وقيل: كان الملك يصدر عن رأي يوسف، ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع.وما زال قضاة الإسلام يتولون القضاء من جهة من ليس بصالح، ولولا ذلك لبطلت أحكام الشرع، فهم مثابون على ذلك إذا عدلوا "(٢).

وقال الزمخشري:" هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه.وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به.وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع(٣).

والجواب عن الثالث-وهو قول العلماء في دلالة هذه الآية على طلب الولاية-:

قال البيضاوي: "وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به، وعن مجاهد أن الملك أسلم على يده"(٤).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٣).
(٢) تفسير البحر المحيط (٥/٣١٨).
(٣) تفسير الكشاف(٢/٤٥٥).
(٤) تفسير البيضاوي(٣/٢٩٥).

وقال القاسمي: "وهذه الآية أصل في طلب الولاية كالقضاء ونحوه، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه، وجواز التولية عن الكافر والظالم. وأصل في جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته، وفي أن المتولي أمراً شرطه أن يكون عالمًا به، خبيراً، ذكّي الفطنة"[1].

وقال ابن عاشور: "وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره؛ لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة على مصلحة الأمة...ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل، وأنه إن لم يول ضاعت الحقوق"[2].

(١) محاسن التأويل (٦/١٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٨٢).

المطلب الثاني: الظلم

التعريف:

لغة:

(ظلـم) الظَّاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا: خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَالْآخَرُ: وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا.

ويقال: ظَلَّمت فلاناً: نسبتُه إلى الظُّلم. وظَلَمْتُ فلاناً فاظَّلَم وانظلم، إذا احتملَ الظُّلْم، ويقال: ظلم ظلماً ومظلمة جَار وَجَاوَزَ الْحَد، وَفِي الْمثل أيضًا "من استرعى الذِّئْب فقد ظلم"، وَيضْرب لمن يولي غير الْأمين، وظلم فُلَانًا حَقه غصبه أَو نَقصه إِيَّاه، فَهُوَ ظَالِم وظلام وَهُوَ وَهِي ظلوم، والظُّلَامَة: ما تطلبه من مَظْلِمَتك عند الظَّالم[1].

اصطلاحًا:

الظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير،ومجاوزة الحد.

وقيل: والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه[2].

نافذة:

لقد تعارف عقلاء الناس على قبح الظلم وسوء الاتصاف به، وشاهدوا

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٤٦٨)، المعجم الوسيط (٢/٥٧٧).

(٢) التعريفات (ص:١٨٦)، مفردات ألفاظ القرآن(٢/٥١).

عواقبه وعقوباته، فحذروا سلوك طريقه، ودعوا الناس إلى تجنب كل ظلم صغيره وكبيره، وقالوا محذرين:

وَإِيَّـــاكَ وَالظُّلْـــمَ مَهْـــمَا اسْـــتَطَعْ ... تَ فَظُلْـــمُ الْعِبَـــادِ شَـــدِيدُ الْـــوَخَمْ

وَسَـــافِرْ بِقَلْبِـــكَ بَـــيْنَ الْـــوَرَى ... لِتَبْـــصُرَ آثَـــارَ مَـــنْ قَـــدْ ظَلَـــمْ

فَتِلْـــكَ مَـــسَاكِنُهُمْ بَعْـــدَهُمْ ... شُـــهُودٌ عَلَـــيْهِمْ وَلَا تُـــتَّهَمْ

وَمَـــا كَـــانَ شَيْءٌ عَلَـــيْهِمْ أَضَـــ ... رَّ مِنَ الظُّلْمِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ[1].

ومما يدل على عظم خطر الظلم: أن الله تعالى حرمه على نفسه، وحرمه بين عباده، فقال في الحديث القدسي: (يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا)[2].

غير أن النفس البشرية قد تستعبدها أهواؤها وشهواتها حتى تقع في الظلم؛ " لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي، ورادع ملي.

وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنْ الْأَذَى ... حَتَّـى يُـرَاقَ عَـلَى جَوَانِبِـهِ الـدَّمُ

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّـــةٍ فَلِعِلَّـــةٍ لَا يَظْلِـــمُ

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقل زاجر، أو دين حاجر، أو سلطان رادع، أو عجز صاد.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص:٧٥).

(٢) رواه مسلم.

فإذا تأملتها لم تجد خامسًا يقترن بها، ورهبة السلطان أبلغها؛ لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين، أو بدواعي الهوى مغلوبين. فتكون رهبة السلطان أشد زجراً، وأقوى ردعًا"(١).

والظلم ليس نوعًا واحداً بل ثلاثة أنواع: "قال بعض الحكماء: الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق، والثاني: ظلم بينه وبين الناس، والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس؛ فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا الظالم أبداً مبتدئ في الظلم؛ ولهذا قال تعالى في غير موضع: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[آل عمران:١١٧] "(٢).

وفي قصة يوسف عليه السلام مشاهد ذكرت عن الظلم، وهي كالآتي:

الأول: ظلم إخوة يوسف:

ولظلمهم صور:

أ- حسد يوسف عليه السلام:

فقد امتلأت قلوبهم عليه حسداً؛ لزيادة حبه في قلب أبيه، وتميزه عليهم بصفات الفضل، وخلال السمو.

والحسد نوع من الظلم؛ فقد قيل في تعريفه: "ظلم ذي النعمة بتمني زوالها عنه، وصيرورتها إلى الحاسد"(٣).

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص:١٦٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٢/٥١-٥٢). بتصرف.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٧٨).

وذلك أن الحاسد قد اعتدى على المحسود اعتداء لا يستحقه.

ب-اتهام أبيهم بالجور والميل عن الصواب:

فإنهم حينما ضاقت قلوبهم بكراهية يوسف وحسده لم يستطيعوا أن يكتموا ذلك فأعلنوا بسبب الحسد وصرحوا بظلم أبيهم لهم، فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٨].

وهذا بهتان عظيم في حق نبي الله يعقوب الذي قد حيل بينه وبين ركوب كبائر الذنوب، والظلم منها.

ج- التفريق بين أبيهم وبين يوسف عليهما السلام:

فما فعلوه من أخذ يوسف وإلقائه في الجب لغرض إبعاده عن أبيهم وإراحة قلوبهم من وجوده بينهم؛ هو ظلم عظيم لا يقدم عليه إلا ذوو العقوق، وقطّاع الرحم.

و في شريعتنا-شريعة العدل والرحمة-نهي عن التفريق في البيع بين الأقارب من الموالي؛ فعن أبي أيوب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (من فرق بين والدة وولدها، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة)(١).

قال الترمذي عقبه: "والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم؛ كرهوا التفريق بين السبي بين الوالدة وولدها، وبين الولد والوالد وبين الإخوة".

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

د- إلقاء يوسف في الجب:

وهو ظلم عظيم ساق إلى محن أخرى جرت ليوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: من الظلم[١].

هـ-اتهام يوسف بالسرقة:

فحينما وجد الصواع في رحل بنيامين أذكى ذلك حقدهم القديم على أخيه يوسف فقالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[يوسف:٧٧].

وهي تهمة عارية عن الدليل، وفرية من فراهم تضاف إلى رصيدهم السابق في ظلم يوسف، واتهام البريء من أعظم الظلم.

حتى ولو كان صحيحًا ما قالوه عن يوسف فلا وجه لإلحاق بنيامين بيوسف في ذلك، **قال** ابن القيم: "وأما قياس الشبه فلم يحكمه الله سبحانه إلا عن المبطلين فمنه قوله تعالى- إخباراً عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم-: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[يوسف:٧٧]. فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو

(١) التفسير المظهري (٥/١٩٦).

قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقًّا ولا دليل على التساوي فيها فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها "[1].

الثاني: ظلم السيارة:

فإنهم حينما وجدوا يوسف في البئر لم يخرجوه لإنقاذه ورده إلى أسرته كما يفعل الإنسان الكريم، ولكنهم استرقوه وباعوه ظلمًا، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:١٩].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ معناه: "والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حق في استرقاقه، ومن كان حقه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم؛ لأنهم قد علموا خبره، أو كان من حقهم أن يسألوه؛ لأنه كان مستطيعًا أن يخبرهم بخبره[2].

وقال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[يوسف:٢٠].

وقد فسر قتادة البخس هنا بالظلم[3].

الثالث: ظلم امرأة العزيز:

فقد ظلمت يوسف عليه السلام بأنواع من الظلم وهي: المراودة، اتهامه بإرادة السوء بها، إكراهه على الخروج على النسوة وإغرائهن به ومراودتهن له،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٣).

(٣) النكت والعيون (٣/ ١٨).

قذفه في السجن، تغيير قلب سيدها عنه،، تشويه سمعته في المجتمع عدة سنوات.

الرابع: ظلم الملك:

فقد ألقى الملك يوسف في السجن من غير تحرٍّ ولا تثبت، ثم أبقاه فيه سنوات من دون إعادة نظر في قضيته لإطلاقه أو معاقبته كما يقتضيه العدل.

قال ابن عاشور: "وفيما حكاه القرآن عن حال سجنهم ما ينبئ على أن السجن لم يكن مضبوطًا بسجل يذكر فيه أسماء المساجين، وأسباب سجنهم، والمدة المسجون إليها، ولا كان من وَزَعَة السجون ولا ممن فوقهم من يتعهد أسباب السجن، ويتفقد أمر المساجين، ويرفع إلى الملك في يوم من الأسبوع أو من العام. وهذا من الإهمال والتهاون بحقوق الناس، وقد أبطله الإسلام؛ فإن من الشريعة أن ينظر القاضي أول ما ينظر فيه كل يوم أمر المساجين"[(١)].

ولهذا فإن يوسف عليه السلام لما أدخل السجن ظلمًا رفع شكواه إلى الملك حينما لم ير منه التفاتة عدل تنجده مما هو فيه فقال للفتى الناجي: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢]، لكن ذلك الفتى نسي أمر يوسف لحكمة يريدها الله تعالى من تمام سنوات البلاء ليعظم أجره عنده.

قال الشوكاني: "﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ يذكره عند سيده؛ ليكون ذلك سببًا لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه، بعد أن رأى من

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٧٩).

الآيات ما يدل على براءته"[1].

وقال الزمخشري -عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ -: "فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق، ونحو ذلك من المضارّ"[2].

ولما طلب الملك إخراجه بعد ذلك وقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أبى يوسف عليه السلام، قال ابن كثير: ": ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدوانًا"[3].

أرسل البحتري أبياتًا يسلي بها أحد أصحابه المسجونين ظلمًا فكان مما قال:

وَمَا هَذِه الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلٌ ... فَمِن منزلٍ رحْبٍ إِلَى منزلٍ ضَنْكِ

وَقد هذّبتْكَ الحادثاتُ وَإِنَّمَا ... صفا الذَّهَبُ الإبريزُ قبلَكَ بالسَّبْكِ

أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ يُوسُفَ أُسْوَةٌ ... لِمِثْلِكَ مَحْبُوسًا عَلَى الظُّلْمِ وَالْإِفْكِ

أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبْرِ فِي الْحَبْسِ بُرْهَةً ... فَآلَ بِهِ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ إِلَى الْمُلْكِ[4].

الخامس: ظلم المجتمع:

كان المجتمع الذي حل فيه يوسف عليه السلام بعد أرض أبيه مجتمعًا يعيش

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/٣٥).

(٢) الكشاف (٢/٤٤٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٣).

(٤) أنس المسجون وراحة المحزون (ص:١١٨).

على الظلم العظيم، ألا وهو الشرك بالله تعالى، ويدل على هذا دعوته للفتيين في السجن وتصريحه بشركهما وشرك قومهما، **قال** تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٣٩-٤٠].

ولا شك أن الشرك بالله تعالى ظلم عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

" ووجه كونه عظيماً: أنه لا أفظع وأبشع ممن سَوَّى المخلوق من تراب، بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كله، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّى من لم ينعم بمثقال ذرة [من النعم][٣] بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟؟!"[١].

قال ابن القيم: "فإن الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك؛ ولهذا يجمع سبحانه بينهما؛ أما الأول: ففي قوله:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨].وأما الثاني: فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]"[٢].

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٤٨).

(٢) الفوائد (ص:٨١).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد العدل والظلم في قصة يوسف عليه السلام:

في هذه المشاهد المتباينة التي وجدنا فيها العدل في أبهى صوره، والظلم في أسوأ أثره نلاحظ الآتي:

١-ما أجمل ريح العدل حينما تهب في النفوس فتحمل إلى الناس فرجًا بعد ضيق، ويسراً بعد عسر!.

٢-إذا قامت سُوق العدل في النفس أثمر شجرها في الناس حفظ الحقوق، وسلامة الجوارح من العدوان والطغيان، واستظل الناس تحت أوراقها الوارفة فألفوا الأمن والأمانة والكفاية والصيانة.

٣- النفوس الكبيرة حينما يصير الأمر إليها لا تتعامل بأحقاد الماضي فتبعث الاحتقانات السالفة؛ لتنتصر للذات، بل تتعامل بالعدل وتناسي الجراح.

٤-في أحوال الشدة المتراكمة قد يهيئ الله لخلقه عبداً من عباده يخفف عنهم وطأة البلاء.

٥-﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ جملة اعتصام قالها يوسف مرتين: **الأولى**: اعتصام بالله من الفاحشة والخيانة عند مراودة امرأة العزيز له، **والثانية**: اعتصام بالله من الظلم، في قصة الصواع.

فما أحوج العبد إلى اللجوء إلى الله حينما تسول له نفسه الوقوع في هاتين الخطيئتين، فأولهما تسوق إليها القوة الشهوانية، وثانيهما تقود إليها القوة الغضبية، ودفع هاتين القوتين يحتاج إلى استعانة بقوة الله تعالى.

٦-ستمر بالظالم أيام يصير فيها تحت سقف الذل، وربما يتجرع غصص الحياة من الكأس التي سقى غيره منها.

٧-كم من سجون تنطق جوانبها الصامتة بشدة الظلم لمن يعيش مظلومًا بين

جدرانها، وهي تسمع جؤاره واستغاثته بلا مغيث، ويتغافل ذو المسؤولية عن متابعة جرائر أهلها، ولو فتشوا ملفاتهم لما بقي في السجون إلا القليل، فأين التقوى وأين العدالة؟

٨-في ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أسلوب من أساليب التأديب، خاصة في تربية الأولاد، وهو: إيكال العقوبة للمذنب ليحكم فيها على نفسه، وهذا الأسلوب يساعد على الردع ويخفف من اللوم والعتاب على الأبوين.

٩-أكثر من ظُلم في هذه القصة هو يوسف عليه السلام، فإذا كان يعقوب قد ظُلم من طرف واحد وهم أبناؤه، فإن يوسف قد ظلم من أربعة أطراف: إخوته، امرأة العزيز، النسوة، الملك.

١٠-الظلم شديد على النفوس، وأشده ظلم ذوي القرابة؛ لكونه يصدر من جهة هي قِبلة للحب ورجاء الخير. سئل بعضهم: "لمَ صار التنافس والتعادي وما أشبههما في ذوي القربى أكثر وأشد، وهذا كالشيء المتعالم، وهو غني عن البرهان، وإعادة القول والبيان وليس ذلك كذلك مع الأجانب والأباعد، فإن كان كالشاذ، كما أن التصافي والتخالص أيضًا في ذوي الرحم كالشاذ؟

فقال: إن ذوي القرابة والرحم والنسب يرى كل واحد منهم أنه أولى وأحق بحيازة ما لأبيه وعمه، وأن غيره في ذاك كالمزاحم والدخيل والمتدلي، فتحفزه أعراض كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس، على أن يكون هو وحده حاوياً لتلك المواريث من المال، والجاه، والقدر، والمنزلة، وهذه الأعراض لا تعتري الإنسان في البعيد والنسب، والبلد، واللغة، والصناعة والخلق"[١].

(١) الصداقة والصديق (ص:٢٦).

فهرس المحتويات


مقابلات
قصة يوسف عليه السلام
الجزء الأول
تأليف الدكتور
عبدالله بن عبده العواضي